كرم ملحم كرم

دمعة يزيد

قصة وتاريخ

•

الطبعة الثانية

•

منشورات الجبل الاخضر * بيروت * لبنان

الجزء الاول

نظرة ... فهيام !

١

مَن الضارب كبد الرمال الخانعة الغبر ، على بعيره الاسمر السبوح ، الملتفّ بعباءة كلون الرماد ، والمعتمّ بلفافة سوداء ، مفتولة كالطوق؟...مَن هذا المكحّل العينين بالاثمد ، المستطيل الوجه على بياض لوّحته الشمس ، فاكمدّ ، الطرير الشاربين ، السبط العذار ، الحانق النظرات ، كأن له عند دنياه ثأراً ؟

مَن الرجل الصموت ، المنسلّ في المدن على استخفاء ، والطاوي البيد على صيحة : « الله اكبر ! » ، المقيم في يومه الصلوات الخمس ، مرتلاً فيها القرآن ، وقد استظهره حرفاً حرفاً ؟...مَن المجاهد ، وقد كشف جبينه عن مبغى ملحاح يوم قضاءه ، ودلت همته على رسالة جموح لا ينثني عنها ؟

نحر خمساً وعشرين ليلة في وثبته من مكة ،صامداً الى دمشق ، وما يزال يهمّ بنحر سبع ليالٍ لبلوغ عاصمة معاوية بن ابي سفيان. وكلما جاوز فدفداً ، هوت يمينه عفواً الى مقبض سيفه تجسّه ، كأنه منطلق الى دمشق لسيفه ، يضرب به الاعناق

ودمشق خلعت عنها، في مؤتمر أذرح، خلافة علي بن ابي طالب، وتلفتت الى خليفة آخر تقيمه على المسلمين. فما عدت لفتنها معاوية، وليّها منذ عشرين عاماً، وقد خبرت فيه الحكمة والسماح، واعتزمت ان لا تعدل به سواه من الاقطاب. فهو، في معتقدها، خير من يحرص على التراث العربي، المسبطرّ النخوم، العالي القباب

ورسخت في صعيدها المصطفى قدمها. معاوية خليفة الرسول العربي، محمد بن عبد الله. ونادت به من أعلى المآذن. وتنكرت لابن ابي طالب، ابن عم الرسول. فلم يجهل معاوية كيف يخطب ودها، ويستميلها اليه. فنثر الذهب، وجامل، وصانع. وتناهى في الملَينة حتى لم يكن يغضب للشتيمة تثقب اذنيه، ولا للاستطالة عليه بجرّ اذيالها الاعرابي الجافي، الفظ. فالحلم، عند ابن هند، دعامة سياسة الناس. والكرم مفتاح القلوب، حتى الغُلُف، الغلاظ

وتمثل مقتعد سنام البعير، في وثبته الى دمشق، هذا الملك الضخم البنيان، البعيد الاطراف، تقبض عليه عرضاً يد معاوية، بلا جهد ولا عياء. وتنهد، وقال: قاتل الله عمرو بن العاص، انه لمجرم. طمعه، في دنياه، رمى الاسلام بالويل والشقاق!

وعكف على حثّ مطيته الى مثوى ابن ابي سفيان، مغتصب الخلافة من علي، وهو يدمدم: واعجباً منا في يوم صفين، كيف قنع بعضنا بالتحكيم، ونحن ارباب الحق النطّاح؟... ولكنها مكيدة ابن العاص الماكر. آه من ابن العاص!

وامتدت يمناه الى حسامه، فكاد ينتزع النصلة من الغمد على لظى وهياج. ولو اسعفه الظعون بجز جزة واحدة، الى دمشق، ينزل بافيائها، ويقف من

معاوية وجهاً لوجه . فيخذله عن حق ادعاه ، ويصدف به عن بطل صال فيه. على انه سيبلغ دمشق . فلا بد ان يدخلها ، ويمتشق فيها صارمه الصقيل

ولم يكن يجهل مقام معاوية . فليس ابن ابي سفيان نكرة في الناس ، وابوه سيد قريش في العهد الجاهلي ، ومناوىء محمد بن عبدالله في مستهل النبوّة. ما غاب عنه ان معاوية كاتب الرسول ونجيّه ، وان الرسول تزوج رملة ، اخت معاوية ، مصاهرةً لبيت ابي سفيان ، ورغبة في ضم زعيم قريش اليه . فان يرضَ ابو سفيان ، ترضَ قريش جمعاء !

ويزيد ، يزيد الخير اخو معاوية ، من صفوة قادة المسلمين. فهو اول من ولي دمشق في عهدها العربي . وعتبة ، شقيق معاوية ، من فحول خطباء العرب . اذا وقف في الناس للحماسة ، دفعهم ببليغ بيانه الى الموت مختارين ، باسمين . وإن توعدهم أحسوا الارض تدور بهم ، وتهوي من تحتهم هلعاً

هذا كله ملء وعي راكب البعير وضميره . على انه لم يكن يتهيب خطر معاوية ، ومعاوية انتزع الحق من صاحبه ، واثارها في المسلمين إحناً وبغضاء. فالاسلام لا يقوم على الفرقة ، بل على الجماعة. وليست الجماعة ما اراد معاوية ، وقد بدد شمل المسلمين بركوبه مقعد الخلافة عنوة . فشطر القوم شطرين ، بل ثلاثة . رهط معاوية ، فرهط علي ، فالخوارج الحراص على منطوق الكتاب

وهوت الليالي السبع مضرّجات بدمها . وها هي ذي دمشق تطلّ مجلوّة كالعروس البكر ، وقد تفتحت على نضرة الربيع ، ونضرة الخلافة. فأبى معاوية ان تنتهي اليه سيادة المسلمين ، ولا يقدرها قدرها ، ويرفع من شأنها . فان ينازعه فيها ابن ابي طالب ، فقد أقرّته عليها الشام ، ومصر ، وبعض الحجاز ،

واعطته حقاً لم يكن له فيها . وهذا الحق لن يكتفي به معاوية ، وهو يريده كاملاً . فليس يقنع من قرص الحلوى ببعضه ، والنفس تصبو جميعاً اليه

ومقتعد سنام البعير ، الشاخص من مكة الى دمشق على غليان وحنق ، ليس بالغريب عن حاضنة بردى . فارتادها في السنة السادسة والثلاثين للهجرة، اثر معركة صفين، يرقب فيها ما يكون من امر التحكيم في أذرح. وها هو ذا ، بعد طيّ اربع سنوات، يجتاز اليها دروبها ،وكل جارحة فيه تنتفض كرهاً ومقتاً لعلي ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص

ولم يكن راضياً عن احد . فالثلاثة يشنأهم فؤاده . الثلاثة هدموا ، في عرفه ، شرعة الله . ووقف البعير ، في كبد دمشق ، على ضفة بردى ،يعبّ الماء . فوثب عنه معتليه، بعمامته السوداء، ممتعاً ناظريه بمباهج قاعدة ابي عبد الرحمن ، ومغانيها الفخام . ولاح له قصر الخضراء بقبابه المشمخرّة ،وفسحته المتمادية في الانبساط،فراعه الانسجام ،وفتنه الرواء .ولكن من شيد القصر ، ومن يثوي به ؟ . . منذ اربع سنوات لم يكن ، في دمشق ، لهذا الصرح اثر ، فكيف قام اليوم يناطح السحاب ؟

ولعب الفضول بالنزيل الاسود العمامة . ودنا من صبية يلعبون ، على ضفاف النهر ، ومقود البعير في يده ، ومقبض سيفه يقتحم شقّ عباءته بلا احتشام. قال يخاطب الصبية ببسمة عريضة ، يروم بها الاستدراج : من صاحب هذا القصر الضخم ، يا أبناء أخي ؟

فلم يحفل به الصبية.واجابوا دون ان يكترثوا له ،وقد شغلهم عنه لعبهم الجادّ :هذا قصر الخضراء . بناه خليفة الشام،ابو عبد الرحمن معاوية ،وجعل فيه سكناه !

فعضّ التزيل شفته على مضض ناغر ، حتى كاد يدميها . وجمجم بغيظ : خليفة الشام؟... أتسمع، يا ابن صخر؟... لكل قطر خليفة،ولكل مصر امير مؤمنين . واذلاه !... واخيبة الاسلام !

وومضت عيناه ببريق النقمة.وانقضتا على الصرح شرراً مستفحل اللهيب. فغمز مقبض سيفه بيده الممسكة مقود بعيره ،وهدد وقد فارت فيه احقاده: ابن هند ، لن تنعم طويلاً بمثواك !

ومال الى السخرية المرّة ، الى السخرية العضوض . فقال وهو لا يبرح يصبّ على القصر نظرات تندلع منها اللعنة : يريد معاوية اقتفاء خطوات الاكاسرة ، والمناذرة ، في تشييد الصروح . فبنى الخضراء ، كما بنى كسرى الايوان ، وسادة الجاهلية الخورنق والسدير . ولكن الخضراء سيتهدم على صاحبه ، يا ابن هند . انا ما سلخت ثلاثين ليلة ، في القفار البيض ، كي املأ بصري بروائع دولة تبغي انشاءها ظلماً على دعائم الدين. بل جئتك كي احوك من دنياك ، وانت عقبة في سبيل ديننا الحنيف . وحق من براني من عدم ، ودفعني الى هذا المطمئن كتلة ناطقة ،حساسة ، لن ارتضي لعيني الغمض ،الا وقد سفكت دمك، وحززت رأسك ، وضربت بك العبرة لقوم يعتبرون!

وظل يحدق الى القصر وهو يلهث من قهر . فتعجب من رجل يسخّر دينه لدنياه ، عابثاً بالنواهي ، مستحلاً كل حرام. فيحشد في خزائنه اموال المسلمين ليتلذذ بالافاويق . ويستعين بالمقام الاول في الدولة ليلهو بالمجد والفخفخة . فتبطره السيادة ، ويضلّ بها عن الصراط القويم

وبكت جزعاً عينا التزيل الاسود العمامة . وصاح من كبد بليت بالقروح:اين انت، يا محمد ، وهؤلاء الانكاس يتاجرون بدين اردته لعبادة

الله ، وارادوه للمتعة ، ولشفاء الحزازة ؟ ... انهم لاعداء الله والاسلام مع ادعائهم القيام فينا باسم الدين والاسلام. ألا بئس دعوى هي البطل والعدوان. وتربة من نشر راية هذا الدين الجديد، لتجتثّ اصولهم اجتثاث الفأس للشجرة النخرة ، الحسيرة الاغصان !

وغلب عليه التكبير . وما لبث ان غاب في تلاوة آيات ربه : « ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً ! »

وقاد بعيره الى ساحة تناخ فيها الابل ، وقد عقد عليها الصفصاف خيمة ضافية الظلال ، منيعة الأطناب . وراعه من دمشق هذا الازدحام الدفاق . فالدروب تغص بالمقبلين من الفجاج جميعاً الى فيء ابن هند. فما ذاع عن معاوية، من انباء البذل والجود ، لم يُسمع عن ابن ابي طالب . فكان علي شحيحاً باموال المسلمين. يأبى، حتى على ابنته، ان تزدان بعقد من اللؤلؤ أُودع بيت المال ، ثم تعيده سليم الحبّات ، مأمون الزلة . وينكر على نفسه ان يرتدي الثوب الجديد ، ضناً بمذخورات الدولة الناشئة . فالزهد في الدنيا ، والرفق ببيت مال الامة ، من طبعه . على حين كان معاوية ينفق عن سعة ، ويسخو بلا حساب . فما جاءه مسترفد الا اجزل له العطاء . ومـــا طمع في دنانيره نهم ، الا ألقمه من النضار ما يخمد فيه سورة الالتهام

والناس ، مع متناهي اعجابهم بصدق علي وبطولته ، ومع مزيد حقدهم على معاوية في مكره وسلاطته ، كانوا يجدون في بذل ابن هند حافزاً يشدّ بهم اليه . فالجود كسف الكيد والاثرة ، وذهب بالشين والمين

ومعاوية ، الداهية، لا يجهل المكمن الحساس في هذه المخلوقات الدارجة حوله . كلهم طالب زاد . ووقع على مجسّ الضعف في علي ، فتحامى العثرة ،

واستظهر عليه بسنيّ العطايا . فرفع الى مراتب المجد كل طامح الى الرتبة والولاية . وحشا بالذهب فم كل جشع يفتنه الدينار . فشدّ اليه القوم يحثون الركائب والمطايا

وراع النزيل الاسود العمامة هذا الفيض يرتع فيه معاوية ، فتعاظمت اوتاره . وانه لفيض حتى في اسماء الرجل الهادم ، الباني . فهو ابن ابي سفيان ، وابن هند ، وابن صخر ، وابو عبد الرحمن ، وخليفة الشام . وضحك الصامد ، من مكة الى دمشق ، على ضغينة وموجدة ، وتمتم : ما اكثر اسماءه ، واقصر ايامه . انه لعلى خطوة من مضجع التراب !

ووقف عند مسيل ماء يغسل وجهه من غبار الفلوات . واذا نفر من الجند في قيلولة ، وقد تفيأوا ظل شجرة وثيقة الجذع ، طائرة الاماليد . فحياهم وجثم على مقربة منهم . وكانوا خمسة . ودلت لهجتهم على انهم من اليمنيين . ودار حديثهم على التغني بمحامد معاوية

وشقّ على النزيل الاسود العمامة ان يتمدح القوم من لا يراه حقيقاً بالامتداح . فنضّت فيه شهوة المعارضة . وقال غير حافل بما يكون لمقاله من سوء الوقع ، ومضض الاثر : ولكن صاحبكم خرج على سنن الدين ، وقد رضي بقيام خلافتين في الامة الواحدة !

فالتفتوا اليه بعيون جاحظة ، تنعى عليه جرأته . فمن دعاه الى ابداء الرأي ، بهذه القحة اللاذعة ؟... على انهم شاؤوا هديه برقيق المقال . فانبرى له من يجيب : صاحبنا احق بالخلافة من كل من يدعيها . فهو ابن سيد قريش ، ترد عنه الزعامة لتنتهي اليه . ثم هو لم يخضب يديه بدم الخليفة عثمان ابن عفان ، كالامام علي . والاسلام يكره ان يرفع لواءه ساعد امتدّ الى

الدم الزكيّ ، الطاهر ، فاذراه !

فعلت ضحكة النزيل ، الاسود العمامة ، متكلفة النبرة ، وقال : هذه الحجة على علي اختلقها ابن هند ، وأرجفها . وشايعه فيها فريق نوقش الحساب في معركة الجمل . ولو اثبت ابن ابي طالب ، في ولاية دمشق ، صاحبكم معاوية ، لبرئ ، من دم عثمان ، ولقي في طريقه الرحابة . غير ان علياً همّ بتنحية معاوية ، ناعياً على ابي عبد الرحمن ترفه واسرافه ، وتدبيره الامور على هواه . وخوف معاوية ، من العزل ، دفعه الى نشر قميص عثمان الملطّخ بالدم ، داعياً الى الانتقام للخليفة الشهيد . ولكن ابن هند كان يستجير بالمسلمين لنفسه ، خشية ان يصرفه علي عن ولاية الشام ، لا لابن عفان القتيل . وتربة محمد ، ان معاوية ليقودكم في خدمة مآربه كالسوائم . حرام عليّ الاسلام ان لم تكونوا اغبياء ، مناكيد !

فماج في نظراتهم الشر . وانتفضوا للاهانة ، وقد رفعوا لها رؤوسهم حانقين . وتلت السنتهم عيونهم في اعلان السخط . فصاحوا بالدخيل الحديد المقول : اسكت ، لا أمّ لك !

فمضى في سخريته يقول : أتؤلمكم الحقيقة بهذا القدر ، فلا تطيق آذانكم وعيها ؟... ادركت الآن مبلغ سلطان معاوية ، وقد اغراكم باضاليله ، ولست ألوم !

فوثبوا من مطارحهم بعيون آكلة ، وشفاه مزبدة . ومشوا الى النزيل السليط ، وايديهم على مقابض سيوفهم تهدد بانتضاء النصال . وصرخوا به باشداق يعربد فيها الفحيح : من الوقح المجازف ؟

فجالت فيهم عيناه ، وبسمة المناعة تترقرق في اساريره . واجاب بهدوء

الواثق بنفسه : اخوكم من بني تميم ، يدين مثلكم بالاسلام ، ويؤمن بطاوي الكتاب . والمسلم لا يريق دم اخيه !

ــ ولكنك تتعصب لابن ابي طالب ، وتشتم معاوية . وابن ابي طالب لم يحجب دم من تدعو الى حجب دمه!

ــ كنت اتعصب لعلي لو لا قبوله التحكيم. اما وقد رضي به، في حق ليس لابن امرأة ان ينازعه فيه ، فقد كرهته نفسي ،وخلعته من عنقي .فهو نفسه ارتاب بنفسه !

فصاحوا متحمسين ، وقد التفت بعضهم الى بعض : لنضرب عنقه . ان هو الا من الخوارج الكافرين !

وتقلقلت اسيافهم في اجفانها . وامتشقوها بروقاً ترعد بالهول . فما نبا عن التميمي ، الاسود العمامة ، ثبات جنانه . بل هو ، وقد تلألأ لعينيه وميض الشفار ، سل باتره ، لا تأخذه رعشة . فالموقف تعوّده في نزال القادسية ، وفي معركة الجمل ، وموقعة صفين. فكم لمعت الاسنة في باصرتيه ، وهوت دونه ، يحطمها درعه وفيصله . ولم يشأ ان يغمس حديد سيفه في اجساد تدين بدينه ، فخاطب مهاجميه بروح المسالم ، وعطف النصوح : رويدكم في ابتغاء الموت ، ثكلتكم امهاتكم . والله، لو اردتها فيكم ضربات جادّة، لنثرتكم شلواً على شلو!

واهوى كالقضاء الرهيب بنصلته على اقرب جندي اليه، فاطار منه سيفه، دون ان يمسه باذى. فلقد رغب في ان ينزل بقلوبهم الرعب،فتبدو لهم مكانته في الصراع، وتتهيّبه افئدتهم. ولكنهم طمعوا فيه ،وهم خمسة ،وهو واحد فرد. وعلا زئيرهم : لنسفكنّ دم الفاجر . قتله حلال لنا !

وانقضوا عليه . فاستزراهم ، وهم يندفعون لمقاتلته ، وصاح بهم يعاود

النصح: الى اين ؟... لو كنتم معاوية ابن هند، لطاب لي الولوغ في دمكم. اما وانتم ابرياء من اثارة الفتنة في الاسلام ، فما لي ولـكم . احرصوا على رؤوسكم ان تدحرجها يمناي !

فما ارتدّوا . فتراجع دونهم اشفاقاً ، وهو يقول : ابتعدوا وصونوا ارواحكم مني !

فابوا ان يكونوا دونه جرأة واقداماً ، وما انثنوا عنه . فظل يتراجع، حتى اذا ما بعد بعضهم عن بعض خطوات، رسخت قدمه في الارض،وتأهب للقائهم، وحسامه يتوثب في قبضته على ظمأ الى الدم ،ولسانه ينضنض بقوله: تعالوا ، ايها الحمقى !

وتعمد ان يحطم سيوفهم وسواعدهم دون ان ينزل بهم الموت ، اذا امكنته يده.فصرع اول واثب عليه فيما يسدد اليه الضربة الثانية.وبدا هائلاً عجيباً في منازلتهم . فكأنه الشرارة يخطف سيوفهم من ايديهم خطف الايماضة، ويطعنهم طعنات تهوي بهم الى الارض مضرجين بدمائهم ،لايطيقون حراكاً . فتساقطوا ازاءه صرعى يئنون انين الالم والقهر .وبقي خامسهم ، خامسهم الاعزل ، وقد اطار منه التميمي سيفه في ضربة الارهاب .ورانت على الوهون الاوحد الخشية، وهو يبصر اخوانه، عند قدمي التميمي ،جثثاً ينهر منها الدم. فارتجفت ركبتاه لا تسعفانه في الدنو من ذلك المغامر النجد. واحس منه التميمي الونية ، فاشفق عليه ، وخاطبه بلين الرفيق : انصرف عن مورد حتفك ،يا ابن عمي . ما قادتني قدماي ،الى دمشق ،كي ازيد في فناء المسلمين . فكل ما اندبك له ان تحدث معاوية بما سمعت ورأيت ،وان تبلغه ان لكل اجل كتاباً ، وان يوم الحين قد حان !

فتراجع الجندي الاعزل بين الخيفة والحيرة . ولم يقوَ على نفض جموده منه . وشهد المارة الصراع الدامي ، فاحتشدوا على صياح وولولة . وخشي التميمي افتضاح امره ، قبل اداء رسالته ، فمسح سيفه الراعف دماً بثياب الجند الهاوين امامه ، واعاد النصلة الى الغمـد ، وتوارى كالطيف متغللاً في حدائق دمشق الظليلة ، متستراً بجذوع الحور الاهيف ، والصفصاف المهيض

٢

امتلأت دمشق بالوافدين اليها ، حتى كادت تغص . ولكن معاوية ، مع احتشاد الوفود ببابه ،ومثولها بين يديه تعالنه الطاعة والتأييد، لم يكن وافر الثقة بالغد. فما يبرح ابن ابي طالب ينادي بحقه بالخلافة ، وقد ثوى بالكوفة، يمارس سلطانه اميراً على المؤمنين

وزاد في قلق معاوية ارتيابه حتى باعوانه . فما كان يلقى ، في اكثرهم ، صدق المهزة، وصفاء الضمير . وليس ابن العاص دون علي ازعاجاً ،وقد ايد معاوية ، لا حباً لمعاوية ، ولكن حقداً على علي . فما كان ليرضى به ابن ابي طالب والياً على مصر، وقولته لا تثبت على لون، وجشعه لا يقف عند نهاية. فمن يعتمده يجد من نفسه حافزاً الى اتقائه بيقظة الخشيان ، وحذر الملسوع

وهال ابن ابي سفيان ان يفلت منه مقام حبس عليه زاد غده ، فغاب في تفكير ممض ، طويل . أتضمّ قبضته هذا الملك الفسيح ، المنيف ، ثم تتفتح على هضيمة ؟ ... واغمض عينيه ارهافاً في استنباط الذرائع الواقية . وما سلّ الهدب من الهدب ، الا وصوت حاجبه يتمطى في اذنيه : الضحاك بن قيس بباب امير المؤمنين،يستأذن في الدخول !

فتنفس معاوية . فالضحاك بن قيس ذو خطر ، ونظر . وثق به ابن هند، وقد عجم عوده ، فاولاه منه الجانب الايمن .وباتت الدولة الفتيّة، النابتة على ضفاف بردى ، ولا مقول فيها ، ادنى الى سمع غارسها ، من مقول الضحاك

ولماذا لا يكشف معاوية عن غمته، على عين الضحاك واذنه، وهذه حاله منه ؟... قال بالتماس الطامع في النجدة : ليدخل الضحاك ، يا سعد !

فانفرج باب الايوان عن قامة مديدة ، تجللها المهابة ، وتشف عن ثقة واعتداد . هذا الضحاك بن قيس الفهري ، القائد الماضي الشفرة ، والوالي السديد الرأي . فمشى الى معاوية بوقار الانوف ، ودالة ذي الحظوة . وسلم بالخلافة قائلاً : السلام على امير المؤمنين !

فاجاب ابو عبد الرحمن بافتوار الترحيب ، طاوياً هواجسه ، كأن ما تعروه كدرة : وعليك السلام، يا ضحاك !

الا انه قرأ في عيني الرجل حديثاً ينضح بالارتباك ، فأوجس شراً ، واردف : ما وراءك ؟

فتباطأ الضحاك في الجواب، كمن يحمل نبأ شائك المكسر. واجال باصرتيه في لحاظ معاوية، واعلن بمضض واحتراز : يريد الخوارج شراً باميو المؤمنين!

فاتسعت عينا ابن هند. وتفتحت اذناه، حتى بات كله آذاناً . واستوضح بوجل : ويحك ، الخوارج ، يا ضحاك ؟... ولكن علياً كفاني شرهم في موقعة الرميلة، في النهروان، وقد دق اعناقهم، ونثر لحومهم لضواري الوحش، وكواسر الطير !

فهز الضحاك برأسه استكباراً . وابان بامتعاض : في كل وادٍ اثر من ثعلبة ، يا امير المؤمنين !

فاهتز معاوية على سريره، وعنده من امر الخوارج، الناقمين عليه ، وعلى علي ابن ابي طالب، كل الخبر ، وصاح : أتراهم زحفوا الى دمشق يترصدونني فيها؟

فاجاب الضحاك بن قيس بلهجة بحاء ساورتها الكمدة ، الا انه لم يخرج

بها عن وقاره : هم في دمشق ، يا امير المؤمنين !

فارتجفت لحية معاوية ، وغار لونه. وتضاءلت قامته، فاحس بانه ملتصق بالتراب . وهتف برعشة تعتورها الغصة : أجادٌ انت ، يا ابن قيس؟... بابي وأمي ، ما نضّ مقولك غير المزاح . ولكنه مزاح غليظ !

فتصامّ الضحاك عن النئلة، ومضى في قوله : امير المؤمنين يعرف من حقد الخوارج عليه ، ما يدعوه الى التصوّن عن سعيهم به . ولقد شهدت اليوم دمشق ...

وسدد الضحاك الى معاوية باصرتين خادشتين. ووقف عن الكلام كأنه يحاول ان يزيد في ايلام الخليفة ، وينتقم منه لنفسه ، وقد رماه بالغلاظة . فاعول القلق الحزّاز في كبد ابن ابي سفيان: تكلم ، لك الويل.ماذا شهدت دمشق، ايها الفهري ؟

ـ شهدت صراعاً دامياً بين خارجي فرد، وخمسة من جنود امير المؤمنين. وكانت الغلبة ...

وسكت وعيناه الشامتتان في عيني ابن هند الهالعتين. فصرخ معاوية بهول ونقمة : لمن ، يا ضحاك ؟

ـ للخارجي ، يا امير المؤمنين !

ـ هل ظفر بجنودي الخمسة ؟

ـ بالخمسة جميعاً . فنثرهم عند قدميه كما تتطاير كثبان الرمل في سوافي الريح !

فوهت قوى معاوية . وارتج عليه لفرط الخيبة . وخشي ان يكون الخارجي انسلّ الى قصر الخضراء ،وان يكون هنا،وراء الباب،شاهراً سيفه،

مهدداً بالانقضاض. بل خشي ابن ابي سفيان ان يكون تغلغل في قميصه ، او ثوى بكمه ، الخارجي الناقم . فنفض منه عباءته ، وعيناه شاخصان الى الباب ، وقال برهبة : وهل قبضتم على الاثيم ؟

فكان الجواب كطعنة الاجهاز: لقد توارى عن كل عين،يا امير المؤمنين!

فارتعد معاوية، واستطلع غاضباً : واين يزيد بن الحرث العبسي،صاحب شرطتي ؟... اين رجالي ؟... أما هموا بمطاردة الجاني ؟

— هم لا يزالون يبحثون عنه . ولكن الامل بالاهتداء اليه ضعيف !

وشاءها الضحاك واخزة دامية. فرشقه معاوية بنظرة الموتور، وقد طفح فيه الكيل ، وشوت الحمى جبينه . وتراءى له انه زال عن دنياه ، فرعد آمراً قاطعاً : ضحاك ، اريد الساعة رأس الخارجي . اريده الساعة . اقيموا الارض واقعدوها للقبض عليه . لست اطيق ان يقيم عدوي في ارضي !

وهاله ان يبلغ به القلق هذا المبلغ حيال رجل من رجاله ، لا يتهيب الشماتة به ، فشدد في تذليل اعصابه لطول اناته ، لئلا يذهب روعه بسؤدده. وود الاستجلاء ، فقال وهو يغالب نفسه على البسمة ، كأنه غير مكترث للنائبة : حدثني بوضوح ، يا ضحاك . ماذا كان من الخارجي فينا ؟

وخلعت بسمته على الايوان جواً من الطمأنينة . ولبس كابن هند في التصنع والتلوّن . وفي وجهه اقنعة تلو اقنعة، ينتضي منها ، في اقل من التماع الشرارة ، اي قناع شاء . فالغاضب يمسي،في رفة عين ، راضياً . والضاحك يبكي في ما دون الاغماضة . والجازع يطفر ،في رمية اللحظة ،الى الجبروت وهو ما لاح منه تجاه القائد الفهري . ومالت بسمة معاوية، بالضحاك بن قيس ، الى الايمان بصدق بأس الخليفة . فروى حكاية الخارجي ، المستهين

بالجنود الخمسة، رواية صحيحة الاداء، وابن هند يسمع، وينتفض من مضض. الا انه كان يغرز في راحتيه اظفاره، لئلا تفضحه فلتات لسانه. وكل ما يقاطع به الضحاك قوله: تباً للجبناء. أيرديهم جميعاً وهم خمسة، وهو فرد؟... يا لخزيتنا عند ابن ابي طالب، وعند الخوارج الانكاس!

على ان الضحاك ما بلغ الى قوله: «ولم يحاول الخارجي النيل من الجندي الخامس، بل دعاه الى ابلاغ امير المؤمنين ان الحين قد حان!»، حتى شهق معاوية، كأن سيف الخارجي شكّ في نحره. فصاح الضحاك مستطيراً: مولاي امير المؤمنين!

فنهض معاوية يدفع عنه ذعره، ويتجلبب السخط الفوّار، مهدداً بيمينه، وقد نفرت منها الاشاجع، ودمدم: أيتوعدني ابن الفاعلة، وانتم في دولتي جيوش بعدد رمال الصحراء، وليس من يردّ عني مقدوراً؟... انا لها، والله، لانقينّ الارض عن اللئيم، وانقبن فيه عن قلبه. هؤلاء الصعاليك نِمنا عنهم، فبطروا. معاوية ليس بالرجل النُكَلة، ولا المنتهك الحرمة. لاذيقنهم الموت!

وصفق بيديه ينادي حاجبه. فاقبل سعد يقول بخشوع العبد الناصع الطاعة: مولاي!

فهتف به معاوية بصوته الجازم: عليّ بيزيد بن الحرث العبسي، صاحب شرطتي. ليقبل على جناح الطير!

وصال، وجال. وبدا سيداً ضخماً. وما فتىء الضحاك يتحيّر من هذا الانقلاب المفاجىء كالاعجوبة. ولم يكن بين شهيق الهلع، واثر الصولة، منفذ لرجع النفس. وما تماسك الفهري، وقد راعه الكبج المتشامخ في معاوية،

ان قال في سره : والله، لست ارى من يزّه في المداورة . فالاسلام لايصلح برجل سواه، وهو المركّب من كل طبع، العالم باسرار كل نفس، الغاضب في حلم ، الخائف في جرأة . علي يريدها بضربة السيف ، وهو يحتال عليها بمراوغة الثعلب !

وأطل يزيد بن الحرث العبسي يتألق فيه العزم والشباب، كالمشعل الهادي. وجه صبيح . وقامة تشد صُعُداً . وكتفان عريضتان تتسعان للدنيا . وسيف احدب، برّاق الغمد، كشفت عنه عباءة حمراء من وبر . وكوفية بيضاء من خزّ، زركشتها مصانع دمشق ، وعصبها عقال عقدت عليه خيوط مفضضة ، فبرز تحتها الجبين يتلألأ مضاء ، كانفس شعر ، في انفس ديوان

وانحنى يزيد في حضرة معاوية ، وهو يقول باكبار : روحي فدى امير المؤمنين !

فاستجلى معاوية بقسوة الغضبان : ماذا كان منكم في الخارجي ، يا يزيد؟

فألقى يزيد نظرة الى الضحاك بن قيس تستفهم : «أأنت مطلعه على النبأ ؟» . واجاب معاوية بقوله : نحن في اثره، يا امير المؤمنين. ما ابقينا على وكر في دمشق الا ولجناه للبحث عن الجاني، فلم نهتدِ اليه. رجالنا في الخمائل، والدروب ، وعلى ضفاف بردى ، يجدّون في التنقيب . ومنهم من جاوز الغوطة ، ولا نبرح من المجرم على ضلّة !

فصاح معاوية بغيظ يتفاقم ضرمه : ولكني اريد رأسه ، كي ارفعه في صدر دمشق ، على شفار الاسنة . فان لم تأتوني به، يا يزيد ، حلّت عليكم نقمتي . رأسه بالف دينار . اذهب واهدم دمشق على من فيها ، واحمل اليّ الكافر ، اللعين !

فاعاد يزيد انحناءته ، وتوارى كما اقبل ، قبسة عجلان . وزوّده معاوية نظراً صاعقاً يشتعل فيه الامر والوعيد . فاطال الضحاك النظر الى ابن هند في تقمته ، وقال في نفسه متعجباً ، مدهوشاً : انه ليغلي على زمهرير . وجهه من جمر ، وقلبه من جليد . لو اقبل الخارجي ، الساعة ، يطعنه بالسيف ، لعرض عليه صدره ،قائلاً بانكسار ومذلة: «اضرب ، يا ابن اخي ، ولا توجع عمك ! ».وقد يدفعه دهاؤه الى ضم الخارجي الى جوانحه ، والدم يسيل منها ، والى تقبيل عارضيه.وربما اضطرب لسانه بقوله:« اتعبت نفسك ، يا ابن اخي ، رفقاً بنفسك ! » . فما اقدره على امتلاك القلوب ، والتلاعب بحلوم الناس !

وسكن فوران معاوية ، كمرجل أطفئت ناره ، ويزيد بن الحرث العبسي يبرح الايوان . ونضا خليفة الشام عنه سخطه ، كما ينضو قميصه الخلِق .ودنا من الضحاك بن قيس الفهري ، قائلاً بنبرة حادة ، الا انها هادئة ، تتواثب الى مرمى بعيد : هذه الدولة ، وقد بنينا أسّها في اذرح ، يا ضحاك ، لا بد ان تقوم قائمتها ، ويطول فرعها . فمن يحمل اليّ رأس علي بن ابي طالب ، لا رأس ذلك الخارجي المغمور ، ويدفع عني شر المنابذة الضاربة قيودها على ساعديّ ، وما استطيع ان أحكّ رأسي بيدي ؟

فما تمالك الضحاك ان كشر عن افترار ، وقال : وما يكون نصيب قاتل علي منك ، يا معاوية ؟

فصاح ، وقد بسمت له الامنية على وعورتها : والله ، يا ضحاك ، لاشاطرنه وفري ، واعفونّ عنه حتى ولو خضب يديه بدمي !

وانجلت سحنته ، فباتت الى الرواء اقرب منها الى الدمامة . وكشف منطقه عن احقاده ، فاذا هي تطغى على دمشق ، وتضيع بفيضها معالم بردى.

وخطا الى الضحاك يقول ، متحرراً من مخاوفه : ايها الفهري ، لا تحسبنّ معاوية يخشى الموت . والله ، ما الموت عندي سوى غفوة حالم . على انما اخشى ان اجاهد لدنياي ، ويسقط في يدي . اطعمت هذه الدولة الناشئة كبدي ، ووقفت عليها همتي ، ولا اراني بلغت فيها مرحلة الاستقرار . علي يناهضني من ناحية ، والخوارج من ناحية ، وابن العاص لا تستقيم لي منه قناة . وقد اركن الى علي والخوارج اكثر مني الى ابن العاص . فالماكر كالثعبان ، لين ملمس ، على رهافة ناب . ألا تذكر ، يا ضحاك ، ما كان منه اثر مؤتمر اذرح؟... جفاني ، واقام مني على قطيعة . وكل مناه ان ينصب نفسه خليفة ، او ان يساوم على الخلافة ، بما لا يقوى على اشباعه فيه كل ما تملك يمين الاسلام من سيادة ونضار . ولولا مناعتي ، لابتلعني . الا انني نحرت كيده بما اعددت له من عقاقير ، يبي دونها مكره الخدّاس . ومع حكمتي ، وليني ، لا اقع ، كيفما ادرت عيني ، على سوى الاعداء . ويشق عليّ ان يطوى اجلي ، قبل ان اجمع هذا الملك في يدي ، وانشر راية الاسلام ، على بقعة من الارض لم يحلم بها اكاسرة الفرس ، ولا قياصرة الرومان !

وامتدت اطماعه الى القسطنطينية ، قاعدة البيزنطيين ، والى الهند الفسيحة ، الممراع . ونضنضت في باصرتيه طمحاته ، البعيدة الغور ، العزيزة الادراك ، فلمسها الفهري بعينيه ويديه ، واختنقت في صدره صيحته : يا للمطماع !

ومضى معاوية في القول ، وهو يغوص على امانيه ، واهدافه الجسام : من الغبن ان نقف بهذا الدين السمح حيث وقف به علي ، يا ضحاك . فالرسول ، وكان يفضي اليّ بنجواه ، اراده ديناً يعمّ الدنيا . وليس بيننا ، من تلين له شباة هذه البغية ، سواي !

وايقن انه باعد في تيهه ، وندّ عن حلمه ، وانه، مع سعة حيلته، لم يشيد وحده هذه الدولة الطالعة، الطريفة الظل . فان له في البنيان شركاء . ومن شركائه الضحاك بن قيس الفهري، الماثل في حضرته، المرهف الاسماع. وخشي ابن هند امتعاض جليسه من دعوى الاثرة ، فقال وابتسامة المهالأة تشيع في ثناياه: وما انا بالناسي فضلكم جميعاً ، يا ضحاك ، اعواني وخلاني . فان لكم، في تشييد هذا الملك الفسيح، يداً مبرورة .ولولا صدقكم في تأييدي، ونفاحكم عني ، لتحطم في النضال سلاحي ، وهويت دون مرجاي . على ان سواعدكم دعمت طلبتي ، فظفرت بخصومي . وامنيتي ، كل امنيتي ، ان تظلوا حولي لنضمن لانفسنا الغلبة ، ونتقذ الاسلام من الشماتة والخذلان !

وانشقّ باب الايوان. وبدا منه سعد ، حاجب معاوية، يقول : الوفود تموج بباب امير المؤمنين ، وتستأذن عليه !

فقال ببشر وترحيب فائرين: لتدخل، لتدخل . لست هنا لسوى النصفة والارضاء!

ولاطف، وجامل. واعطى، فاجزل .ونام عن الظالم، وكفى المظلوم شر المضيمة، وقد ازال بماله العدوان. فما جاءه طالب حاجة الا قضى له حاجته ، وصرفه عنه على مرضاة ومسرة . غير انه، وهو يقضي في الناس براجح الحلم ، وخافض الجناح ، لم ينسَ الخارجي المتوعد . وتلفت لتبدو له هامة يزيد بن الحرث العبسي ، صاحب شرطته ، بين هذه الهامات المتواثبة في مجلسه ، فما لاح له يزيد . قال : أيكون الخارجي قطرة ماء جفّت في عين الشمس ، ام هو نسمة ريح ضاعت في متناهي الآفاق ؟

وخلا مجلسه من الناس ،فصاح : أين يزيد ؟

فوقف في حضرته ابن الحرث العبسي يقول : ما يزال مقر الخارجي خافياً علينا، يا امير المؤمنين. واعتقد ان المجرم برح دمشق . وقد يكون سلك طريق العراق ، خوفاً من نقمة الخليفة ، وبطشه !

— أما تبينتم اثراً من آثاره ؟

— ذاب كحبة ملح في نهر . لا اثر ولا خبر !

— أيعتدي علينا ويفر منا ، يا يزيد ؟ ... انها لفضيحة لا احسبك بها ترضى . شددوا البحث عنه . لست اطيق عدوي في ثيابي. ولا تناموا الليل . فالليل يقظان !

ولكن الخارجي توارى حتى امحى . وقد تكون لفظته دمشق، فصدف عنها ، وكل مجهود في تأثره باء بالخيبة . وساد الاذهان ان الرجل ضرب ضربته واكتفى، ورحل عن قاعدة ابي عبد الرحمن . الا ان معاوية ما برح يوجس شراً

والشهر شهر رمضان . ومن عادة خليفة مؤتمر اذرح ان يقيم ابداً في يومه الصلوات الخمس . ويزيده الشهر المبارك انغماساً في التعبد. فلا تفوته منه سجدة . وطوى من رمضان ذاك العام ست عشرة ليلة ، يرتاد فيها المسجد مصلياً ، خاشعاً . ومع انهمار السيل في صباح اليوم السابع عشر ، ولؤم الزمهرير ، ابى معاوية الا ان يبكر الى صلاته فيقيمها في متنفس الضحى . فالتف بعباءته الراجحة الوزنة ، الفضفاضة الذيل ، المحبوكة من الوبر ، والمزركشة الاديم الاسود بخيوط الذهب . ودعا بعصاه المستديرة القبضة ، كالصولجان، ومشى الى معبد الله في موكب حفيل، فيما المؤذن يعلن بخشوع التقى ، وهناءة البلسم : لا إله الا الله !

هذا موكب امير المؤمنين. فوقف من درجوا، في تلك البكرة القارسة، الى المعابر، شاخصين الى موكب الخليفة. ومنهم من انضم الى الحفل، مشمّراً لمناجاة الرحمن. وما انتهى الحشد، الى باب المسجد، حتى كان المؤذن ينادي باسم معاوية خليفة للمسلمين، على صيحات: «الله اكبر!». وارتفعت الايدي، الى فسحة السماء، المحجوبة بالغمائم الدكن، تتضرع وتستزيد. الخلافة لابن ابي سفيان، هامة الامويين

ولكن ما هذه الصيحة الهالعة، المزقة الاسماع كحزّة المبضع، وقد اضطرب لها الموكب، كأنه اصيب في متناهي حسه؟... من الصارخ: «قُتِلتُ، ادركوني!»، الهاوي بباب المسجد، بين دمدمة الصخب، وسليل السيوف؟

وتلت صرخات مرعوبة الصيحة الهالعة: انقذوا امير المؤمنين!

وغلى الموكب، كأنه قدر تفور، وقد اعتلج في القلوب والاسارير الغضب والهول. معاوية يهوي مضرجاً بالنجيع. ووثب القوم على رجل شاهر السيف، يصيح باستهانة المجاهد: دعوني اسفك دمه، وليعش الاسلام عزيز المنعة، سليم الوحدة!

فارتفعت الاصوات تضجّ: اقتلوه، اقتلوه!

وهمّت السيوف المسلولة بان تتخطف رأسه. غير ان معاوية نفض منه الوهلة، واستعاد على عجل رشده. فالطعنة، وان تكن صرعته، فلم تذهب بصوابه كله. قال: لا تقتلوا الضارب قبل ان تستلوا من احشائه سره. كنت ارقب الكارثة. فاحملوني الى الخضراء، وانجدوني بالساعدي، طبيبي!

والضربة اصابته في أليته. فالمغامر اهوى من الوراء بباتره، وانثنى مكرهاً عن الاجهاز، والحشد يسدّ عليه الطريق الى منشوده. وطار اليه

يزيد بن الحرث العبسي شرارة لاهبة ، يمسك بخناقه ، وينتزع منه سيفه ، ويهزه بعنف ، صارخاً به : من انت ايها الناشز الاثيم ، فتلك القدرة ؟

وتولت الخشية قادة معاوية . فالتفوا حول الخليفة الصريع ، وقد هالهم ان تنقضي ايامهم بانقضاء ايامه . ورفعه الضحاك بن قيس ، وابو الاعور السلمي ، وشرحبيل بن سمط الكندي ، وبسر بن ارطأة ، بين ايديهم ، وقلوبهم عليه. فالتفت اليهم الضارب المقحام بازدراء . واجاب يزيد بن الحرث العبسي بشدة لا تنتابها رعدة : أتريد ان تعرفني ، يا يزيد ؟... انا من يريد للاسلام القوة ، بينما تريدون له الهوان . انا الذائد عن دينكم ، وقد كنت من الداعين الى قتل علي ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص ، ليخلو الجو للالفة والجماعة ، ويحيا الاسلام عزيزاً اثيراً !

واطلقها ضحكة حاقدة تموج بالنقمة . فهال سامعيه ما يتفوّه به ، وألحوا عليه في الافصاح : من انت ؟... من انت ؟

قال بنبرة انعقد لها جبينه : وما تبغون من اسمي ، وقد اوضحت لكم امري ؟... انا من يروم انقاذكم من رجال الضلال فيكم ، وانتم تشتهون لانفسكم الذل والخيبة !

فما غاب عن يزيد بن الحرث العبسي انه حيال الخارجي الطريد ، مدوّخ الخمسة . وتعاظمت بصاحب الشرطة احقاده على من عبث به هذا العبث الفاضح ، فصرع ، في كبد دمشق ، حفنة من الجند ، وتوارى عن كل عين لا تطاوله اذية. حتى اذا ما عرضت له السانحة ، هاجم ، بباب المسجد ، الخليفة . وقد يكون اودى به. وشاء يزيد ان يسمع من المغامر اسمه الصريح ، فشدد الاستيضاح : من انت ؟... من انت ؟

قال وما يفتأ يتهكم : أتريدون اسمي ؟.. انكم لهازلون . وما النفع من اسمي ، والنجح في فوزي بالارب ؟... انا الحجاج بن عبدالله الصريمي . البرك لقبي . وتميم قبيلتي. والخوارج قومي . فهل زادكم اسمي معرفة باموري ؟

فصاح يزيد : هذا هو اللعين . قاتله الله !

وشدّ وثاقه. ودعا من حوله، من الشرطة، الى سوق المغامر الى السجن، قائلاً لهم : عذبوه حتى يستطيب الموت ، وتشتهي نفسه الخلاص من دنياه !

فاجاب الخارجي بطمأنينة وارتياح: بشرني باني قتلت معاوية، ولتحرقني في جهنم النار !

٣

وجمت دمشق حيال النبأ الصارخ ، كأنها في غشية . فألمّ بها الجزع على ابي عبد الرحمن ، وانتابتها ، من شر المنقلب ، رهبة محمومة . وتلفتت بعضها الى بعض مستطلعة ، حائرة . فودت ألا تصدق ما يُلقى في مسامعها من جمر ، وما يُنفث في ضميرها من ويل

ومشت الى قصر الخضراء والشك في خاطرها ، والرعب في نتوء عينها . وودت ان يطلّ عليها ابو عبد الرحمن ، من شرفات القصر ، بقامته المهيبة ، وطلعته الوقور ، سالماً ، معافى . فان ابا عبد الرحمن منها للجبين المشرق ، والقطب الهادي . الا ان الفاجعة طغت على التعلة . فالنبأ صادق الوجه واللسان . معاوية مصاب بطعنة يخشى ان تكون مسمومة . فصعّدت دمشق صيحات الغلّ والرهبة . وماجت ، حول قصر الخضراء ، وفي كبدها الهلع ، وفي صدرها الوعيد

وغلى القصر بالوفود تستوضح اثر النازلة . واندفع الامويون ، كالسهم المرنان ، الى عميدهم الجريح ، يتبينون فيه العافية ، وقد هالهم ان تنبو عن باني المجد ، ومعيد السلطان . واذا الجموع تنشقّ ، كأنها هامة فلقها سيف ماضي الشفرة . وانساب في الفجوة ثلاثة من الفرسان ، ترجلوا امام باب القصر بعزيمة مجدولة ، كالمقبل في مهمة خطرة . وومضت في احدهم ، وهو شيخ طاعن في السن ، هيبة العلم . وكلما خطا في المزدحمين تطاولت اليه الاعناق ، كأنه

المنقذ الاروع. هذا هو الساعدي، طبيب معاوية، ورقية دمشق من الاسقام

وانحلّت عرى المتألبين على الجريح ، فيما يمشي اليه الساعدي . وبصر الخليفة ، المتململ على بساط الالم، بطبيبه يحثّ اليه الهمة،فالتمع في حدقتيه الامل . جاءه من يكفيه مضض الطعنة الغشوم . وافرجت شفتاه عن أنينه: انه لجرح نغّار ، ايا الساعدي ، فادفع عني لهيبه !

وحبست الانفاس في الصدور، والساعدي يميل على الجرح الموّاج بالدم القاني . فسدد اليه نظراً ثاقباً يرهفه العلم الرشيد . وما لبث ان رفع عينيه ، المثقلتين بالهدية الى الخليفة الطعين، قائلاً بثقة جازمة: الضربة مسمومة، يا امير المؤمنين . على ان بوسعي انقاذك من كيدها . فلك ان تختار . إما ان احمي حديدة تكوي الجرح، وتذهب باثر السم القاتل، وإما ان اسقيك شربة تقطع منك الولد ، فيما تهب لك الشفاء !

فحامت الابصار على معاوية ، ترقب الجواب بفضول ظمآن . وما ابطأ معاوية في الجواب ، كأنه على أسلة لسانه . قال : أما النار ، فلا صبر لي عليها، ايا الساعدي . واما الولد ، فان لي في يزيد ، وعبد الله ، ما تقرّ به عيني ، ويشفي نهمي !

فانفرجت الاسارير ارتياحاً . ليس لمعاوية،مفرّج الكروب،ان يتعذب، والجميع يفدونه . وهو حاميهم ، والمحسن اليهم . وأعدّ الساعدي الشربة ، وسقاها الخليفة الجريح ، وهو يقول : انها لناجعة الاثر ، سريعة الجدوى . دفع بها الله عنك سوء المغبة !

وكأن عبثاً كابساً هوى عن الظهور ، والساعدي يعلن مقاله . وجالت في الشفاه البسمات المطمئنة . وعمّت البشرى القصر ، فشملت بنشوتها الجموع.

اما الساعدي فادرك منتهى جهده . انه لفي اسنى ايامه ، وقد تحلّق على هامته الثناء هالات مكتنزة الاشعة. وانحنت امام علمه، وتفوّقه ، دولة أيدة، ربّما وما عفت عن الشكر حتى النساء ، المزدحمات في القصر بانتظار ما يكون من امر الخليفة ، المضرّج بدمه. فاندفعن الى الساعدي بتسماتهن الوضاحة ، وقدودهن الرفيقة ، يفضن بكلمات الاعجاب المصطفاة ، الشجيّة النغم ، كرنين الاوتار .

وبين الاسراب ، المطوّقة الساعدي ، وجه نبيل الحسن ، وضاء المبسم ، تدفق شفتاه بالقول الشهيّ القطاف ، الدمث النغمة . فحامت عليه الابصار معجبة. وعرف فيه الحشد اربنب بنت اسحق، احدى بنات اعمام الخليفة الطعين، ولؤلؤة دمشق الباهرة الجلوة . درجت ، الى قصر الخضراء ، معتصمة برعاية ابيها وامها . فما ضجت به دمشق ، عن معاوية، استنفرهم ، وهم من اللحمة، الى الخليفة الغارق في النجيع، لاستجلاء النبأ الراعب، والاطمئنان الى المصير

وتغلغل يزيد بن معاوية ، في الصفوف ، يبحث عن منقذ ابيه ، ليبثه شكره . ويزيد في لألاء الفتوّة ، يغرورق في اعطافه الشباب الطريّ ، الفائر اليقظة . اسمر ، جعد الشعر ، في قامة ضامرة تشدّ انطلاقاً . اغار عليه ، في حداثته ، داء الجدري، فطبع، في وجنتيه ، عضاّت محمومة . واتسعت عيناه على استهواء خميل ، وقد اشرق سوادهما بنديّ روعة

ولاحت للفتى اربنب بنت اسحق في هيفها الصبيح ، وفي طلالتها المثلى، فبهرته البلجة العارضة . وناءت به همته حيال الحسن النضيد ، فجمد مكانه ، لا يجرؤ على انتهاك حرمة السحر الوقور

ويزيد طلب نساء ، واخو صبابة . يصرعه الجمال ، كأنه فيه ضحية .

فتناهى شدهه . وهو لو حاب الكلام ، لتعتع في القولة . على ان الساعدي انقذه من صرعته ، بان مشى اليه بجلاله ، وبمجده ، يقول : مرحباً بيزيد !

وتصافحا على غبطة . وسرّ يزيد ان ينجو من موقفه الحائر ، فقال : جئت أبحث عنك في هذه الجموع ، لابلغك ثريّ اعجابي . فان دفعك المضض ، عن امير المؤمنين ، لحسنة تنظمها في عقد فضلك الحالي بكل نسيق ، طريف !

فراقت الساعدي ، في ابن معاوية ، حبكة البيان النضير . واجاب ، وابتسامته تتسع على عرض شفتيه ، ويتغضّن بها وجهه : نفسي فدى امير المؤمنين . ما كنا لولاه لنستظل هذه الدولة الطفحى بالعظمة والصولة ، يا يزيد . فان معاوية فينا للجبار الحليم ، والسيد الباني . فاذا ادينا اليه بعض حقه علينا ، فلسنا بالمتفضلين !

غير ان يزيد ، وقد بات من فورة الحسن على ذهول ، لم يملك نفسه في الاصغاء الى الساعدي ، وهو منصرف الذهن الى ارينب بنت اسحق في فيض سناها . وتلفت اليها مضطرب العين ، خفوق المهجة . فاغضت على استحياء . وتراجعت ، وفي خديها حمرة من ارتباك . وتبطنت بجهد الحلقة المرصوصة . فتبعها يزيد بعينيه ، مجذوباً اليها بشغف خفيّ ، مرتجل . وكاد يصيح بها : « الى اين ؟ » . غير انه امسك اجلالاً للحسن المبسوط الضياء ، العابق الطيب . وتوارت ارينب بين الجموع ، فادركته الغصة . وعلته خيبة رمداء لانقطاع الرواء الفاتن ، وتمزق غشاوة السحر الاوفى . وودّ ان يشق الحشد الى ارينب ، فيستوضحها ما روّعها منه . الا انه اضاعها ، وقد احتجبت عن ناظريه بمزدحم الخلق

وتجلى فيه مضض الاخفاق . وشاء الكلام فاعياه النطق . بل هو لم يكن

يدري ما يعلن، وقد تاه عن مبغاه. فنسي انه اقبل يشكر للساعدي جليل علمه، وجزيل فضله . انقذ معاوية من الموت ، وكأنه انقذ الاسلام من الهوان، وصان البيت الاموي من الشماتة والذلة

ووقف جميع من حول يزيد على قصي ارتباكه ، وسر لعثمته . اريب دمته بخمور الحسن فيها، واسرفت في الاعراض. قيدت وتوارت. فيا للاسير المظلوم!... والساعدي لم تغب عنه صعقة الولوع . فعاد ينقذ يزيد من حيرته، وامسك بيده قائلاً ببسمة صفية : لنذهب الى امير المؤمنين ، يا يزيد !

وابتعدا عن سرب الحور الشوادن . فقال يزيد يستسر رجل العلم : انها لكاعب مشرقة الوسامة، كافرة العين، ايها الساعدي. لست ادري ، والله، ما روعها مني، على استئناسي برضي بهجتها !

فابتسم طبيب الخليفة، وقال : هذه اريب بنت اسحق، يا يزيد . زهرة من ياسمين ، على عود من الند . ما في دمشق ابهى ، ولا اسنى. روعها منك شبابك ، وسلطانك . وان تكن كافرة العين، في صرع اخوان الصبابة ، فما العتب عليها ، ودولة الحسن تتألق منها في المبسم الينيع !

فترنح يزيد بنشوة الجمال المندلع الصولة ، وقد تفنن في تنميق اوصافه الساعدي الطبيب . وقال وقد فاضت شفتاه بمختلج حسه : ايها الساعدي ، ليتك في شفاء القلوب اشبه بك في ابراء الاجساد، اذاً لملكت العلم من ناصيتيه!

واطلقها زفرة كاوية اللهيب . فضحك الساعدي ، والسن تقعد به عن دعوى الحنين . وقال يمازح ابن معاوية : اللذة في الالم ، يا يزيد . فما دامت الجمرة تحرق ، فانت الهنيء . لا تلتمس الشفاء من الحب ، وفي الشفاء ضجر فظ ، وفي السلو فراغ دميم . بل افتح للشباب دروبه ، وانعم باهواله . فما

فاتك منه، لن يعود. والدواء لا تخش بطئه. فهو في عنق الزمن العجول!

وغلبت الحكمة المازحة. فنضا الطبيب الشيخ عن كامن شعوره، ونضج خبرته. وكانا قد بلغا باب معاوية، المضطجع في سريره على بسمة الحلم. كأنه لم يكن، منذ هنيهات، ضحية مكيدة دبرت في ليل. وازدادت بسمته اتساعاً، وقد رف في عينيه الساعدي. قال: مرحباً بالنطاسي المنقذ!

واستأذن عليه يزيد، ابنه. ولم يكن من عادة يزيد ان يدخل على ابيه بلا استئذان. فاجاز له المثول في حضرته. وجلس الطبيب عن يمين الخليفة الجريح، واقام يزيد عند قدمي معاوية، لا تستجيز شفتاه النطق. ابوه يفرض عليه الوقوف منه موقف الاجلال والخشوع. فهو بين يدي خليفة المسلمين. ولم يكن يرضى معاوية، مع شديد حدبه على ابنه، ورفقه به، الاستخفاف بالمقام العزيز الشوكة. فالخليفة خليفة، حتى بين آله وبنيه

وضم المكان الضحاك بن قيس الفهري، وبسر بن ارطأة، وشرحبيل ابن السمط. ثلاثة من قادة معاوية الاعلام، الذائدين عن خلافته بصدورهم، وصدور رجالهم الضخام العديد. ووراء ستار، من الارجوان، قعدت ميسون الكلبية، امرأة معاوية، أم يزيد، وبنات معاوية الثلاث، هند ورملة وصفية. وانتصب وراءهن ابنه عبد الله، يصغون الى منطق الخليفة، ويقفون على اخباره. ومعاوية، وقد ايقن بالنجاة من خطر الطعنة الصارعة، ولاح له الشفاء سريع الطلة، مال الى رؤية الخارجي الضارب، والى الالمام بباعث نقمته. فمن دفعه الى الفتك بابي عبد الرحمن؟... قال ولم يذهب جرحه بجهارة صوته: اين يزيد بن الحرث العبسي؟... عليّ بالخارجي الكنود!

فجيء به مكبلاً بالقيود. الا ان تيهه لم يبرح فيه على غليان. فهو ينظر،

نظرة شزراء ، الى جميع من امتدت اليهم عيناه . فهم إما جهلاء ، وإما كفرة . نبذوا الدين الصحيح ، واقاموا من الشريعة السمحة في ضلالة . وما انحنى ، وقد مثل ازاء معاوية ، ولا سلم عليه ، بل وقف منه موقف السيد المغلوب على امره، الثاوي بكرامته مع تحطيم سلاحه . قال صاحب شرطة معاوية ، ابن الحرث العبسي ،وهو يسوق الخارجي امامه : ها هو ذا ، يا امير المؤمنين. جاهل غرّ ، اقدم على جريمة نكراء .لو صدقت طعنته لهدم دولة !

فتململ الخارجي في وثاقه ، ورعد: أما جاهل غرّ فلا ، وحقك، يا يزيد. وأما لو صدقت طعنته لهدم دولة ، فهو القول السديد . الا انها دولة بطل وبهتان . فالدين الازهر يأبى تعدد الرؤوس في الاسلام . كان النبي فرداً . وخليفة الرسول ان هو الا واحد فرد. فاذا قام فينا ،من يعدو هذه الشرعة، فلتتخاطفه سيوفنا . ومعاوية عداها بطمعه واحتياله . وعلي فسح المجال الى الاستباحة بسلامة طويته ، ووهي حذره . وابن العاص جرّ الى الشقاق بخداعه واثمه . وعلى كل مؤمن ان يخلع عنه هؤلاء الثلاثة الانكاد !

فارتفعت اصوات تدمدم عليه : صه ، لا أم لك !

فتفجرت من فمه ضحكة صاخبة طغت على كل دمدمة . واومأ الى قيوده وهو يقول بسخر واستهانة: كنت اريدكم على الغضبة وهذه الاصفاد لا تشلّ ساعديّ . اماء والله، لنثرتكم كالنجوم في قبة الليل ، كل رأس في فلاة ، مأكلاً للوحش والطير !

فصاحوا ، وقد تقلقلت الاسياف في الاغماد: لك الويل !

فأشار معاوية ان كفّوا . وقال يخاطب يزيد بن الحرث العبسي : حلّ عنه وثاقه ، وانقذه من اغلاله ، يا يزيد !

والتفت الى الخارجي يقول : خفف عنك ، يا اخا العرب . انت هنا في حضرتنا ، فلا خشية عليك . انفث ما في صدرك ، وكلنا مسامع . من يضمر لنا الهلكة ، فرمانا بك ؟

فأجاب الخارجي بجرأته الجموح : رماك بي الدين ، يا معاوية . دين الله القويم . شئت افساده ، فاعتزمنا التنكيل بك . ومن سوء حظ الاسلام ان تكون نجوت مني . بقاؤك هادم للوحدة ، ومفكك للعروة . لو انصف القدر لاصاب سيفي منك مقتلا ، وصفا بصرعك الاسلام ، ولا رحمك الله . ولكن القدر تصدى لنا عدواً قاهراً ، يبدد منا الشمل لارواء مطامع ، ومصانعة اهواء !

فاستدارت العيون جاحظة تبرق بالموجدة . وانعقدت الحواجب على وعيد وشر . ورقب الجميع ايماءة من معاوية لتمزيق الوقح . بيد ان معاوية ، الطويل الأناة ، لم يذهب عنه طول أناته . فقال يخاطب الخارجي ، كأنه لم يسمع منه التهديد ، ولا الاهانة ، بكلمات عذبة الرنة : أيكون معاوية وحده حافز شقاق في الاسلام ، يا ابن اخي ؟

فأعلن الخارجي بصراحته الفجّة : بل هم ثلاثة ، لا رفع الله لهم راية ، معاوية ، وعلي ، وابن العاص . وان تكن يدي قصرت عنك ، فما وهن صاحباي دون علي وابن العاص ، رفيقيك الى النار !

فاعرض معاوية عن الشتيمة ، كأنه غريب عنها . وصاح وقد تناسى جرحه وألمه : وهل اعتزمتم قتل علي ؟... بالله ، هلا اطلعتني على جليّ المسعى ؟

وكاد يثب الى الخارجي فيعانقه ازدلافاً اليه في الافصاح ، كأن غاب عنه ان هذا الماثل ، حياله ، اوشك ان يستصفي ، منذ قليل ، دمه . فقال

الخارجي ، وهو لا يبرح ممسكاً على حقده ، مغالياً في عبوسه : ما اعتزمنا قتل علي الا وقد نادينا بالبطش بك،وبابن العاص. بالثلاثة معاً ، وانتم اعداء الله . ووطنا النفس على سفك دمكم في يوم واحد ، في السابع عشر من هذا الشهر ، شهر رمضان المبارك . ولا بد ان يكون رفيقاك يغوصان الساعة في دمهما . علي في الكوفة ، وابن العاص في مصر !

فتفتحت الاسماع على مداها لالتقاط اقوال الخارجي . وامسكت الحنايا على لهاثها ، لا تكاد تجود بنسمة . فاي سر رهيب عجيب ، مقعد مقيم ، تعلن شفتا هذا الرجل الراعب ، الدميم ؟... ان يكن جاداً في قوله ، فلا ريب ان الاسلام مقبل على ثورة يميد لها المشرق ، ويبيت منها الرضيع في مشيب الهمّ

واستيقظ في معاوية طماحه اللهوم . ونفض منه اوجاعه . وصلبت شكيمته . فان ما يحدثه به هذا الخارجي للامنية المختلجة بين اضالعه. لقد نجا من الخطر ، واضحى لا يبالي وقعه . فان تزل القدم بعلي ، وبابن العاص ، ولا تنبو عنهما الفتكة ، فاي فسحة من الدنيا تتسع لاطماعه الجسام ؟... فالاسلام ملك يمينه ، بل العالم حتى اقاصيه اضحى في قبضة ابن ابي سفيان . من الهند حتى الامبراطورية الرومانية . من المحيط الهندي حتى بحر الظلمات . هو وارث الهنود والرومانيين ، سيد المشرق والمغرب معاً

وما لاح لمن حوله هولاً ، بدا له نعمة. وما تجهمت له الاسارير ، انبسطت له ملامح معاوية ، وقد اشرقت فيها فخفخة الفتح ، وبهجة السلطان . فلماذا لا يرث الاسلام مجد اثينة وروما ، فتضرب له القباب ، تحت ظل معاوية ، في جنبات الكون اجمع ، ويدوّخ كل دولة ، ويذل كل علم ، لينشر لواءه

الابيض، المنصور، على الارض ، ومن فيها ؟... وانتشى معاوية بلذة الرؤيا النابضة في عينيه ، في عينيه وحده . والتفت الى الخارجي الراسخ في جفوته يقول : هززت قلوبنا ، يا ابن اخي . ان ارواحنا لعلى اطراف شفتيك . هات، هات كل ما عندك. فانك لتحمل في صدرك دعائم غد استجلي تباشيره. من انتدبكم للمهمة الخطرة ، ومن تولى منكم انجازها ؟

فجاش التميمي ببغضائه ، وتفجر فيه حقده . قال بايمان النقي الدخلة ، الحريز اليقين : لم ينتدبنا للمهمة ، يا معاوية، سوى غيرتنا على الاسلام . نحن الخوارج لا نحيد عن منطوق الكتاب . فمن اختارته الامة للخلافة ، فهو الخليفة . والامة اختارت علياً ، فجئت تسفه رأيها، وتعبث بمشيئتها .وعلي ساعدك في العبث بالمشيئة ، وفي تسفيه الرأي ، وقد قبل التحكيم في اذرح . مع ان الحكم لله ، لا لسواه ، يا ابن هند . والله قد اصطفى علياً . فانكر العاثر حكم ربه، وسقط في فخ نصبه له دهاؤك، ودهاء ابن العاص.وافضى به الامر الى الخسران ، وتصديع ركن الاسلام . ولقد عز علينا ان يهون الركن.وتآمرنا في الكيد لكم جميعاً، لينجو دين الله من وصمة مآربكم الدنيئة. ويهد قلبي ان ينبو عنك صارمي،فلا اخضب الارض بدمك،واطعم الحشرات لحمك ، وقد رتعت طويلاً في لحوم المسلمين، ايها المفتئت بالحق الصراح !

ــ وهل مشى صاحباك الى الكوفة ومصر ؟

ولم تتبدل طلعة معاوية فيما المثالب تلطمه دراكاً . فامتد النظر ،بخليفة مؤتمر اذرح ، الى ما يجاوز الترهات يلوكها غمر انكد . ووثب فوراً الى طلبته . هل شخص الخارجيان الآخران الى الكوفة للقضاء على علي ، والى مصر للبطش بابن العاص ؟ ... هذا ما ود ابو عبد الرحمن ان يقع منه على

هدية . ولم يكن يحفل بانطفاء ابن العاص . وهو مع شديد دهائه ، يخشى جانب هذا الداهية المحتال . فاذا أريق دمه ، زالت عقبة كأداء ، وخلا الجو للمطامع في متفاقم سورتها. وابن العاص دون علي شأناً وخطراً ، الا ان النجاة منه خطوة موفقة الى الاطمئنان . قال الخارجي : مشينا معاً ، وكلنا يعاهد على ادراك وطره . والا فالاسلام في حل منا . سوف تسمع اخبار صاحبيك ، يا معاوية ، ولا احسبها علىكان حظك المنيع !

ــ وممن انت ، يا ابن اخي ؟

ــ من تميم ، المضرة لك الويل . ورفيقاي منها . ويا للغضاضة يوم يعلم بنو تميم ان قد اخطأتك يمناي !

فابتسم معاوية على غبطة وارفة ، وقال : ليفرخ روعك ، يا ابن اخي . قمت بما عليك . ولتميم ان تفاخر بامثالك من ذوي المغامرة الهازئة بالمكاره. ولكن من انت في بني تميم ، ومن رفيقاك ؟

فغاظته الاسئلة تنقض عليه غير مهادنة . وقال بتمتمة محمومة : دع عنك الاسماء ، يا ابن هند . حسبك انك نجوت من صمصامي وساعدي !

ــ واي شر ، يا ابن اخي ، في معرفة اسماء الانجاد المغاوير ؟

ولان حتى كادت تجهله نفسه. وشعر التميمي بانه حيال ند ّ يخاطبه بلهجة العديل والمثيل ، لا تجاه خليفة رهيب الجانب ، شكس البادرة . ووهنت حدة الخارجي ، وسكن نزقه ، فقال : ادركت الآن كيف غلبت علياً ، وجمعت حولك الاعوان ، يا ابن هند . والله ، انك لتحمل عدوك على تأييدك حتى وهو يتأجج في كرهك. يكرهك وينصرك. يا للداهية الرجيم !... ألا اضرب عنقي . اذهب بي . لقد غيرت بدهائك وجه الاسلام ، واصبحت

اخشى ان ادعوك امير المؤمنين !

وغارت عينا الخارجي في ارض الايوان . وتقلصت قامته، كأنه يذوب في نفسه. فتنه معاوية برحابة صدره ، وعريض حلمه. وساد الخشوع المجلس، كأن الالسن شلّت، والانفاس تنقطع. وبات القوم بين مكبر دهاء معاوية، ومشدوه برواية الخارجي . فاي نازلة فاضحة تمثل في حرز الاسلام ؟

قال معاوية برباطة جأش تثير الدهش ، حتى في النفوس الصلاب : ما نزال نجهل ابن اخي وصاحبه !

فاجاب التميمي، وقد وهت عزمته، حتى بات 'يجرّ' بخيط العنكبوت : حارجتك باسمي. انا الحجاج بن عبدالله الصريمي ، والبرك لقبي. ندبت نفسي للفتك بك . وعاهد رفيقي عمرو بن بكر على البطش بابن العاص . اما رفيقي الآخر عبد الرحمن بن ملجم، فتولى قتل علي. هل شفيت باعلان اسمائنا نهم ...

وكاد يقول : « نهم امير المؤمنين ؟ » . ولكنه امسك ، عجلانَ ، فلتةَ لسانه ، وقال : « نهم ابن ابي سفيان ؟» . فهتف معاوية : عافاك الله. سوف ترى منا ما يحملك على حسن الظن بنا . عُـدْ به الى مقره ، يا يزيد ، وبالغ في اكرامه . ولا تكبل يديه ، ولا تشدّه بوثاق . كن بامان ، ايها الخارجي !

والتفت معاوية الى صحبه يقول : اذا صدقت روايته ، ونجونا من علي، فهو حرّ . والا فالموت نصيبه !

فانحلت الالسن المعقودة . وجرت الانفاس على طلاقة . فقال الضحاك ابن قيس الفهري : ان الاسلام لعلى انقلاب سحيق ، يا امير المؤمنين !

فاعلن معاوية : وهل تخشى عليه ، وقد وهبت له نفسي، يا ضحاك؟... هذه الدولة نحن من بناتها ، وسنبالغ في توطيدها . وكيف يتهدم الاسلام،

وقد حملنا رايته من الصحاري الغامرة ، الى المدن العامرة ؟... سيصول بنا، وتعظم شوكته ، وندق اوتاده في متناهي الآفاق. ان دولة نبغي تشييدها، لا بد ان تضم اليها ممالك الروم والهنود ، كما ضمت مملكة الفرس . صبراً ريثما ترد علينا جلوة الانباء ، ونحن واياكم على أهبة للتبسط في الفتوح !

وتنقل بهم من قمة الى قمة ، كأنهم اردانه ، يشمّر ويرخي حين يشاء . واطربهم ان يقودوا الجيوش الى افتتاح البلدان ، وان يضارعوا الروم في شامخ سلطانهم ، ورفيع مجدهم ، فتدين لهم البحار والامصار ، ويذل الملوك والاقيال . ولم تبرح سيوفهم، المخضبة بالدم ، ظمأى الى الدم ، تشتاق ان تنقع منه غلتها. وعاودت الضحاك بن قيس الفهري كلمته الراهبة في معاوية: يا للداهية المطماع !

على ان واحداً فرداً ، في هذا العقد النسيق، لم يكن يفكر في معاوية، ولا في افتتاح البلدان. هو يزيد بن معاوية. اقلقت نفسه اريب بنت اسحق...

٤

على انفاس الفجر الالمى تثاءبت دمشق في ضجعتها ، وتمطت في سريرها الاغبش . فالخريف نزع منها ابرادها الخضر ، وكساها بالصفرة . واوجعها العدوان ، فاخذت تتعرى من حلة لا ترتضيها ، تألماً من المضيمة الغاشية . وتناثرت دموعها ورقة ورقة ، تكفن بها نفسها ، وقد آثرت الفناء ، على البقاء ، بعد فجيعتها بنداوتها المسماح

وهبّت نسمات باردة تنعش الملتهب الجبين ، وتتقاص بها بشرة المقيم على خمرة . وهذه النسمات لقيت في قصر الخضراء من تدغدغه ، وقد كشف لها يزيد بن معاوية عن اساريره . فهو في شرفة حجرته المطلة على بردى ، الهانىء المسيل ، وعلى بساتين دمشق الباكية ، في فصل الاكفهرار ، وضاءتها الهاوية ، وعزها المهيض

وما رفرفت عينا يزيد على الغمائم السمر الناشرة على الافق اذيالها ، ولا شعرتا بصيف مضى ، وخريف أطل . فالدنيا لديها ، في صيفها وشتائها ، سواء . ومن عري اليوم ، فسوف ينعم غداً بالكساء . وجلّ ما حفلتا به البحث عن دار من دور دمشق البليلة ، تكاد تغرق في اسراب الحور ، الضاربة بعالي سيقانها خفاف بردى ، المرنح الاعطاف ، وقد غزر ماؤه ، وطمى تياره ، بصخب وإزباد . فهناك تقيم اريتب بنت اسحق ، شاغلة الفتى الاموي الكريم النجار . فمنذ رآها ، في قصر ابيه ، وهو يفكر فيها . واهتدى اليها ، ولم يبلغ منها

وطراً . فهي اذا رأته يعرض لها ، اسرعت في الاعراض عنه ، كما ظهر منها في قصر الخضراء ، يوم أُصيب ابوه بطعنة الخارجي المقدام

وهالته نفرتها . فكأنها تخشاه . مع ان الحسان يقبلن اليه خفافاً ، وهو في ريّق العمر ، وعلى بسطة كف ، وابن خليفة . وكم صدّ عن حسان ، وغالظ فتيات . فلم يكن ، مع هيامه بالنساء ، يكترث لامرهن . ولديه منهن بقدر ما شاء ، ساعة يشاء . وما وقف به المطاف عند فتاة غير اربنب. فقد شغلته الآسرة حتى عن نفسه ، لبليغ حنينه اليها . وزاده اعراضها عنه شغفاً بها . وكلما انقضى الزمن تفاقم في يزيد الهيام ، وتضرمت الحرقة على مديد لظى ، وجامح أوار

ورام ان ينسى. فما اسعفه قلبه في النسيان . فهو صريع العين الوسيعة ، الدعجاء ، والهدب المستطيل ، الرشيق الرقة . وحاول ان يكاشف اباه سره ، فراعه ان ينهره ابوه . ولقد عانى معاوية ، من طيش يزيد ، كل لوعة وخيبة. فالفتى العشاق كاد يفضح اباه ، المعتصم بالخلافة على سنن الدين ، وتعاليم الكتاب. وندد معاوية وهدد ، ويزيد لا يرعوي . فتنته الخمرة والمرآة . فيرشف من تلك ، وينهل من هذه ، حتى لا يطيق ، وقد ثمل بنشوتين ، نشوة الكأس ، ونشوة الجمال

وما عفّ عن قصر الخضراء يبيحه لمذاته . فيفتح ابوابه في الليل للندمان والخلان ، ويلهو بذوب الدن ، وبفورة الحسن ، على رحابة . وشعر معاوية بالمعصية فثار . الا ان الابوّة غلبت فيه القسوة ، فركد يتجاهل الاثم . واذا التمادي يطلق منه الغضبة المكظومة . فدعا اليه يزيد يؤنبه ، وينهاه عن تدنيس القصر بالفحش . فاطرق يزيد وامتثل . وبات حيال ابيه ذليل

العين ، خاشع اللب

وكانت الانباء قد وردت بظفر ابن ملجم بعلي ،وبضلة عمرو بن بكر عن ابن العاص . ابتغى الفتك بعمرو ، فاصاب صاحب شرطته ، خارجة بن ابي حبيب . ودعا معاوية بمن سدد اليه الطعنة ،وخاطبه بقولة ترشح بالرضى والندى: انت حر لوجه الله ، يا ابن اخي . اذهب ولا تحقد على عمك . لقد كان عمك شحيحاً بك !

وخلا الجو للاسرة الاموية . فلم يبقَ من مزاحم عنيد . وقبض معاوية على الناصية جمعاء في الدولة الفتية . فهو الآمر الناهي . وليس الحسن بن علي بمن يرهب له جانب ، ويخشى فيه طماح

وشفي ابو عبد الرحمن سريعاً من جرحه ، وقد سلم من منافرة علي ، واتسعت فرحته حتى عمّت دنياه . ومع رجحان البشرى ، واخضلال الامنية ، لم يكن يجرؤ يزيد على التحدث ، في حضرة ابيه ، بما يغلي به دمه من ملحاح الهيام . فلقد ادناه منه معاوية ، وابعده . ادناه حتى لم يبق بينهما شعرة ، وابعده كأنهما يقيمان على قطيعة . فان يزيد ابنه ، ومجيره في الرأي والتدبير ، وما من مشكل الا ويستشير فيه هذا الفتى الناشىء ، المتقد الذكاء . على ان الخليفة يأبى الا ان يتسربل ابداً بجلال الخلافة . ويزيد فرد من افراد الامة ، فليس له ان يشذ ، حيال الخليفة ، عن الانحناء المفروض على سائر المسلمين

وبدا يزيد ، في ذلك الصباح الغائم ، في شرفة قصر الخضراء ، كاسف البال ، مرضوض الامل . فمن له ينتشله من جواه ، ومن حسرته في جواه؟.. واقام في الشرفة على جزع ولهفة . وخطر له ان يبرح دمشق الى اخواله بني كلب ، الضاربين في تدمر الاطناب . غير انه لم يكن يجد لذة في هجران

دمشق ، وقلبه فيها . فسيبقى حتى يبلغ الرجاوة، او يخفق في الصبوة الملجاج

قست عليه اريب في صدودها . وهي لو بادلته الميل ، لوقفت منه موقف المؤنس اللفتة، تجاربه، حين تراه ، في سكرة الذهول . ولكن اريب تمرّ به مرورها بالاثر العافي. بل تمرّ به على خشية، وقد جاءها عنه انه طِلب نساء . وباحت لها عيناه بما ينتفض به خاطره، فابت ان يلهج بها ويفضحها ، ثم يميل عنها كأنها منه قميص رثّ ، نسلت خيوطه ، فلن يرتديه

واتكأ على الشرفة . وتصاعدت زفراته تفصح عن شجوه . ودخل عليه وصيفه رفيق ، فهالته منه وقفته الساهية ، وغيبوبة عينيه . ورفيق ذو دالة على يزيد . يعدّ له مجالس لهوه وأنسه ، ويدعو اليه الندمان والخلان . واوجعه ، منذ حين ، ان يرى ابن الخليفة في كآبة ونزق لم يتعوّدهما فيه . فدنا منه يقول بغيرة صادقة اللهفة : سيدي ، ما للصبح البارد ينتزعك من رقدتك ، وكنت ، حتى تتوقد الشمس ، أليف السرير ؟

فاخرجه وصيفه عن سهوه . الا انه زاد في ايلامه . ان لوعته لتقعد به عن الاستئناس بمن حوله ، فودّ ان يحبس عليها نفسه . قال ورنة الحزن تجلجل في صوته : دعني ، يا رفيق !

فهو على حرقة . وتألم الوصيف لألم مولاه، فقال : هذه الحال باتت تقلقني في سيدي وابن سيدي . فبل لي ان اعلم ما يشجي ابن الخليفة ، والكون كله في خدمة يزيد ؟

فكان الجواب : آه !

وتأوه طويلاً ابن معاوية. انه لفي خالع الانين. فارتاع الوصيف . وغمغم برهبة : عجباً ممن يقيم على حسرة ، وهو مالك الدنيا !

لقد هاله الشجن الفاشي في نفس ابن الخليفة ، الرائع في اكرم مرتبة ، والمستمتع بارحب عز ،الخاضد جناح النحس ، وقد وقف ببابه السعد مطأطئ الرأس. أيشقى من سما به طالعه الى الذروة، فبات الناس باجمعهم له حشماً؟... لم يستطع رقيق ، بحسير ادراكه، ان يلم بهذا اللغز . كيف يئن من تشتهي الاكوان ان يطلع عليها بحلو البسم كي تمايل جذلاً، فرحى برضاه عنها؟... فلم يطق عند ذاك يزيد، وقد وثب سره الى اطراف شفتيه ، فصاح بحنق: رقيق، من تحسبه يملك الدنيا ، يعجز عن قلب يستولي عليه. أتعرف القلب؟... هو دون قبضة اليد حجماً. انه لفضلة من لحم ودم تثوي بين الضلوع على وحشة. وهذا الصغير ، الحقير ، لا يقوى، من تتوهمه يبسط ظله على العالم، ان يجتذبه اليه!

فجاوز البيان لب رقيق . هل يهذي ابن الخليفة ؟... ووقف الوصيف ينتظر ايضاحاً . وفارت في يزيد اشجانه ، فتوالى فيه هديرها . قال : لم يخطر لي ، في بال ، ان هذه البسطة من الارض تضم فتاة تصون نفسها عني ، يا رقيق. على اني بلبت بما لم اكن اتوقع. فرماني زمني بمن يطيب لها في هواي التنائي . لا تقاطعني . دعني اتكلم . هنا ، هنا في دمشق ، غانية لا يروقها سيدك يزيد !

فصاح رقيق مستكبراً ، مغتاظاً : ومن هي الكافرة، البلهاء؟

فامسك به يزيد عن المذمة ، هاتفاً به بلهجة ناهية : حذار ان تشتمها . هي اسمى من ان ترمى بسوء . قد تكون كافرة ، ولكنها ليست بلهاء . فانها لتنعم بذكاء وافر ، وبحسن وافٍ ، وبنسب ذكي . انها لدرة دمشق ، ودرتها اليتيمة ، يا رقيق. والله، ما نظرت اليها الا وخيل اليّ اني ارى فيها العالم . عيناها لهبتان يشتهي الاحتراق بهما كل متعبد للحسن والغرام . هل

رأيت من تبدو له النار فيرتمي فيها ؟ . .. ان من هامت بها نفسي لشعلة مضطرمة ، وليس من يقدر على الامتناع من ان يكون لها حطباً . رقيق، هل رأيتها ، هل تعرفها ، هل وقع ناظراك عليها وما اكلتك النار ؟... نار ، ولكنها لا تنطفىء،وهي تتوهج ابداً، وفي كبدي منها ضرم وجراح!

ــ مولاي !

ــ اني احترق واتعذب،يا رقيق.ألا يريك،هل من معبر الى النسيان؟... عينان تحملانك على الايمان بالسحر . وهو ، لفرط غلوّهما فيه ، غير حلال . وقامة، وخطو ، وجلال . آه من اناقة تجلو روعة السماء !

فانطلقت من شفتي الوصيف صرخة عالية تذيع اهتداءه الى اللغز الصفيق، وقد هتف : عرفتها ، يا مولاي !

فنبر يزيد : عرفتها ؟... اذن انت تكتوي بنارها ، ايها الانكد . ومن لا يعرفها عندما يذكر الحسن ، وهي منه في البحبوحة ، وقد نشرت على دمشق لواء السنا والدلال ؟... عرفتها ، ولا عجب . وهل يخفى القمر ؟... وهل تعمى عن الشمس عينان ؟

ــ مولاي ، هي ارينب بنت اسحق !

ــ وانها لهي . فيا لها من سابية . فتنت الدنيا ، وما فتنها احد . رقيق، حزرت . هذه من اذلني هواها . وما كنت قبل ان اراها أبالي الحب ، واكترث لوقعه الفتاك . قتلتْ ، وابت ان تحيي من تلطخت بدمه يداها. جانية ، طاغية، لها الله في يوم الحساب !

وفار يزيد ، كأنه السائل الملتهب دبت اليه النيران. ونظر اليه رقيق في متأجج ثورته ، فراعه ان يقيم سيده على غليان يكاد يسلبه النهية . قال يفسح

له في التؤدة : هل خاطب سيدي اباه في امره ؟

فهز يزيد رأسه . وقبضت يمناه بعنف على يسراه ، كمن ينتقم من نفسه ، وقد خاب في مأمله ، وسدت عليه ابواب الرفاء . قال ، وكلماته تحمل فلذات كبده الدوامي: أأسأل ابي في قلبي، وابي في شغل عني؟... ما عرفتك غبياً ، يا رقيق . معاوية اقام مهواة بينه وبين ابنه . فلا اجرؤ على مخاطبته باموري ، ولا على مكاشفته باسراري !

فابان الوصيف لا يؤمن بالقولة : ولكنك عنده بمنزلة امارة المؤمنين

فقهقه يزيد قهقهة الكفران بما يلقى اليه ، وتمتم: إما انك تجهل ، وإما انك تحاول خداعي ، يا رقيق . وعهدي بك صادق الرأي، صحيح المودة .معاوية يرى الحياة في نفسه ، في اطماعه الضخام . فان يقف ابنه في طريق امانيه ، فالويل لابنه منه . وهو الآن يهدم ويبني . فيحاول ان يشيد دينه لدنياه . لا ، لست اجرؤ على مخاطبته بشؤوني ، وانا اخشى انياب ناظريه !

فانكر رقيق الظنة تطاول الخليفة ، وما تفادى من نفيها، مذيعاً بجرأة: لست على رأيك ، يا ابن معاوية ، في ابيك !

فعادت القهقهة الى يزيد مولولة راعبة. واستوضح متهكماً : أتكون تجهل معاوية ، يا رقيق ؟

— اني منه لعلى معرفة متناهية . ولقد تجسم لي فيه العطف عليك اكثر منه على نفسه . واذا شئت توليت عنك محادثته في شجوك . أتريد ؟

فقلب شفتيه . أيلجأ الى ابيه، ويطلب منه ان يعقد له على اريتب ؟... ألا يسخر منه ابوه، وقد فكر في نزوات هواه، فيما ينشىء ابوه دولة تبز دولة القياصرة ، سادة المشرق والمغرب ؟... ولكن قلبه ابى عليه ان يتهيب

الموقف . قال بخفيل التوجي : افعل ، افعل ، يا رقيق !

ــ أأقول له يزيد يهيم بازينب بنت اسحق ، وقد جاءك خاطباً لها ؟

ــ قل ما شئت ، على ان تكفيني اوجاعي !

ــ وادعوه ليعقد لك عليها ؟

ــ انت مخيّر في ما تعلن ، يا رقيق . اريد ازينب بنت اسحق بجانبي . وهذا حسبي !

وماذا يشتهي مما يعدو هذه البغية ، وقد هدّه الغرام؟... فهتف الوصيف يهيب به الى الرجاء : طب قلباً . ظفرت بالطلبة . ازينب لك . وما يشوقني ان اراك على كدة !

فاطلق عذره يستر به شجوه ، معلناً بزفير : وما حيلتك في المصاب بهنائه وصفوه ، يا رقيق ؟

فاجتهد الوصيف في القعود به عن الحسرة ، قائلا بجمّ المؤانسة : انت في الغضّ من العمر . والحياة على مدى ملذاتها ملك يدك . فلا تبح للالم منفذاً الى كبدك يرّضها ، ويسقمها !

فاطرق ملتاعاً . اذوى نضرته حب وبيل . قال الوصيف : سأدخل الساعة على امير المؤمنين ، حاملاً اليه ابريق الماء . ومن عادته ان يمازحني كلما مثلت في البكور بين يديه ، وان يستوضحني شؤون الدولة ، وما يتحدث به عنه الناس . فكأني له نجيّ امين . وسأفاجئه بأمرك ، وانا اعلم ما ينطوي لك عليه من ايثار . فانت لديه الحبيب الصفيّ . العالم في كفة ، ويزيد في كفة . انك لعلى ضلة وانت تسيء الظن بابيك !

ــ ولكنه يتجاهلني ، يا رقيق !

ـ أيتجاهلك من يدعوك اليه لتشاطره الرأي ، وتقاسمه التدبير ؟... جاوزت في التجني كل مدى . اني لاشفق منك على امير المؤمنين !

وانصرف عنه الى ابريق الماء المثلوج ، يعدّه ليدخل به على معاوية . ومعاوية يستطيب الماء البارد ، حتى في صدر الشتاء ، وفيه ما يذهب بلهبة الحلق والجوف . وانسلّ به اليه رقيق ، ينحني بين يديه ويقول : السلام على امير المؤمنين !

فابتسم له معاوية ، وقال ملاطفاً : وعليك سلام الله ، يا رقيق . ماذا تسوق اليّ في هذه البكرة ؟... هات ما ترى القوم يضغون !

فاشرق وجه الوصيف ، ومعاوية ، امير المؤمنين ، يلقاه بهذا البشر الجميل . وافاض بالقول الانيس يملأ به نفس الخليفة مسرة ، قال : دمشق على غبطة ، وامير المؤمنين يرعاها . وماذا تخشى ، وقد ابعدتَ عنها الفجائع ، وانقذتها من ابن ابي طالب يقتحمها ويستصفيها . فينزع منها وضاءتها ، ويرميها بالكلوح !

فاعلن الخليفة متواضعاً ، يتنصل من التباهي المقيت : ولكن الله انقذها منه ، يا رقيق . علي قاتل اخي حنظلة يوم بدر ، والمحرض على عثمان بن عفان المطلول الدم ، وعدو الامويين الانكد . شاء هدمنا ، فهدمته القدرة . والله ، لو ادركني بنابه ، لابقاني رمّة !

وكرع في الابريق . وابتعد به خياله عن دمشق . فتمثل علياً في معركة صفين ، وقد ندبه للبراز . فارتاع معاوية وأدبر ، وليس في النزال بمناعة ابن ابي طالب ، المقدام ، الصؤول . قال الوصيف : على ان هذه الدولة الطالعة لا تستكمل عدتها ، الا وقد امرعت فيها المسرات . ولقد زان الله امير المؤمنين

بالبنين . فما يمنع ان يتهج بالحفدة ؟

فضحك معاوية . وقال يبرىء نفسه من الحؤول دون الملتمس : وهل رأيتني اقف بيزيد وعبدالله عن الزواج ؟

ــ ولكنك لا تدعوهما اليه ؟

ــ أأدعوهما الى ما ليس لهما فيه شهوة ؟... ان يزيد لعلى ارتواء ، وقد بات قصر الخلافة ميدان لهوه . يأثم ولا يخجل مني . وهي استطالة شائنة ، لو بدرت من اعز من عندي ، لهدمت عليه القصر باسافله واعاليه . ولكنه يزيد ، نبضة القلب ، ومستقر الحشاشة . فتحمّلت بغيه على مضض . وهو لو جاءني في طلبة الزواج ، لزففت اليه ابهى فتاة في دنيا المسلمين . الا انه على اكتفاء ، والغواني ملء راحتيه !

وانتفض معاوية بغصة الالم . ابنه ، ومعقد امله ، يفني ايامه في المعصية ، وما يرتدّ عن حرام . ولم يكن رفيق بالمتواني عن السانحة ، وقد عرضت له . فانتهزها يقول : أتزفّ اليه من تشتهي نفسه ، ولا تحجم عن تلبية ؟

فصاح مؤيداً : أأعاند ابني في من يهوى ، يا رفيق ؟ ... ليصارحني باسم من تنغش في خاطره ، لاعقد له عليها الساعة . على ان يحتشم في الاصطفاء . فلا يهوي عن مكانته ، وهو ابن سيد ، وحفيد سادة ، ملكوا الامر في الجاهلية والاسلام !

فنشر الوصيف مقال الواثق برفعة الطبع : لا احسبه يتسفل في الاختيار ، يا امير المؤمنين !

وابتسم رفيق . وابتسامته اوضحت لمعاوية ان يزيد ورفيقاً على اتفاق في استدراجه الى امر مقدور . فهل يتيم يزيد على هوى نضيج ؟... قال معاوية

وهو يلتفت الى الابريق الراشح بالماء المحيي، دون اكتراث، لئلا يثير الرهبة في نفس رقيق، فيمسك به عن الايضاح : وعلى من استقر رأي يزيد ؟

فابان الوصيف : على من ترى فيها دمشق نور عينيها، ومؤئل فتنتها، على اريئب بنت اسحق !

فسدد معاوية الى الوصيف عينين اتسعتا على استفهام ملحاح. فقال رقيق لا يتردد في الجهر بالواقع : يزيد هائم باريئب، يا امير المؤمنين. والفتاة من قريش، مانعة الرواء، كريمة العرق. فاذا رأى مولاي ان يشفي نفس ابنه منها، ضمن ليزيد الغد البسّام !

فلم يجب ابن ابي سفيان، وقد ضنّ ببيانه. على ان رقيقاً ودّ استجلاء الراهن، فقال : ألا تقع اريئب موقع الرضى من امير المؤمنين، مولاي؟

فهتف الخليفة يذيع رأيه : وكيف لا ارضى عنها، يا رقيق، وهي منا وفينا ؟... نسب راسخ في الكرم، على حسن وارف البشاشة. انها لتليق بنا. وستكون لنا. يزيد اجاد الاختيار. ابلغه اني مؤيد له في مطلبه. اريئب لن يعقد عليها لسواه !

ونهض معاوية يرتدي ثيابه، وقد حرص فيها على التأنق، يتعمد ابداً الاقتداء بالقياصرة في فخفخة الملك، ورواء السلطان. وخرج رقيق على جناحين الى يزيد، المقيم على ذهوله في شرفة حجرته، كأنه لا يرجو من ابيه التفاتاً اليه. وعاد رقيق يهزه صائحاً به : إبشر، احرزت المراد. ابوك سيزف اليك اريئب. رقيق لا يعلن الوعد، الا ويشفعه بالانجاز !

فانتشله من الوهدة، منعشاً فيه الامل، بعد قنوط. فال والبسمة عرفت طريقها الى محياه، الاصفر كتلك الورقات الكئيبة، الهاوية عن اغصانها في

بساتين دمشق : أصحيح ، يا رفيق ؟

وما تجرأ على الايمان بادراك المرتجى. فانتشى الوصيف بفوزه ، واجاب بصوت يمور بالدعوى : هل سمعت رفيقاً يحدثك حديث بهتان وزور ؟

فصاح ابن معاوية صيحة الفرحان ، المنصور ، بعد كاسف الشجن : انك لتعيد اليَّ الانس ، بل الروح ، يا رفيق . وماذا كان من ابي؟

ــ كان ان اصغى الى روايتي ، وايدك في من اصطفيت ، واثنى على اريتب الثناء المعطار !

ــ هل رضي عني وعنها ؟

ــ عاهدني على ان تكون اريتب لك دون سواك . قال : « ليطب قلباً يزيد . لبانته سنقضيها . اريتب ذات محتد اثير . فلن يذهب زفافها اليه بعريض جاهه ، ورفيع مثواه ! » . ودفعني اليك كي ابلغك مساندته اياك في مبتغاك !

فهتف يزيد والغبطة فيه نبع دفاق : انك لنجيٌّ نقي المودة ، يا رفيق . لن ينام يزيد بن معاوية عن ثوابك ، وقد توليت خدمته بهمة نصوح !

واشرقت في عينه الدنيا . اريتب له . لن يلتقى منها ، وقد وعده بها ابوه ، ذلك الاعراض الجهم . فما اجمل العيش ، وقد اينعت فيه علالات المنى الصباح !

٥

انطوى علي بن ابي طالب بسيف ابن ملجم. غير ان انصار علي ، وشيعته، ابوا ان يقضي على الهاشميين بانهيار الدعامة، واندثار القطب . فاحتشدوا في الكوفة ينادون بالحسن بن علي خليفة عليهم . وبايعوه بنخوة الغيور على استبقاء السلطة ، وحماسة المتعصب للحق الاثيل . مات امير ، فقام امير . وبلغ النبأ معاوية ، فعض شفته جزعاً. نجا من ملمة، ليقع في ملمة،قد تكون ادهى ، وأمض

ونادى الضحاك بن قيس الفهري يكشف له عن غمته. قال : لا نبرح على اوجاعنا ، يا ضحاك . ما طربنا ، حتى اكتأبنا . مات علي ، فصفق الحسن بجناحيه . واذا كفاني القدر شر الاب ، فمن يدرأ عني شر الابن ؟

وتكلم برزانة السيد ، ودهاء الحكيم . ونظر اليه الضحاك يستجلي بريق عينيه ليدرك مرماه. فاذا عيناه على جمود، لا تبوحان بسره. فقال الضحاك: أتروم فيه امراً ؟

فاعلن لا يوارب : اروم النجاة منه !

ــ النجاة منه بمحوه ؟

فابتسم . لكأن الضحاك يقرأ في مطاوي القلوب . قال معاوية يثني على حصافة جليسه: حزرت، يا ابن قيس. قد يكون الحسن دون ابيه بسالة وخطراً، الا انه عقبة . والخلافة ان لم تقبض عليها يميني ، من قرطها حتى خلخالها ، فلست سيف العرب الضارب في اقفية اعلاج الروم، ولا اميراً على المؤمنين!

ـــ أترشقه بابن ملجم آخر ؟

فانطبقت اهداب معاوية تخفي بريق عينيه . فهو يسأل نفسه عما يفضي به الى الضحاك الرهيب النظرة ، الاثيم الظن .قال بحذر الشفاف البصيرة : ان يدي لتعف" عن الغيلة . فلست ارضى بان اجيء عدوي من ظهره ، وانا الحريص على المصادمة . اذا كابر الحسن في بيعتي ، وابى التسليم باحكام مؤتمر اذرح ، فان بيني وبينه السيف . الخلافة باتت ملء راحتي ، وليس لاحد ان ينازعني حتي بها !

فقال الضحاك بتهكم المستطيل : ولماذا تعف" عن الغيلة ، يا معاوية ، وقد جررنا ذيلها في معركة صفين ، ونشرنا لواءها في اذرح ؟... أما جئنا علياً من ظهره ؟.. وسنقضي على الابن كما قضينا على الاب . فالحرب خدعة . اذا مانع الحسن بن علي في البيعة ، فليكن موقفنا منه موقفنا من ابيه . نقتنصه كيفما طاولته سيوفنا . وننصب له من الفخاخ ما يمسي به ، لدى كل خطوة ، رهناً بالموت الذريع !

فضحك معاوية ، وقد ايقن ان لا سبيل الى التقنع ، واخفاء البراثن في محادثة الضحاك بن قيس الفهري ، اللبيب ، الفطين . قال : وكيف ترى ان نأخذه ، يا ضحاك ؟

ـــ نهدده بالقتال ان هو جبهنا بحق ابيه . فاذا أصر" على المجانبة ، مشينا اليه . ولا بأس ان نفجأه بمن يزيحه عنا . فيدق" عنقه . والسلام !

فاطرق معاوية ، كأنه يفكر في ما يعلن الضحاك . فهو على اتفاق في المذهب وابن قيس الفهري . ولكنه شديد الحذر في الايضاح . وطال فيه الاطراق المتحرّز . فقال الضحاك : على م َقر" رأي امير المؤمنين ؟

فاجاب وكأنه يتردد : امهلني ، يا ابن قيس !

فابان الفهري، وما يستطيب التأجيل : ولكن السرعة خير الاحكام ، يا معاوية. اذا فسحت في ايامه نما، وصلب عوده، وتعبت في قهره. فبادر الى النزال ، او الى الاغتيال !

قال وما يبرح يتقاعد عن الجزم : دعني افكر في امري !

ونهض يصرف عنه الضحاك ، ويدعو اليه ابنه يزيد . وكان يلقي اليه بشجوه ، طمعاً في رأيه المؤنس، الخير . ودلف يزيد الى ابيه ، وفي معتقده ان ارينب اضحت اكلة ميسورة . ووقف بين يدي معاوية يحنو الرأس ، ويحيي بخشوع المطيع : السلام على امير المؤمنين !

فمدّ له معاوية يمينه ، فقبلها باجلال . ولم يجلس ، والخليفة لم يبح له الجلوس ،وقد وقعت ابهة الملك،في معاوية،على سيد ضنين بها،نازع الى زخرفها. انتهت اليه من الروم ، سادة دمشق قبل المسلمين،فدان باحكامها، بل اسرف فيها . فاقام لنفسه عرشاً . ووقف ببابه الحجاب والخدم . وحفل موكبه بالحرس يمشون امامه، ووراءه.وليس لمن يبغي الدخول عليه ان يبلغ فوراً ايوان امير المؤمنين. ولا غنية عن الاستئذان ، والانتظار، قبل المثول بين يدي الخليفة . ولا بد من الانحناء في حضرته ، دليل الخضوع والاكبار . وما شذّ عن النهج المرسوم حتى اخوة الخليفة وبنوه . فان تلك الدالة، في مجالسة سيد القوم ، خليفة الرسول ، مضى اوانها . فكأن الروم والفرس رموا العرب بدائهم ، وانسلوا

والتفت معاوية الى ابنه يقول : هل جئت ، يا يزيد ؟... دعوتك كي استشيرك ، يا ابني . نحن حيال كارثة اخرى تومجر وتتوعد . نام على نومة

الابد ، ليستيقظ ابنه الحسن من رقدته . وان موقفه ليقلقني . فنادى بنفسه خليفة . وبايعه العراق ، واقامه لي منافساً . فماذا ترى في الخلاص من الملمة الطارئة ؟

فخاب يزيد في ما توهجت به نفسه من مرح . وقب ان يحدثه ابوه عن ارينب بنت اسحق ، فاذا به يحدثه عن الحسن بن علي. بيد انه اخفى مضضه ، وقال يستظهر برهافة بصيرته ، في الايذاء ، على خيبته في امنيته اللجوج: أيريد امير المؤمنين سحق رأس الافعى ؟

فهتف معاوية بحدة: ما اشتهي الا ان اسحق هذا الرأس ، وليس لي ان اكتفي بقطع الذنب !

فاعلن يزيد بقسوة من يستطيب التنكيل : اذن على امير المؤمنين ان يمشي الى الكوفة !

— ونقصي عنها الحسن ؟

— بل نبطش به بلا هوادة ، ولن يلمّ بنا الكفاه . فالابن يتضاءل في المناعة عن ابيه ، وجيشه على اضطراب ، ومكانته لا تسمو الى منزلة ناجله . والكوفة ، موئله ، خذلت علياً . ومن المحال ان تعتصم بامانتها للابن . فاضرب ولا تبال . انت سيد الموقف ، وفارس الميدان !

— أيقيم يزيد في رأيه على اقتناع ؟

— على اقتناع ورسوخ . فالحسن اشبه بابيه . في اخبث جند ، وانكد حال . ولا يغرّك من الكوفة عهدها . فهو خالب . ولا وعدها . وهي منه على ميعة . فالكوفيون طوال الالسن ، وقصار الايدي . يضرمونها حامية ، ليشهدوها من بعيد ، لا ليكتووا بنارها . ميثاقهم مبطن بالمصانعة .

ويمينهم لا برّ فيها . فليرهف امير المؤمنين نصلته ، وليسددها الى اكبادهم. فانهم لصرعاه قبل ان يرنّ في آذانهم سهمه. ما عرفت كالكوفي يدعي البطولة، وتخونه في مستهل الطريق رجلاه !

ــ لنضرب اذاً ، يا بنيّ !

ــ اضرب والنصر في خدمتك ، يا امير المؤمنين !

ــ وما يكون من الحسن ؟

ــ يكون منه ان يقبل اليك مستجيراً ، وقد انتثر من حوله اصحابه . ولا بأس عليك ان تجيره . ولكن الى حين !

ــ أأطلقه ، وقد بات في قبضتي ؟

ــ لن يفلت من هذه القبضة . فهو اسيرها . وانه ليهب لك نفسه في استسلامه اليك . وعليك ان تبدو حياله في كرم المغيث . فلا تضرب عنقه، بل تكرم وجهه . وتميل عليه حادباً رفيقاً. وتمضي الايام على امتداح خلقك السمح ، وحلمك النديّ . ولكن الحسن لن تطول ايامه ، وعندي لها شفرة باترة ، تذهب به كشرارة في فضاء !

ــ أنفتك به ؟

ــ افتك به وانا منه بريء . فلا ألطخ بدمه يدي ،ولن يبصر لي وجهاً. ولا احرض عليه عدواً ، وسأجعل عدوه ، في داره ،اقرب اليه من اصفى خليل !

ــ ويحك ، يا يزيد !... ماذا تقول ؟

ــ اقول سأقضي عليه بيده !

ــ وكيف ؟... زدني ايضاحاً ، يا مهجة ابيك !

ـ الافصاح في ذمة الغـد . وكل ما لي ان اقول اضرب ولا تخش . منافسك دونك . وانت الراجح الكفة !

فبلغت الغبطة من معاوية مبلغ الهوس . ونزع منه وقار الخلافة واقبل على يزيد يضمه الى صدره ، ويقبله بنهمة ، وهو يقول : ذنوبك تلقى مغفرتي حين اصغي الى مشورتك . فانت ذو تدبير سويّ . حدثني رقيق بهواك ، فسرّني ما تختلج به من شوق . وسأخطب لك اريnب ، طلبتك . ولكن بعد الظفر بالحسن بن علي . سأدفع الى مناوأته جيوشي . فالخلافة لنا . لبني امية ، سادة قريش وقادة العرب . واريnب منا . فلن يزحمك فيها احد . كن على صفو واطمئنان !

ونادى حاجبه يصيح به : اين قادة جيوشي ؟

فاقبلوا في جلال ونخوة . فوقف فيهم معاوية خطيباً يقول بلهجة ذي السطوة : دعوتكم لامر من الخطورة على قدر . الحسن بن علي يجاذبني الخلافة ، وقد أقرّني عليها المسلمون ، وبذلت لها وسعي . فشدوا اليه اعنة خيولكم . وانزلوا به عن دعوى الافك . اريدكم على كسر شوكتـه ، وجرّه الينا على استخذاء . لا ترحموا فيه ضعفاً ، ولا تسايروا ذا شفاعة . من ناوأنا في حقنا ، فليس له عندنا ثواب . منذ غد أعدّوا العدة . وازحفوا بعد اسبوع الى الكوفة . واتكلوا على الله . اني لارقب عودتكم ، وفي أيمانكم ألوية النصر !

فما عارضوا . بل انحنوا وايديهم تضغط مقابض سيوفهم بجذل وارتياح . فخافوا ان يعلوها الصدأ ، بعد طول سكون . ونظر اليهم معاوية في انحناءتهم الحازمة ، وخطوهم العازم ، وشفّ محياه عن بسمة تفاخر الزمن .

فالحظ خادمه . واستبقى يزيد يبغي ان يستلّ منه مكنون سره. قال وعيناه تودّان الى فتاه ، وقد خلا لهما الايوان : كنت اريدك في طليعتهم . فتضرب بيدك عدو البيت الاموي . وعلينا ان نتولى امرنا بانفسنا . أما تذكر عمك يزيد الخير ؟ ... كان المجاهد الاروع ، يعلو من حوله باقواله، وبنصاله . وهكذا يشوقني ان تبدو لعيني . الا ان الزمن مديد ، وانت ذو اقدام ورأي. ألا حدثني بما تضمر للحسن يوم نخذله . فاني اقرأ في عينيك مكيدة ليلاء !

وادناه منه يلاطفه ، ويخلع عليه لدونة الانس . فقال يزيد : الامور مرهونة باوقاتها ، يا امير المؤمنين !

فقال معاوية مستدرجاً : لا عليك اذا شفيت فضولي . سرك يبقى في حرزه . أتخشى عليه من ابيك ؟

فثقلت شفتا يزيد تترددان في الابانة . وخجل الفتى من نفسه . كأن ما سيفضي به ذلة . فاستحثه معاوية بضراعة اللهيف : هلا ارويت ظمأي ؟

فتصاعدت من فمه الكلمات واجمة ، مطرقة . كأنها تجرّ ذيل الشين. قال: اتاني عن امرأة الحسن ، جعدة بنت الاشعث الكندي ، حديث !

فتكشف السر لمعاوية.واضاءت في ناظريه البسمة.فالحديث عن جعدة لا يتخطى نبضة الحس . ان زوج الحسن لعلى شغف بيزيد. وحدق معاوية الى ابنه الطري "الاهاب ، المستهوي النضرة ، وسرّه ان يقوى على استغلال هذا الابن لمجده وسؤدده ، كما استغل الاسلام ، وزعامة ابيه في قريش ، ومكانة اخيه يزيد بن ابي سفيان ، اول من ولي دمشق في فتوح المسلمين . قال والغبطة تنبض في مقاله : إيه . وماذا اتاك عن جعدة ، يا يزيد ؟

فجلا الابن ما سقط اليه من أخبارها، مأخوذاً بليان ابيه . قال: انتهى الي انها ناشز ، فارك ، لا تطيق الحسن، وهو في بحبوحة الكهولة ، وهي في ريعان الفتوّة . وقد ذُكرتُ في مسمعها ، فتولاها حنين . قالت : « يزيد ريحانة بليلة ، يملأ عطرها الخياشيم ! » !

فامتد بمعاوية الخاطر الى متباعد الآفاق . ونظر الى ابنه نظرة لا تبرح تمور بنزعة الاستقلال ، وقد عقد، على كلمات جعدة في يزيد، طرفاً من دسيسة بادر الى فتل حبالها . قال : ان يكن هذا رأيها فيك ، فماذا تنوي فيها ؟

فدب النشاط الى صدر يزيد ، واعلن بفورة من حماسة : سأدعوها الى القضاء عليه ، بان تدسّ له في طعامه السم !

فتعاظم اعجاب معاوية بابنه. لكأن الروحين على انسجام في الرغبة. وما تماسك الاب ان يعود الى ضم ولده الى صدره ، وهو يقول : يزيد ، انت جدير بعد ابيك بخلافة المسلمين . فانك لعلى أصالة رأي،وسداد مسعى .ضنّ نبلتك ، بين اضالعك ، حتى يأزف الحين . ستكون بحاجة اليك اذا ابقت حرابنا على ابن علي . فتغري جعدة بدم الحسن . وسوف ترديه !

ومع هيام معاوية بالخدعة ، وميله الى السيطرة بالحيلة ، اعتزم المسير الى الكوفة بخيله ورجله. فلم يكن يرهب الحسن كعلي، والحسن غير مجرب في الامور كأبيه. ثم ان هؤلاء المتفين حوله،ينصرونه بمقدار. فاذا لاح لهم منه انه على كبوة ، بل على وهم من كبوة ، اشاحوا عنه ، وانكروه

وزحف جند معاوية ، الى الكوفة ، يروم نشر اللواء الاموي الابيض على عرصاتها ومغانيها .وطنّ النبأ في مسمع الحسن . فعقد لقيس بن سعد بن عبادة على اثني عشر الف مقاتل ، يجبه بهم الجيش الاموي . ولكن هؤلاء

المنطلقين، الى مقاتلة جند معاوية، لا يكادون يتماسكون رعباً . فهم يسيرون الى القتال على كره ، وسهوم . ومن يقاتلون يقلقهم حوله وطوله. وما يخفى عليهم كيف اغتصب الخلافة من علي . بل هم اتهموه باغتيال علي ، وقد حرّض عليه، في زعمهم ، ابن ملجم. فالثلة بالغلبة افلتت منهم وهم يشدون الرحال الى المعترك . بل قبل ان يشدوا اليه الرحال . وما صادموا جند معاوية ، وشاع فيهم ان قيساً ، قائدهم ، أُصيب ، فقضى ، حتى تناثروا على ادبار ، لا يدرون كيف يتطايرون في فرارهم الزريّ

وسلبوا ارزاق جيشهم واموالهم . وما عفوا عن الحسن نفسه ، وهم اعوانه وانصاره . فوثبوا على سرادقه ينهبونه. فاعترضهم الحسن . فطعنوه بالخنجر في بطنه ، وجدلوه يتضرّج بدمه . فراعت الخزية ابن علي ، وصاح : ايا الانكاس ، غدركم بي اشد عليّ من غدركم بابي . فلو لم اكن خفيف الحلم ، لاقمت منكم على ريبة . ولكني آمنت باخلاصكم ، وانتم المنافقون الاثمة. لا بارك الله في اهلي واولادي اذا عدت الى الثقة بكم ، وانتم المهازيل ، وما ترسخون في امانة ، ولا يعصمكم يقين !

ودعا بنفر من خلصانه ، فرفعوه على جواده ، وعادوا به الى الكوفة ، على الخذال وحرقة . وقبضت يمين معاوية على ناصية الامر كله ، في الدولة الطالعة ، وأورق عود الامويين باجمعه . فكل عقبة زالت ، وكل صعب هان ، ولم يبقَ في المضمار منافس. ووثب ابو عبد الرحمن الى الكوفة بطلعته الوقور ، وسماحه الرخيّ . واقبلت الوفود تنحني بين يديه ، وتسلم عليه بالخلافة . ومشى اليه الحسن بن علي بنفسه يناديه : يا امير المؤمنين !

فمادت الكوفة وابن علي بن ابي طالب يبايع معاوية . وانقد صدر كل

من تشيع لعلي بالنقمة الحمراء، البارزة المخلب. أينقض ابن الامام بيعة كتبها له العراق بدمه، وانزلها منه في عنقه؟ . . . ومعاوية هذه بغيته. فمال على الحسن يعانقه، كأنه يلقى ابنه يزيد. وقال من شهد الصفقة: غبن مفضوح. ثعبان ينفث السم في نعجة!

واشرق محيا ابن ابي سفيان. شفي من الغصة، وعذبت لياليه. فهو السيد، ولا شريك. قال مداجياً: نحن فروع دوحة واحدة، يا ابن علي. جمعتنا قريش، وضمتنا العلياء في حزمة. وزادتنا النبوّة مودة وقربى. والله، انك من نفسي لفي منزلة اولادي. وما نحن في الاسلام سوى دعائم نصره. وليس للدعائم ان تتنابذ، سواء انتهى اليّ الامر، او ملكته يمناك. وهذه الخلافة لك من بعدي. اعاهدك عليها عهد الصادق الحفاظ. فلن اخلعها من جيدي، الا لارصع بها نحرك. فعلامَ الخصومة والعداء؟

وتفنن في المداهنة، وهو يملك منها الزمام. ومضى دهاؤه فبهر، واعمى، وطاول السحاب. فركن اليه حتى من اقام منه على قلى. غير انه، وهو يعد الحسن بالخلافة، نغشت في خاطره مكيدة يزيد. فابتسم لها قلبه. وافاض بالوعود، لا يخشى فيها جسامة. ولا يقف في صوغها عن خطورة. يزيد سيكفيه مشقة البرّ فيها

وشاء ان يرى جعدة بنت الاشعث الكندي، زوج الحسن. فهي طريقه الى مآربه. وهشّ لها وبشّ. وألقى بين يديها سنيّ التحف. هذه من عترة الكرام الميامين. وتحدث عن يزيد ابنه بفخر واعجاب. فتى ابيّ، رضيّ. تتقد بالرجولة جوانحه، وبالنوال يده. وانسابت منه الى جعدة نظرة خفية، وهو يتحدث عن الفتى. فاذا بها تبلع ريقها تشهياً، وتطرق في الارض.

فسرّه منها هذا الهيام الصامت. وايقن ان بوسعه الاستنامة اليها. فالاحبولة لقيت وتداً تشدّ اليه. صدق يزيد في قوله ان لجعدة فيه ارباً. وتعاظمت في معاوية نزعة الاستغلال. الاستغلال بلا رحمة. سيدفع ابنه الى جعدة يستهويها. وينفخ في لبها الاغراء الاثيم. ولا بأس عليه اذا هدم اسرة، ومزق شيعة. فالسيادة لا تستقر بيد من يوعى ذمة، ويصغي الى ضمير!

وخاطب جعدة بقوله: كم نأنس بابنة اخي في ارتيادها مغانينا. نسائي وبناتي يفتحن لها القلوب على غبطة. حرام عليّ الطعام ان لم تكوني في قصر الخضراء، في ضيافة عمك، يا جعدة!

فلجلجت، وقد راعها بيانه. وقالت وفي صوتها ارتعاش: ان بنا الى دمشق لشوقاً. سنقوم، اذا اسعف الزمن، بارتياد رحاب امير المؤمنين!

قال يميع في الملاينة: بل بارتياد رحابك، ورحاب زوجك الحسن بن علي، يا ابنة اخي. والله، لست ارغب في ان امتلك لنفسي شبراً من الارض، ولا ان تقبض يميني على درهم، الا وقد ايقنت ان لي في قومي من يشاطرني اياهما. فما الدنيا، عندي، غير وهم غاشم، وسراب شائم. تعالوا اليّ وخذوا ما في يدي. فقد كرهت طول الثواء بالارض، وتعبت بحملي. وليس احب اليّ من ان ارى حولي اهلي وعشيرتي!

وتأوه حتى اوشك ان يكفّن بحسرته. ورقّ حتى كاد، على عظمته وجلاله، لا يبين. فتناسى كل ما كان منه في علي، وفي الحسن بن علي. هذا ليس مغتصب الخلافة من ابن عم الرسول، ومن حفيد الرسول، ولا رافع لواء الجاهلية في الاسلام، وقد كانت في الجاهلية السيادة في بيته، فاستعادها، وللاسلام احكام وسيوف. انه لرمز المسكنة، ووجه القناعة. وحسبه،

كي يرضى ، ان يحصر جميع من حوله في خفض ولين . وكم يعصر قلبه مرأى دمعة في مقلة ، وجناح منتوف الريش !

وآمن الحسن وزوجه ، بلوعته ، وبزهده في الدنيا . فخدعها ظهوره بجانب كسير ،وأحباه على صفاء طوية. وانسلخ منهما وهما يأسفان على انقضاء فترة التراخي ، وبثّ الشجن . وعاد معاوية ، وهو بباب الحسن ، يرمي جعدة بنظرته الخفية ، المبطنة بشهوة الاستغلال. وما تمالك ان قال في نفسه: هذه هي الضالة، وعليها المعوّل في الانقاذ من الشبح الدميم. بها ساستلّ انفاسه. وسادعوها الى لفّ يديها على عنقه ، حتى لا يبقى فيه خلجة روح !

واقبل حملاً، لينصرف نمراً . ولم يكن يبالي ، في سبيل اطماعه ، العبث بكل حلال . فالسير على الاشلاء ، والرؤوس ، لاجل امنية يرومها ، اشبه لديه بالسير على رياحين . واندفعت اليه دمشق ، وهو يرجع اليها غارقاً في ظفره ، تغنيه اجمل انشودة صاغها ملهم رهيف الحس . فالسيادة معقودة له من طرفيها . هذا خليفة المسلمين !

٦

خلا معاوية، فوراً، بابنه يزيد. قال وملء جوانحه البشر: اراها منك على هوى مستفيض. بلعت ريقها وانا انفث في اذنيها اسمك. لا عليك اذا لهوت بها ريثما اعقد لك على ارينب . طرْ الى الكوفة ، واحمل اليها شبابك ومال ابيك . اراها في صبوة الى المال والشباب !

وابتسم ابو عبد الرحمن ابتسامته الخالبة ، المتاوجة على خفيل استهواء . واطال النظر الى ابنه يغريه بجعدة ، زوج الحسن بن علي . انها لمتعةموفورة. ولا بأس ان يستمتع يزيد بالعاجل، ريثما ينعم بالآجل. والدنيا نهب لذاذات. ولكن أينأى عن ارينب ، وعليها شيد رجاءه ، ووقف بهجته ، وليس له ان يأنس بسواها من ذوات الرواء ؟... ان اباه ليريده على ما يعدو الطاقة . وادرك معاوية من تردد ابنه علته . قال يحثه على الاجابة : ارينب لك . فلن يقبل من ينافسك فيها ، وانا العهيد. اذا كتب للحسن ان يعيش ، فمن المحال ان تتم لنا الهناءة ، ووراءه في العراق مئة الف سيف . قد يجد من يزخرف له الغبن في ما تواضعنا عليه ، فينقضه ، ونجاولنا في قهره الصعاب . وربما غلبنا فيه على امرنا . فاسرع الى الكوفة ، وجاهد في سبيل ابيك . فلن يكون ابن علي خليفة لي ، وانت اولى منه بالمقام المنيف . ساعقد لك على ارينب والخلافة معاً . اين وثبتك الى اقتناص البغيتين الحافلتين بالشهد ، المتضوّعتين بشذا الياسمين ؟

ولم يكن من الطاعة بد . ابوه دعا ، وعليه ان يجيب . وامتطى جواده يزحف به الى الكوفة، وقد ختم على اربنب فؤاده. انه ليبغي جعدة ، ولكن روحه، عند قدمي اربنب، تسيل. فيا للسياسة، ما اظلمها في حكمها السقيم!... سيخدع ويخادع ، ويستميل اليه قلباً بكاذب الوعد ، ثم يسلوه . فهل كان يرضى عمن يمثل حياله هذا الدور الغدور ؟

ولكنها مشيئة ابيه الغلاّبة ، ولكنه بنيان دولة أ ّيدة . وحط رحاله في الكوفة ، اشعث ، اغبر ، تشفّ طلعته عن الجد والهمة . فهو عاشق متكلف، يتصنع الحب والشوق . وما حبه غير خدمة لمصلحة. ولو استطاع، الى اربنب سبيلاً، لكان موقفه منها موقف الطبع الصادق ، والحس الامين، ولانجلت عن اساريره هذه الغمرة،وقد اتعبته فيها رحالة مشدودة الاطناب، ثقيلة الاعنة . فكأنه اقبل لعقد ميثاق ببنود ، وفصول ، لا لاطلاق عاطفته على مداها، تغني تارة، وتتأوه طوراً، وتنضح بذخر الصبابة والمرح، والشجو والانين

ودرت الكوفة ان يزيد فيها . فعلاها استفهام،واقلقتها ريبة.ما يحمل ابن معاوية على هبوط قاعدة الهاشميين ؟... وانعقدت الحلقات تتبادل الرأي ، وتستوضح الحافز . وهاج في بعض الصدور حنين الى ابن الخليفة الفتى . وتحدثت نساء الكوفة عن يزيد التبع، المعشاق، واقاصيصه باتت لحمة مجالسهن وسداها . وشاق المنطويات على فضول ان يبصرن ابن امير المؤمنين ، ويعرفن الهائم، المتفاني غراماً.وسألن عن مقره، وعن مجال غدوته وروحته. فكن يقفن الى النوافذ والكوى، وثقوب النوافذ والكوى ، لينظرن منها اليه في اجتيازه الساحات والازقة . وتناقضت فيه آراؤهن . على ان فتوّته

شفعت فيه لدى اشدهن بغضاً له ومقتاً . فهو في عمر الزهر الفوّاح ، الوضاء الجلوة

واقبل على جعدة بنت الاشعث الكندي من يبلغها ان ليزيد هوى فيها. فاستعذبت النبأ ، وراقها ان تلقي اليه سمعها ، مستبشرة مستزيدة . ابن امير المؤمنين يرنو اليها . وتولاها دلّ جموح. فهي مشتهى من قال فيه معاوية انه فتى رضيّ ، ابيّ . ولم تمانع ، بعد لأي وتسويف ، في لقاء تجالس فيه يزيد. قالت : دعاني اليه ، فلن اخيب له امنية . واي عار على امرأة خليفة في لقاء ابن خليفة ، ولن تأثم ، وتهوي الى معصية ؟

وبدا لها يزيد على شوق لاهب. قال : صدق من حدثنا عنك ، يا جعدة. فانك لفي قسامة وارفة تعلو بلجة الصبح اليفيع . ياقوتة متأججة اللألاء . فما اشهى ، وما اغلى !

ويزيد شاعر الطبع السمح . تنقاد اليه المعاني على رشاقة ومسالة . وما يكدح في استلالها . وخضب الخجل وجنتي جعدة . قالت وهي في اطراقة المرتبك في ما أثقل به من اعباء المديح : بابي انت وامي ، لاح لك مني ما لا اراني في بعضه . ولست ادري أتمزح ، أم تستهين ؟

فقال منكراً عليها ارتيابها باعجابه بوسامتها : والله ، لست بالخاتل ، ولا الهازل . جاءني عنك انك في عنفوان الروعة ، فراقني ان اقع على الحسن في متناهي امده . واذا ما يختلج في عيني، يكسف ما طنّ في اذني . دمية لعوب ، وغادة طروب . ان الحسن بن علي لفي متعة من دنياه تعصمه في دينه . ليت لي بعض هذه النعمة ، اتقي بها جفاف حظي المنكود !

فصاحت متعجبة: أتنعى نفسك، يا ابن معاوية، والخلافة في عنق ابيك،

والسيادة في الاسلام معقود لكم لواؤها، والعالم من اقصاه حتى اقصاه يؤدي اليكم جزية الطاعة ؟... ربي ، هذا كفر وجشع . رفقاً اللهم بعبادك الطائعين !

فانطلقت منه ضحكة كئيبة ، وقال بصوت حزين : ما اسرعك في الارتياب بما يطرق اذنيك ، يا جعدة. والله ، ما أرائي ، ولا اداجي . ففي نفسي من السقم ، والملل ، ما لو وقع على جبل لانهار . لا ، لست من دنياي على غبطة ، وانا فيها غريب ، كأني في موحش العزلة. أتبصرين بذاك الحشد ، بباب ابي ، وبتلك النعمة الدهاق يغرق فيها معاوية ؟... يميناً ، اني من كل ما حولي لفي صحراء جديب . بحثت ، فلم اجد . وامعنت في الطواف ، فما كنت لاهتدي !

فراعها فيه هذا التبرم بالحياة . فتى في مستهل الشباب يزهد في دنياه . ومن هو ؟... ابن معاوية بن ابي سفيان ، سيد البدو والحضر . من تقبض يمناه على دولة طأطأ لها الجبابرة هاماتهم صاغرين. وعادت جعدة الى ارتباكها ، وقد رانت عليها حيرة كابية . ماذا تسمع ؟... يزيد يشكو زمنه ، وليس في المسلمين من يلهو كيزيد ، وهو يقضي ايامه في الصيد والقنص ، ويحسو الخمرة ، ويشره الى الحسان . اذن اين السعادة ان تكن لا توالي من بات يحسده على نعمته كل ذي نعمة ؟

والتفتت جعدة الى نفسها . وظهر لها مما هي فيه انها تتعادل ويزيد في جفوة الزمن. فهي مثله، لا تقيم من يومها على مسرة . وفيما تعجب من يزيد كيف ينعى نفسه ، ساورها نعي نفسها . كانت الخلافة في دارها ، فنأت عنها . ولمع السؤدد في يمين الحسن بن علي ، زوجها ، فما لبث ان خبا وهج

النور . ومشى الناس في طاعة هذا الزوج، واذا بهم يميلون عنه ، وينا كرونه.
وهي ، هي ، غير مطمئنة الى كهولة الحسن ، وقد قعدت به الهمة ، وفارقه الشباب . واستيقظت فيها انوثتها المخصاب ، فوجمت. ليست من دهرها على نصفة . وارتفعت عيناها الى يزيد تتأملانه ، فاذا به على نضرة . شباب ذو مضاء . وعين حادة النظر ، سريعة اللفتة . ألا يكون اهتدى اليها ، وهو يحدثها بكآبته ، وبوحشته ؟... قال يزيد : أتلومين ، وانا احسد الحسن فيك ؟... والله ، لو كنت موقناً ان لي منك نصيباً، لوقفت عليك شبابي، ومقامي ، ولعدلت بك الدنيا والآخرة !

فهزها ودفعها الى القول بحدة : أتكفر ، يا ابن معاوية ؟

ـ لا ، والله ، ما انا بالكفور . الا اني ادركت بك وطري ، وبلغت مرجاي . ولكن ... ولكن لا امل لي بك ، يا جعدة !

ورقب ما تعلن . فلم تتحرك لها شفة . قال : أأستطيع ان اعقد عليك المنى ؟... الشباب عندي ، والمال عندي ، والجاه عندي . فما نبا عن الحسن، موفور في يزيد . ما قولك اذا ناديت بالعصيان، وبالهجران ؟

فلم تعترض، ولم تؤيد ، بل اقامت في موقف غلب عليه التفكير . قال يزيد ، وقد وضح له من صمتها انها راضية عما تسمع : أيقوى الحسن على نفحك بجفنات الذهب ؟... لا والله ، فهو قاصر عن العطية . واذا استطاع فلن يفعل . اما انا ، وقد نزلت من نفسي منزلة الاكبار، فحلال لك مالي، وحالي . فماذا تقولين؟

فغصت بريقها . قال وقد امتدت يده الى جيبه وخرجت بصرة وارمة: اليك بهذا المال . فهو دون شأوك . على انك ، اذا اجبتني الى رغبتي فيك،

نلت مني اضعافه . فما يزيد بالجعد اليد ، كما تعلمين !

ونهض اليها يلقي بين يديها صرة المال . فتمتمت شفتاها باضطراب : لا ، لا ، يا يزيد !

قال يتدفق بالكلام المعسول ، اثخاناً في استمالتها اليه : هذا بعض ما ستنالين من يزيد . واليك بهذه الدمالج . فهي دون معصمك اشراقاً . وليس لي ، مهما بالغت في البذل ، ان اعادل في الهدية مكانتك السامقة !

وانتزع من عبه لفة تنطوي على دمالج من الذهب ، تولى بنفسه تزيين معصمي جعدة بها . فاشتعلت خجلاً ، كما طفحت نفسها مرحاً . وشعرت بيده تلامس يدها ، فالتهبت وجداً ، ورمت يزيد بنظرة تسيل حباً . قال: بيت مال الخلافة باجمعه لك ، وفوق بيت المال ابن الخليفة يزيد !

فارتعشت هياماً . ملك قلبها باريحيته ، وبكياسته ، وشبابه . قال وهو ماضٍ الى هدفه : عليك الآن بالخلاص من الحسن . وليس لاحد ان يدري أن لي في سلخك من زوجك يداً !

فارتجف قلبها ، وهو يحدثها بالقضاء على زوجها ، وانقلبت ملامحها . عهد ابيه طافح بالاغتيال الخفيّ . فكل من نقم عليه معاوية ، وما استطاع فيه كفاحاً ، سقاه السم . أيحاول يزيد ان يحثها على قتل زوجها ، الحسن ، بسمّ معاوية ؟... قالت بارتياع : أتنجو منه ؟... وكيف ؟

ــ باختطاف انفاسه !

فاعولت بوجل : لا !

وكادت ترميه بالمال وبالدمالج . فابتسم ، وقال: أتخشين ؟... ولكنك لا تدرين اي علاج نحاول فيه . سندسّ له السم فيموت ، دون ان يشعر

الناس بانه ضحية !

فعادت الى اعوالها بنبرة امضى : لا ، لا !

فقال يزيد بلهجة الآمر المطاع : لا تعاندي . يزيد يرجح الحسن في سلطانه ونضرته . واريد ان تعلمي ان قصر الخضراء بانتظارك ، وان لك من خزانة ابي مئة الف درهم !

فملكها الهلع ، ولم تقوَ على جواب . هزّها يزيد حتى باتت في بحران أرتج به عليها . فهي جاثة بمقعدها لا تطيق كلاماً ، ولا حراكا . ولم تكن تطيعها عيناها في لفتة الى يزيد . انها لفي ذهول وغفلة . وغاصت في عرقها البارد ، كأنها في حوض . فقال ابن معاوية : على مَ اجمعت ؟

على ماذا ؟... وهي حين ترى يزيد ، تكره الحسن . وعندما تلوح لها الجريمة ، تكره يزيد . قال : ألا تكفيك مئة الف درهم تنالينها من هذه اليد ؟... هذا طمع منكر ، يا ابنة عمي . لا تنسي ان يزيد مضمون لك . وهو في قبضتك قبل تلك البدر المتهادية الى مثواك !

فتمتمت جازعة ، مرتعدة : ولكني لن اقتل الحسن !

فصاح بها يحرضها على الفتك الذريع : اقتليه ، ودمه في عنقي . انت في عنفوان الفتوّة ، وهو على عتبة الخمسين . وقد يكون اجتازها . وما النفع من ابن خمسين ، يا جعدة ؟... قولي ، بربك ، ألا تبيعينه بي ؟... لن تكوني مغبونة الصفقة في يزيد !

وابتسم . والموقف يدعوه الى البسمة . فهو في تمثيل دور ذي خطر ، اضحى به لا يقوى على الرجعة . فعليه ان يستميل جعدة بكل ما تملك يده ، ويتسع له بيانه ، والا اخفق في ناحيتين ، وكتبت له الفضيحة في المسلمين .

فتجفوه جعدة، ويعيش الحسن ، وقد تذيع ابنة الاشعث الكندي سره، فتنزع منه ، ومن ابيه ، ثقة قومها . فيتناءى عنها الاتباع . ولا يجدان ، حتى في الحاشية ، من يؤمن بهما في وعد ، ولا يسايرهما في عهد . ورقب يزيد ان تفوّه جعدة بما ينضو عن خاطرها، وتنجلي به شهوتها. فتكلمت بصوت ينوء بالهمس ، كأن انفاسها تتقطع ، وهي حيال دسيسة جارفة تميد لها الغبراء ، وينكسف وجه الشمس : واذا دروا بي ، فما يكون ؟

فراقه استيضاحها . ان فيه مسكة من رضى . فما دامت تسأل عما يطاولها في الهتيكة، فلبست على شحّ بدم بعلها. قال يزيد بارتياح، وقد احس بان الطبخة اوشكت ان تنضج : ومن يدري بك ؟... انت في منعة من الظنة. فالتهمة لن تجاولك، بل تساور من تجمعهم الكوفة، على بكرة ابيهم، وسمعتك في معقل حريز . لا تبالي، ولا تخشي. غدك يدعوك الى نعمة ميلاء الكفة .قصر الخضراء بجلاله يرقب اشراقك فيه. فاي دكنة هنا، في الكوفة، تتغلفين بها ؟

فزاد في شوقها الى الزيغان . الشباب ، والمال ، والجد ، في خدمتها . فما عليها لو حاولت .قد تفلح وتنجو من محبس تغيب فيه. وكيفما تقلبت، فلا تقع على سوى قضبان من حديد تطوّقها، وتسدّ عليها رحبة الصفاء. قالت وما انفكت تحاذر : أينقذني ابوك من الهلكة اذا شعر الحسن بكيدي ؟

فايقن انها باتت له ، وما يقف بها عن الوثبة غير انتفاضات من رهبة . قال وفي لسانه مفرش الامان : أتكونين من غوث معاوية على ريبة ؟... انت تسددين سهماً ناجراً الى كبد عدوه . فهل ظهر ممن يتبوأ ، في دمشق، سدة الخلافة انه يتعامى عن النصير ؟... لتغرق عيناك في الدم ، ومعاوية

كفيل بان يجلوها لك على بياض وطهر . ليس ، في من تعرفين ، كمعاوية حرصاً على الاعوان الصادقين !

فجمدت عليه باصرتاها ، كأنها لا تبوح على شك في ما يعالنها . قالت تستزيده توكيداً : مئة الف درهم ؟... وانت ؟... ورعاية ابيك ؟

ــ وقصر الخضراء ، والخلافة ، واموال المسلمين !

واغرقها في النعمة حتى اعماها . قالت وهي تطرق على غبطة ماجت بها نفسها : غلبتني على امري ، يا يزيد . لا حول ، ولا قوة ، الا بالله !

فاستفهم بشدة : هل رضيت ، وعاهدت على العمل بما تدعو اليه هناءتنا ؟

فجمجمت ، وفي وجنتيها حمرة الخجل ، وعيناها ما تبوحان في اطراقهما: رضيت !

فقال مجاهداً في اقناعها بشغفه بها : فدتك نفسي . شفيت نهمة يزيد . بوسعي الآن ان ارقد خالي البال . اقلقتني زمناً ، يا جعدة !

وتفنن في التغني بشغفه بها ، وقال : بقي ان نذلل العقبة ليجمع ربك الشتيتين . فالكوفة ليست مقر من ترتع في هذا البهاء الثري !

قالت ، وقد امست له بجبة قلبها ، يجتذبها اليه شبابه ، ومقامه ، وخيره : اعجل في الضربة . كن قرير العين !

فقال بابتسامة تغلي بالمنى السمان : يا لساعة تستظلين فيها كنف يزيد ، وتوثقك به متعة حلال . فلم اجد اطيب من الحب بعد شقاء ووعورة . والنفس لا ترضى بالموفور النوال !

وزخرف وتملق . هذا ابن ابيه . وتوارت وهو على بسطة من الاعجاب بموهبته في الاغراء . لقد وفق حيث لم يكن يرجو فلاحاً . فالحسن بن علي

اضحى في ذمة الله . وابتسم يزيد . فاحس بانفاس اريتب بنت اسحق تهيم في سمعه ، وتحبوه الدفء . وانطلق في ازقة الكوفة على نشوة مسماح . ابوه سيجبئه بمن اختمرت بها مهجته ، ونضج فؤاده . فكان يخاطب جعدة، وهو يتمثل اريتب . ابنة الاشعث الكندي ليست مبتغاه ، ولكنها طريقه الى شهوته . هي المعبر الى الضالة والمنية

واعتزم براح الكوفة . لتنظم جعدة مكيدتها ، وهو عنها بعيد الدار . فالبقاء في قاعدة الهاشميين يفضح زوجة الحسن في خدعتها . وعاد فلقيها على خلوة ، وردد ما ينتوي . لتضرب ضربتها ، وهو لها . وقصر الخضراء مفتوح الباب للترحيب بها . ما ان يغمض الحسن عينيه ، وينثوي برمسه ، حتى يطل يزيد بجاهه وشبابه ، فيطوي على جيدها ساعديه

وكانت مواعد ، ووعود . ودس ابن معاوية في يد جعدة السم . وانصرف ، وقد ذاع في الناس أن اباه يعدّه لولاية الرافدين ، ولن يلقى في قادته من يثق به كأبنه ، ذوب كبده . وما اطلع ، على جلوسه الى جعدة، غير امرأة من الامويين ، عُقد عليها لسيد من اقطاب الكوفة . فكانت همزة الوصل بين من تشاكيا لاعج الولوع . مهدت الطريق ، وذللت الحائل . وجهل ، حتى الخدم انفسهم ، ما يُنسج في خفية ، ويحاك في ليل . فتراءى لهم ، في جعدة ، امرأة من نساء الكوفة ، تقبل لزيارة الاموية ، نسيبة يزيد

والاموية نفسها لم تحضر مجالس الصبيين ، وهما ابداً على خلوة . وجلّ ما رسب ، في معتقدها ، ان ابن معاوية يهوى زوج الحسن بن علي ، ويروم معالنتها بمكنون حسه . وهو ما نشر في مسمعها يزيد . فحملتها اليه ، والصداقة بينهما وطيد ركيزة ، وعضدته في اقناعها بايثار ابن معاوية ، على

ابن علي . ولم تكن جعدة بحاجة الى من يطري لها محمدة الشباب ، ويزدري بعلالة الكهولة ، وهي منهما على خبرة ، وعبرة . فاستنشقت في يزيد عرف الفتوّة قبل ان تراه . وشعرت بصبوة اليه في طائر صيته ، ومستباح هواه . وهو ما ينفك ، في خمائل دمشق ، يروز البهاء ويستبيه ، ويجرع الخمر الخابا صارخة لمندلع الجمال

وانفتل يزيد الى دمشق على بشر وغضارة ، يرقب من معاوية ان يبرّ في الوعد . حقق له مشتهاه في جعدة ، فليحقق له مشتهاه في ارينب . صفقة بصفقة ، وليس من مغبون

وخليفة دمشق اقام بانتظار يزيد . وايقن اليقين كله ان الفتى سيعود من الرحلة على راجح النجح ، ولن تلمّ به خيبة . وماذا يقعد به عن الفوز بامرأة ، وله المقام ، والشباب ، والمال ، وهي جلّ ما تنهد اليه انثى ؟

وكان لقاء مفعم الشوق لقاء يزيد ومعاوية . شوق الاب الى الابن ، وشوق الفضول القلق ، الى النبأ الجلي الصفحة . ماذا ؟... واتقد الاستفهام في الاعين الاربع ، وقد عكسته عليها الحنايا . ماذا كان من معاوية في ارينب ، وماذا كان من يزيد في جعدة ؟

ووقف كل من صاحبه ينتظر بيّن الافصاح . وتكلم يزيد فقال بغبطة وارفة : اني لانعاه اليك . قليلا ويلفظ رئتيه . فقد حبكت له كفناً يدرج فيه على سكينة . وجعدة على قدر المهمة . فعاهدتني على الخلاص منه !

فخفق فؤاد معاوية خفقة المسرة التياهة . ادرك مبغاه . وشاقه ان يزداد بياناً واحساساً بما تترنح به اعطافه من بشرى ، فاستفهم : وفي مقابل ماذا اوثقتها بالعهد الميمون البنود ؟

ـ في مقابل مئة الف درهم من اموال المسلمين !

وابتسم يزيد ابتسامة ماكرة انطبعت اختها على شفتي معاوية. فالرجلان على وحدة في الغريزة والميل. انهما ليشنانها غارات ماحية. ولكن بسيف غير سيفهما، وباموال موقوفة على المؤمنين. قال معاوية، وقد سرّه هذا الدهاء في ابنه، ومناط مرجاته: ثم في مقابل ماذا، يا يزيد؟

وعلت ضحكتهما. هذا مجال الخداع. وانبسطت الضحكتان على خبث مديد. فقال الابن: في مقابل ما يضمن فوز امير المؤمنين!

ـ في مقابل شبابك ؟... انها لحمقاء زوج الحسن. لن تظفر منك بقلامة. أأعقد لك على خائنة ؟... ولكنك قد تشابه عندها ابن علي. وابوك ضنين بك. فليس يرضى بان يطرحك بين يدي من تبيعك كالسلعة. عدا ان اريتب بالانتظار!

والى هذا المحجّ يطمع يزيد في الوصول. واشرق وجهه، وابوه يتلفظ باسم الفتاة الغيداء. ونضر شبابه، وترجج عوده، ووثب قلبه الى شفتيه، فقال: وماذا كان من ابي في فتاه؟

فاجاب معاوية يزجي الطمأنينة باستعلاء: الامر يجري كما يشتهي يزيد. أريتب في قبضتنا. ما ان تفتك جعدة بالحسن بن علي، حتى تحتفل دمشق بزفاف ابنة اسحق اليك. خذها من ناجلك. فان راحتيك منها لعلى جمام. ألتمس، في هذه الدولة، امراً ونعود منه على خزية ؟... ثق بحكمة معاوية، وطول باعه في تدبير الامور، يا بهجة قلب ابيك!

ولم يكن يبالي الجمع بين يزيد واريتب، كما يحفل بالنجاة من شبح الحسن البغيض. فهو يتطيّر فرقاً من كل خصم مزاحم، وخصوصاً ان يكن هذا

الخصم من آل البيت . فالحسن بن علي يتلقه في تحدره من ابنة الرسول . فاطمة امه ، ومحمد بن عبد الله جده ، وعلي ابوه . وهذا النسب الراسخ في الكرم ، والنبل ، يكتب الغلبة للراتع في بهرته ، المخضب بطيبه . ومعاوية ، وقد ذاق ابوه مرارة الهزيمة في مجاهدة آل البيت ، يمضه ان يلقى الهزيمة ، وآل البيت في الذروة الشاهقة من المجد ، وبعد الصوت . فما اكتفى بان يبايعه الحسن ، بل شدد في ان يتقي الخطر المهدد ، فينتزع حياة الحسن من جذعها ، ولا يبقى من ينذر بالداهية ، ويثير الذعر

وجعدة وحدها تكتب له الفوز . فينطفىء الحسن كشمعة كسفتها نسمة رعناء ، دون ان يقف على سر انطفائه احد . وجعدة آلة لا تتحرك ان لم يكن يزيد زيتها ووقودها . ولقد ظاهرت دمشق باغراء يزيد ، لا ببريق اموال معاوية . فالمال كان مهمازاً ، لا حافزاً . فالحافز هيام جعدة بمكانة ابن الخليفة في شبابه ، وفي مرتبته

وبلغ معاوية وطره . وما يكترث ، وقد ادرك المراد ، لبذل الهمة في زفاف اريتب الى يزيد . فان يزيد يلهو . واريتب لن تطير ، وهي في متناول اليد . فليس لمعاوية الا ان يشير كي تبيت الفتاة في عصمة يزيد . بل هو شاء ان يسكت ، عن طلبة ابنه ، ريثما تدس " جعدة للحسن السم النقيع . والا ، ان هي اقامت ، من الخدعة ، على وضح ، فسدت الحيلة ، وكتبت الحياة للحسن بن علي ، وانتقلت اليه بعد معاوية خلافة المسلمين . فيضيع على الامويين كل مجهود في زعامة الدولة الناشئة ، الخضلة . وليس معاوية بالراغب في هذا المصير الكئيب

وانتظر . ودعا يزيد الى التريث وكتمان السر . قال : اريتب منك

قلادة في النحر . فلا تقلق. سأجرّها اليك بكلمة، بنظرة . فلن تفلت منك.
الا ان الحكمة تفرض علينا امتلاك العاطفة،وكظم الشعور. فلنكن حكماء.
اذا نمي الى جعدة انك مماذق ، في هواها، اعرضت عنك، وابقت على الحسن انتقاماً منا . وبقاء الحسن حياً يذهب بسلطاننا ، ويحرمك من بعدي الخلافة.
فالحذر ، ثم الحذر ، يا يزيد . اريتب ليست نوراً يلمع ثم يخبو ، ولا غمامة تتبدد وتذوب !

وصبر يزيد على سورة هواه ، وغليان قلبه . فالحكمة ، في سياسة الناس، تفرض ادّراع الجلد المنيع . واحرجه الحب، الا انه ما انتقض على وصية ابيه، مع كل ما عانى من ألم، وما ساوره من قلق تهي بهما سعة الحلم.
فهو عرضة ابداً لهياج الخاطر ، وارتباك الضمير . يثور فيه حسه المكدود، ويضيق به قصر الخضراء على فسحته ، بل تضيق به دولة ابيه على متناهي بسطتها . ويكره دمشق ، وينفر منها ، مع قربه ممن تربع بسويدائه .
ولكن اي قرب قصيّ هو هذا الاحتجاب الصفيق؟... ليته كان بعداً سحيقاً، اذاً للطّف نأيه امتناعه . اما ان يكون يزيد، على خطوة ممن يهوى ، ولا سبيل له اليها ، فذلك هو المقعد المقيم

وطار به هواه ، البرم بدنياه ، الى تدمر ، يرتمي في احضان اخواله. فما طاب له فيها المقام . فعدل عنها الى حمص يتيه في سهولها في اصطياد الظباء.
فما خفف القنص من حنق اعصابه . فوثب الى دير موران ، في الغوطة ، ينغمس في الخمر، وفي النساء. فما نجا من طيف أرينب، وقد ساد نهيته ولبه.
وتلظى فيه كمده . وبدت له الجهامة حتى في اصوات المغنين ، المتصاعدة حوله كالتسابيح ، وفي وجوه الحسان ، على روائها ووسامتها . ودرى رفاقه

جميعاً انه في غمة كاسفة . وزادتهم حرقة زفراته يقيناً بانه ملسوع .

فاستوضحوه امره . فرفت في شفتيه بسمة باكية. وصاح بالمغنين ،والكأس تتوهج في يده : الا اطربوا ، اطربوا . ما عاش فيها الا الخليّ !

وانحدرت في جوفه كؤوس على كؤوس، وتفاقم فيه عبوسه. واهاب بالمطربين الى اناشيد الهوى الجامح ، اليؤوس . فاكثروا حتى كادت القلوب تُعلَّف بالسواد، لفرط لهفتها . وما غاب عن احد ان يزيد عاشق غير هاني. ولكن من يهوى يزيد ، فعزّ عليه ، ورماه بالكربة ؟... ان النساء ليردن زرافات على ابن معاوية، ملتمسات منه نظرة . فمن استعصت منهن على قبلة الابصار والاشواق ؟

وسئل يزيد ، فما اجاب. ونام السمّار في سكرتهم، وبقي ابن امير المؤمنين على يقظة وسهاد ،لا يأذن له هواه في غمضة. ووقف على احدى الشرفات يناجي البدر المفتوح الاجفان ، والنجوم الساهرة ، ويستجليها انجاسها في ارقها : هل انت عاشقة مثلي ؟

وطال مقامه في الغوطة . فهي احب اليه من دمشق الطافحة بطيب أرينب ، وخيالها . واعتكف على لهوه كي ينسى ، فلم ينسَ . وساءل نفسه مراراً : متى تفتك جعدة بالحسن، فادفع عني هذا العناء الجتاح ؟

وصبر مكرهاً . فليس من الصبر بد . ودلف الى دمشق يتقلى بنارها ، ويتجسس اخبار الكوفة . ماذا وقع فيها من جليل ؟... وتواردت عليه الخواطر الدهم ، تزيد في فائر الالم ، ومستعصي القلق . قد تكون جعدة عدلت عن التضحية لاجله بالحسن . وقد تكون افتضحت في سعيها ، فدرى بها ابن علي ، واقتص منها اقتصاصاً زاجراً ، اضحت به عبرة

وخالجه العود الى الكوفة ، يستبحث ويستقصي . فقد سدت عليه في هواه الابواب . واذا انباء الكوفة تحمل الخبر المرصود . قضى الحسن بن علي مسموماً . فماج الاسلام ومادت دولته . ابن بنت الرسول يلقى حتفه. ورسخ في الاذهان ان معاوية قاتله . فتعالت الاصوات تلعن ابن هند ، في خداعه وختله. واستدارت الكوفة حول مهد ابن علي ،وقد سمعته يقول وهو يجود بالحشاشة : والله ، ما عرفت جرعة من السم رضتني واسقمتني كهذه الجرعة ، مع كل جهد بذله اعدائي في تسميمي . فقد لفظت بها كبدي حتى لاح لي منها اني أقلبها بعود في يميني !

وغفر. فما اتهم احداً. وقد حال نبله التليد دون انتقامه من ضعاف ،اغراهم به التواء في الطبع ، ونذالة في الفطرة. وتلقى قصر الخضراء ، في دمشق ، نبأ الفاجعة بالتكبير . هذه بشرى تملأ الصدور ابتهاجاً ، وتوطد الامل الرجراج . فالخصم العنيد ذوى ، واضحى معاوية سيد المسلمين الاوحد . وتمايل يزيد طرباً . ودخل على ابيه بلا استئذان يقول ، وكل ما فيه على استبشار وجذل : ادام الله بقاء امير المؤمنين . طالت دوحته ، وذهبت جذورها في الارض عمقاً وامتداداً ، وصانتها القدرة من كل ريح عاتية ، تعصف بها ، وتغمز ساقها. ولم يبق عرضة لمهب الزمهرير سوى فتاك ، يزيد، فاستر عريه ، لينعم قلبه بالدفء . ان هو الا صنيعتك ، من قبل ، ومن بعد !

فضحك معاوية على مسرة مترعة ، وقال : ما نسيناك ، يا يزيد. أرينب على أهبة . غداً سأخاطب لك فيها اباها ، وتنام مستريح الضمير !

ولكن ارينب ليست في دمشق . فقد برحتها الى العراق يصحبها ابوها.

وما حملها على الرحلة ؟... واستوضح معاوية . فسقط اليه ما ملأه كربة وهماً . أرينب زفت الى ابن عمها عبدالله بن سلام . وناح قصر الخضراء بعد البسمة. وتأججت في يزيد غضبة الاخفاق. فانزوى في حجرته ناقماً على ابيه. اهمله ابوه لارواء مطامعه. واضاع عليه بهجة زمنه، وسلوى شبابه. ومعاوية خجل من ابنه، وقد فجعه بهواه . فبات لا يدري كيف يعيد اليه اشراقه ، ومرحه ، وهو يرى فيه وسادة الامل ، ودعامة الغد . فاذا اكتأب يزيد ، فقد اكتأبت الدنى ، وانتحبت الافلاك !

٧

جعدة في الكوفة دامعة العين . تبكي الحسن المسجّى امامها وترثيه .
فهو ، في مقولها ، بسمة الجنة. الا انه ، بين حناياها ، عقبة زالت من الطريق

وفيما ترتعش في عينها الدمعة ، يحوم خاطرها على يزيد . هي باكية مستبشرة . قضى الحسن ، ليفسح لها في نعيم خميل. ستقيم في قصر الخضراء على طلاقة وغضارة ، حولها يزيد ، وابو يزيد . والمسلمون طوع يمينها ، يؤدون لها الطاعة ، وينحنون في خدمتها . والمال ملء جيوبها . انها منه لعلى تلال عارمة . والدر والياقوت في عصابتها ، وقلادتها ، ومعصميها ، واناملها ، ومهوى ساقيها . والقوة عنوان لها . نجت من مهبط الغصة ، وتسنمت ذروة الرفاهة الوسنى . واي فضلة من دعة تمسك بها في عقلة الحسن ؟... انها في داره لعلى نواح وانين . تتشهّى ، ولا تبلغ شهوة ، حتى ولا علالة من رجاء

ودفنت الحسن غير آسفة على نواه . خاطت له اكفانه ، وادرجته فيها . وطوته في الرمس لا تكترث لنبل اثيل ، ولا لرفعة منتمى . فالنفرة ، من الحياة الجافية ، مالت بها الى ابتغاء العيش الرغيد

ورقبت ان ترد عليها ، من دمشق ، رسائل التودد والزلفى . انها لحقيقة بالشكر والثناء ، وقد ازاحت الحائل . بيد ان دمشق وجمت ، واطرقت حيال جعدة. فما ذكرتها حتى بمساءة تدل على ان هذه المجاهدة ، المطواع ، خطرت في بال . وقلقت جعدة. وساورتها الظنون . هل ضحك منها معاوية ويزيد؟

واوفدت الى دمشق صديقها الاموية ، من مهدت ليزيد الى خلوات الاستهواء ، تدقّ باب معاوية ، وتستوضح السلوّ . ماذا جرى ؟.. ومعاوية رحب بالاموية ، ابنة عمه ، على مدة ذراعيه : مرحباً بالاخلاص المصفّى ، و بالوفاء الرويّ !

وجامل. ولاطف .قالت بواضح الاهتمام : جئت احدث امير المؤمنين ، دام بقاؤه سنداً للدين والدنيا ، عن امرأة كان لها منكم وعد وزين !

فتجاهل معاوية ، واستنبأ بدهش : واية امرأة تعنين ، يا ابنة عمي ؟... والله ، لم ينضح مقولي بوعد نمت فيه عن الانجاز !

وابتسم ابتسامة حلوة ، من تلك الابتسامات الطافحة بالاغراء ، القاطعة على الراغبين ، في نفث السمّ ، مجال النهش والايلام . فاستوضحت الاموية ، تستكبر التناسي الكنود : هل نسي امير المؤمنين جعدة ، بنت الاشعث ابن قيس الكندي ؟

ــ جعدة زوج الحسن ؟... أتلومني وقد سها عني ان اعزيها بابن فاطمة؟...والله، انها على جمام الحق في لومي. لست ادري كيف ندّ عني...

فتجرأت على مقاطعته بقولها اللاسع : ليست تميل الى التعزية ، يا امير المؤمنين !

وهو موقن كل اليقين انها لا تطمع في التعزية ،بل في ماتع الجزاء . فانها لفي حنين الى قصر الخضراء تتصدره على عريض فخامة ، والى يزيد ترتع في قلبه، وفي حبه . الا انه ودّ ان يقيم مما يعلم على جهل اغلف . فقال ممعناً في ابداء التجاهل : وما تبغي اذاً ؟

ــ انها لتطالب بانجاز وعد يزيد !

ـ وعد يزيد ، يا ابنة عمي ، وما هو ؟... لست على إلمام بمطاويه. اي وعد عالنها به يزيد ؟

وبالغ في ابداء الجهل . ما يدري ، وقد خلا ذهنه مما تنفث الاموية ، اللابدة بالكوفة ، في سمعه . واني يتدخل في شؤون يزيد ، وليس له ان ينوب فيها عن ابنه ؟... ربما عاهد يزيد امرأة الحسن بن علي على الزواج ، فهل لمعاوية ان ينجز ما قطع ولده ، فيتزوج جعدة ؟... الا انه ودّ ان يعلم . ربما اتفق له الانجاز في مدى المواثم ، الميسور . قالت النسيبة الاموية ، وقد رانت عليها الحيرة تجاه هذا الفرار من الثانية : لم توضح جعدة العهد المقطوع . وكل ما افضت به ان ثمة تعلة لا ترتضي الغفلة عنها !

فظل التجاهل يتمطى في فم معاوية ، وعينيه ، ويديه . ونفض طوقه من كل دراية بما تتحدث به هذه المقبلة من بلاد الرافدين . ولو كان من صلة له بالامر ، لهفا الى ارضاء الشاكية . ولكن لماذا لا تهرع القريبة الاموية الى ابنه ، فتباحثه في ما جبت فيه ، وليس من عقد الصفقة ، كمن يلمّ ببعض اطرافها ؟ . . . واستجلى برغبة الجانح الى النصفة : وهل خاطبت في الامر يزيد ؟... احسبه كأبيه ، لا يقف عن ابرام عهد قطع !

فاشتدت الحيرة بالاموية ، حتى باتت لا تطيق لوك الكلام . أيخاتل معاوية ، ام ينطق بالراهن ؟... قالت وهي تشكّ في قدرتها على الابانة حيال هذا الفيض من الالتباس : جئت اليك كي تدعوه الى الوفاء . جعدة لم تطلب مني استنجاز يزيد ما وعد ، بل دفعتني اليك لتذكير يزيد بالوعد !

فما برح يتبرأ مما يقع في اذنه . قال : انك لتحدثينني بالالغاز ، يا ابنة عمي . اين انا مما في صدر ابني ؟... على اني سأدعو يزيد لمساقطته الكلام على

مسمعك . فقد يكون افضى بما غاب عن ابيه !

ونادى حاجبه يحثه على دعوة يزيد. قال: ليسرع.ان بي اليه حاجة ملحة. فلا تخطئه . جئني به حيث يكون !

وسأل الاموية عن موقف الكوفة بعد مقتل الحسن . قالت : الناس مفطورون على النسيان ، يا امير المؤمنين . والدنيا لمن اشرق نجمه ، لا لمن خبا نوره . ابقاك الله في عزّ مصون !

فسرّه ما يسمع منها ، واستزادها يقول : وهل خرس الناقمون ؟

— خرسوا ، يا امير المؤمنين . وما يسعهم ان يفعلوا ، وقد انهار العلم ، وانطوى اللواء ؟... ثم هم ذوو ألسنة نضاضة ، اكثر منهم ذوي سيوف قاطعة . وهل يرجى ممن خذلوا علياً ، ان ينصروا ابن علي ؟

فقال ممازحاً : انت تتكلمين كاموية ، يا ابنة عمي . واريد ان تخاطبيني كأنك كوفية خالصة !

فقالت بشدة تنفي بها عنها الممالأة : لا والله، يا امير المؤمنين، ما عرضت لي المصانعة في بال . هدأت في القوم سورة الكيد . فكل ما يتوقون اليه ان يعيشوا آمنين !

واستأذن يزيد . وانحنى في حضرة ابيه يحيي بالخشوع المألوف في ايوان معاوية . فقال ابو عبد الرحمن ، وهو يشير الى الاموية الجالسة في اسفل السدة : أتعرف هذه الطلعة الميمونة ، يا يزيد ؟

فالتفت يزيد . وما لاحت له المرأة حتى هفا اليها يقول : وكيف لا اعرفها ، يا امير المؤمنين، وهي منا، وذات يد علينا؟... كانت لي في الكوفة خير معين !

وتجهم وهو يذكر الكوفة. فان في الكوفة جعدة. وجعدة حالت دون ظفره بارينب . فبرح دمشق الى زوج الحسن يغريها بابن علي ، مزاحم ابيه على الخلافة. وفيما ينصب الاحبولة، افلتت منه ارينب . ووقف، وقد اوشك ان يدنو من الاموية . مرآها كان حافزاً موجعاً لتذكيره بخيبته العضوض .

فقال معاوية : ابنة عمنا مقبلة من الكوفة لمحادثتي في وعد صارحنا به جعدة ، ولم ننجزه . فاي وعد هو ؟... ما سمعتك تحدثني بوعد اعلنت ، يا يزيد !

وانكر ما اسمعه اباه ابنه اثر عودته من الكوفة . وما تجرأ يزيد على دحض بيان ابيه ، مع شديد حنقه على هذا النائم عن فلذة كبده، الغائرة في الضنى . قال : سها عني ابلاغ امير المؤمنين ان لجعدة من بيت مال المسلمين مئة الف درهم . نفحتها منها بخمسة وعشرين الفاً ، ووعدتها بان اؤدي اليها، فور بلوغي دمشق، ما بقي. ولست ادري ما عاقني، حتى هذا الموعد، عن الوفاء!

فمال معاوية على نسيبته الاموية يقول بخبث تقمص البراءة : لم يكن لجعدة ان تكلفك هذه المشقة ، يا ابنة عمي . فما دام يزيد وعدها بالمال ، واقام مما وعد على نسيان ، فلم يكن لها الا ان تكتب اليه في ما قعد عنه . اخطأت في ايفادك الينا لمال تقاعسنا عنها فيه . واصابت وقد آنسنا بك ، بعد طول قطيعة . فمرحباً بالشمل يحبو الى الشام ، وينتظم له عقد كيل !

فضاعت بين هذا الحفل من المماكرة ، والمالأة . وباتت ترجو الخلاص بنفسها من الورطة المحكمة السدود . قالت : ما جئت دمشق وحدي ، يا امير المؤمنين . فان زوجي لرفيقي اليها ، وله فيها شؤون . وابصرتني جعدة في القافلة ، فدلفت اليّ تكلفني ان احدثك عنها ، كي يلتفت اليها يزيد !

فاغفل امر جعدة ، كأن لا سبيل الى الاكتراث لمن قامت بالموكول

اليها . وهل من حاجة الى من وفت قسطها للسدة الامويّة ، ولم يبق لها الا الانزواء في مثواها ، وقد ادت كل ما عليها ؟... مهمة السهم ان يصيب . واذا تحطم في الاصابة ، فلا بأس ، ما دام لم يحد عن الهدف. وصاح معاوية بعتب المشوق : أزوجك في دمشق ، ولا يقبل الينا ؟... انها لاساءة لا مغفرة فيها ، يا ابنة عمي. فاين هو لا يطلّ على الخضراء ، فنعوضه من بعض ما له عند يزيد من فضل جسيم !

ويزيد طوى الحديث عن جعدة . وليس له ان يحفل بمن لا يطمع فيها . قال يطري مكارم زوج الاموية ، نزيلة الكوفة : كنت ألقى فيه خير رفيق ، واكرم خدين . ما ندبته لامر ، الا لقيته فيه على كفاية . وما حدثته بسري ، الا كان ذلك الحفيظ الكتوم. وان يده لتسيل ندى ، ووجه يفيض بشراً . فاين هو لا يبدو في رحبة امير المؤمنين ؟

قالت تجود بما يزجيان اليها من ملق : من ينزل دمشق ، ولا يتبرك فيها براحة ابي عبد الرحمن ، فقد غابت عنه دمشق على سامق خطرها . الا اني انسللت الى الخضراء دون ان يشعر بي احد ، حرصاً على سر جعدة ، وقد ألحت عليّ في ان اتحرّز من البوح بما تنهد الى استنجازه. فالعذر ناطق ، جهير !

فقال معاوية باسماً : انك لتزيدينني اقتناعاً بذكاء الامويين ، يا ابنة عمي. والله ، ما عرفت في سوانا هذا الدهاء الاثيل !

وصفق بيديه . فاقبل حاجبه . قال يكشف عن كنوزه ، وما كان منها على امساك : اليّ بأمين بيت المال ، يا سعد . ان بنا اليه لشوقاً !

وما هي الا ثوان حتى كان امين بيت المال يقف ، في حضرة الخليفة ، كالوتد المضروب في الارض . فقال معاوية دون ان ترتجف له نبرة : احمل

اليّ ، على عجل ، خمسة وسبعين الف درهم !

فدار امين بيت المال على نفسه، كاللولب . وتوارى بوثبة . وقفل بوثبة ، يلقي المال بين يدي معاوية ، ويعود ادراجه . فقال الخليفة الاموي : لسنا نهضم حقاً ، يا ابنة عمي. هذا المال سيذهب ، في اقرب ما يسعف فيه الزمن، الى جعدة . وسيندفع به اليها رسول امين !

وجعدة خشيت ان تحدث الاموية بما وعدها به يزيد ، وقد هالها جانح الفضيحة . فاكتفت بان تشير الى وعد مبهم ، ليس يجهله يزيد . ومالت الى مخاطبة معاوية نفسه بهذا الوعد، كي يعلم الخليفة انها اودت، لاجله ، بزوجها الحسن بن علي . فانقذته من الخصم العنيد ، وذللت الحائل المنيع . ولا بد ان يذكر لها معاوية هذا الجميل، فلا يقف دون زفافها الى يزيد ، ابنه ، وقد اقدمت ، في سبيل العترة الاموية ، على ما لا يتوفر عليه غير الحظ الاتمّ

وجهلت ان وعد يزيد خادع . فآمنت به ، وما درت انها فيه ضحية . وانتهى اليها المال، فارتجف قلبها . اين يزيد؟... واستوضحت الرسول، فلم يكن اعلانه ايضاحاً شافياً. وتبينت لها جوانب من الخدعة . الا ان الرجاء ما برح سادلاً ستره. وحثت الخطو الى دمشق. ولكن ما تقول فيها الكوفة، وهي تراها في وثوبها الى قاعدة معاوية ؟... ألا تصدق فيها التهمة الطائرة ، وقد شاع عنها انها دست بيدها السم لابن الامام المظلوم ؟

وشاءت الوقوف عن الرحلة . ما عليها اذا صبرت ريثما يجفّ تراب الحسن ؟... ولكنها لم تقوَ على الصبر ، والقلق ينفخ فيها ، والخوف من الخيبة انبت لها جناحين تطير بها الى قصر الخضراء . وشقت الفلوات الى دمشق ، وهي في دوار من حمّى . فلم تكن تبصر ما حولها ، ومن حولها ،

وقد شخصت عيناها الى مثوى الامويين . وكادت لا تذوق طعاماً ، قانعة من القوت بما يسعفها في النهوض على رجليها . وكلما طوت ليلة سألت السائق ، والحادي ، كم من الفراسخ والاميال تبعدها عن دمشق ؟... وفي اي يوم تبلغ قاعدة الخلافة ؟... وفي اي ساعة من الساعات تصل ، أفي الليل ، أم في النهار ؟

ويؤلها من القافلة ان تستريح ، ومن الليل ان يرخي سدوله . ولم يكن الغمض يطرق اهدابها ، الا لماماً . وتنكرت ، فما افضت باسمها . فهي احدى نساء الكوفة ، المنطلقات الى اهلها في مدينة الامويين ، وفيها يملك معاوية على عز وتيه

وها هي ذي حاضنة بردى تلوح للعين مآذن تطاول الجو ، وقباباً مستديرة كصلعة الفلك . واتسعت بسطة البساتين ، تتناهى على اخضرار ونضارة . شاب الزمان ، وما وخطها مشيب ، وهي ابنة كل عصر ، ووليدة كل جيل

وانسابت القافلة في الرياض الغناء ، والماء امامها ، ووراءها ، وعن جانبيها . وخرير النهر يعلو في الوادي ، كالاغنية البحاء . واشجار الحور تتشامخ على غرور وخفة . ضعيف ، حسب القوة في ارتفاع القامة ، وتناسى وهن ساقيه . ورطبت نداوة الخمائل جبين جعدة . فاحست الارملة المعشاق بانتعاش قواها ، وبيقظة ذهنها ، وان تكن لا تبرح على دجرجة . اضحت على خطوات من هدفها ، فماذا سيكون من يزيد فيها ؟... أيدنيها منه ، ويتزوجها ، ام يخلف الوعد ، ويلطمها بالرثاء ؟

ورجحت فيها الخشية على الطمأنينة . يزيد لا يثبت على حال ، وهو الهائم بالجمال ، يتبعه حيث يلوح . ربما سلاها بعد عودته من الكوفة ، وقد

خطرت امامه من تفوقها حسناً . غير انها لن تقف موقف الاستخذاء . ستتكلم عالية الصوت ، صارخة النبرة . يزيد دعاها الى قتل الحسن في مقابل وعد اغراها به ، وهي تطمع في الانجاز . قتلت زوجها في سبيل زوج آخر ، وانه ليمضّها ان تبيت في حرمان . فتفقد ما تملك ، ولا تبلغ ما تصبو اليه

وذكرت دهاء معاوية ، فاشتد بها الخوف . ربما ذهبت ضحية الخداع المستشري . وتقاذفتها الامنية والخيبة ، فما درت اين تستقر . وعادت تندى بعرقها ، ويستعر صدرها وجبينها . فتناست انها في خمائل ورياض . وساءلت نفسها كيف تخاطب معاوية ويزيد . باي كلام تلحّ في الوفاء ، وهي ، من دليلها على الوعد ، ملساء الراحتين ؟

وندمت على براحها الكوفة . فما يدفعها الى دمشق ، وليست تشهر سلاحاً تقاتل به لاحقاق حقها ؟ ... هل تطيعها شفتاها في الاعلان انها قتلت الحسن لتظفر بيزيد ؟... ان القوم ليضحكون منها ، وهي تنشر هذا البيان الفاضح . وربما اودى بها جماعة علي بن ابي طالب ، وقد سجّت ابن فاطمة ، بنت الرسول ، على نعش ، غير حافلة بخطره . فقوّضت امنية جسيمة ، بل هدمت شيعة تجاهد في سبيل غد ازهر ، لتذوق لعقة من هوى زنيم . وهيهات !

وادركت انها اقبلت في حاجة تمور بالاخفاق . فالفوز شبه محال ، والخيبة راجحة الكفة . على انها ، وقد اقدمت ، ابت ان تتراجع . فلم يبق بينها ، وبين قصر الخضراء ، ما يزيد على بضع دقائق من المسير . وها هو ذا القصر على مرمى من عينيها ، يصفق بجناحيه كالديك العارم في مبسم الضحى . وارتجف قلبها ، والقصر يختلج في اغوار حدقتيها . انه لصرح انيق ، يتماوج فيه الزخرف ، كأنه قوس قزح . وما غاب عنها انه مقر معاوية ، وقد ساد

عاصمة الامويين بشموخ ابراجه ، وزاهي ألوانه ، كأنه معاوية نفسه في المسلمين

ولم يضحك قلبها ، وهي تدنو من الخضراء . فالاضطراب يجري في عروقها ، كما تجري روافد بردى في شرايين دمشق . وألقت القافلة عصاها . فقد بلغت مرحلتها الاخيرة . هذا قلب الشام النابض ، وصدر الاسلام الطريّ العهد . ووثبت جعدة عن سنام الناقة . وانسابت الى الخضراء على استخفاء . لن تبيح لعين تعرفها ان تراها . ودرج حولها سكان دمشق في ذهاب واياب . فلم يلفتها احد . فهي شاخصة الى الخضراء في طلب يزيد بن معاوية . ان لها عليه ديناً ، وهذا موعد التقاضي !

ولكن أتدري اي طريق تشق الى القصر ، الغضير الطلعة ؟... لم يخذلها حدسها في كون هذا البنيان الفخم ، الضخم ، المعقود اللواء على عاصمة بني أمية ، هو مثوى الخليفة . الا انها ودت ان تعلم كيف تنطلق بها قدماها الى المغنى المنيف . هي في دمشق غريبة ، عاثرة القدم ، لا تهتدي وحدها الى الصعيد القويم . فعليها ان تستوضح وتستجلي . ووقفت بجانب غلام يبيع الفاكهة ، على طبق من النحاس ، تسأله كيف الوصول الى مقر الخليفة . ونفحته بدرهم كاد يهب لها به كل ما يحمل من خوخ ومشمش . قالت : هذا لك . لا اريد عنه بدلاً . على ان تسير بي الى قصر معاوية !

فارشدها اليه ، وهو يقبل الارض بين يديها . هذا السخاء منها دعاه الى الاعتقاد انها من اسرة امير المؤمنين ، وانها مقبلة من الحجاز او العراق . بل ان مظهرها الانيق ، ودلالها في خطوها ، اوهماه انها تتصل بامير المؤمنين بعرق راسخ ، مكين . قال وقد بلغ بها محجتها : هنا يقيم خليفة المسلمين ، ايتها الخالة !

واشار الى باب القصر. فاذا بجعدة حيال الصرح الشامخ، المترامي الظل. تشرق عليه الشمس، وينعكس عليه وجهها، فتزداد به دمشق وضاءة. هذه دار جمعت بين اعمدة الروم، وقناطر العرب. فالمدخل فيها عالي القبة، يطاول السحاب. عريض الفسحة، كأنه يتسع لجيش. وانتصب عن جانبيه اسدان من الرخام، فتحا اشداقهما كأنهما في زئير. وسال الماء في ثلاثة احواض من المرمر. وتألقت الفسيفساء بدقائقها في الجدران. فبات الناظر اليها يرى نفسه حيال طنافس مزركشة، زاخرة بالنقش النفيس. وتعددت الابواب والاروقة. فكل باب يمتد منه رواق الى فناء، تصدره بركة يتكشف وسطها عن رمح من البلور. فالماء يفور فيها ويتصاعد، كزفرات العشاق الملهوفين، وما يجفّ لها معين، ولا يخمد فوران

وجهلت جعدة اي باب تلج. واذا بحارس يشهر السيف وينتهرها بقوله: ماذا ترومين؟

فتلعثمت في الجواب، كأن في لسانها شللاً. قال الحارس بجفوة: عودي ادراجك ما دمت لا تلتمسين حاجة!

ودنا منها وفي نيته ان يطردها. وخشيت ان يؤذيها، فحلت عقدة لسانها، وتدفقت بالقول: انا من انسباء الخليفة. جئت امير المؤمنين من الكوفة في امر خطير. فاين من يستأذن لي عليه؟

فما اكترث لانتسابها الى امير المؤمنين. هذه حجة كل من يبدو بباب معاوية. كلهم يزعم انه يرتبط بالخليفة بوشيجة القربى. قال: امير المؤمنين يقيم صلاة العصر، فتعالي غداً اليه. انه الآن لفي شغل عن الجميع!

فلم تنصرف، بل ظلت مكانها تقول بشدة: من الضرورة القصوى ان

اراه . فان ما احمل اليه للنبأ الخطير !

وخيل الى الحارس انها قادمة في مهمة لا تحتمل الارجاء، فنادى رفيقاً له قائلاً : ابلغ حاجب امير المؤمنين ان بالباب امرأة تلحّ في المثول في حضرة الخليفة . في مقولها ما ينتفض بالجسامة ، كما تذيع !

فتوارى رفيق الحارس ، ثم عاد وشفتاه تسألان : ومن المرأة ؟

فعزّ عليها الافضاء باسمها . وتضايقت من هذا النظام المحرج بباب ابن هند. لقد اخذ معاوية عن الروم الحسن والقبيح. نقل عنهم فخفختهم واحتجابهم عن الرعية. فهو يسوس بني قومه من اعماق الدهاليز. ولم يكن عن الافصاح غنية ، والا ظلت جعدة بالباب ،وليس من يحفل بها . بل لقيت الطرد ، والحارس لن يأذن لها في البقاء . وتمتمت وهي تحس بضيق بين حناياها ، وبتقطع في انفاسها : ابلغ امير المؤمنين ان جعدة تلتمس منه ان يفسح لها في ناديه !

جعدة ؟... ما هذا الاقتضاب الجعد الايضاح ؟... لكأنها تنطق بالدر، فتأبى فيه سماحاً . كأنها من النباهة ، وبعد الشأو ، ما يكفي به التلميح . نفحة من الطيب تدل على الطيب . على ان هذه الشهرة الذائعة ، وقعت كالاحجية على الحارس ورفيقه، الساخرين بحمق وخبث.قال رفيق الحارس بتهكم المستهين : جعدة ؟... واية جعدة ، يا ابنة عمي ؟... هل غار فيك اللقب ؟

فتبرمت بتماديه في الجرأة عليها، وصاحت بحدة جلجلت فيها نقمتها : اراك على فضول وقلة حياء ، ايها الغرّ الغمر . اذهب وابلغ سيدك ما سمعت !

فارتاع الحارس ورفيقه ، وتولاهما الكسوف . هذه الناطقة بالنبرة

الجازمة ، الغضبى ، ليست من يجوز الهزء بهم . لا ريب انها من بنات اعمام الخليفة . وهفا الرسول الى سعد ، حاجب امير المؤمنين ، يقول والغصة تهشم بيانه : صارحتني بكونها جعدة ، ولم تزد . هذا كل ما عندها في اعلان نفسها . ولقد نهرتني وانا استزيدها افصاحاً !

فجمدت اسارير الحاجب على ذهول . وقال وهو لا يكاد يؤمن بما ينقل اليه الجندي من بيان : هل عالنتك بانها جعدة ؟

ـــ نعم ، يا سعد ، ولم تزد !

على ان الجندي ادرك ، من انقلاب ملامح سعد ، ومن رعدته ، ان النكرة معرفة تغني عن الايضاح . فالاسم بعيد المدلول ، مستطيل الرنة . وخاف على نفسه ، وعلى رفيقه ، وقد طاب لهما السخر المرّ . ربما كانت جعدة هذه بمقام الخليفة ، واسمها هال حاجب امير المؤمنين . فكيف به اذا رآها ؟

وجنح الجندي الى الفرار . لعب بدمه . فخشي ان تشكوه جعدة الى الخليفة . ولن يرحمه معاوية في استرضائها ، وهي في هذه المكانة . قال سعد : أبح لها الدخول ريثما اطلع على امرها امير المؤمنين !

وامير المؤمنين لم يكن يقيم صلاة العصر ، كما زعم الحارس . فهو الى مائدته يلتهم المآكل اللذّة ، ويستمرىء الافاويه . فان معاوية لبطيناً اكول . شره الى الطعام ، ومتأفف من كل شره . فليس يرضى عن ضيف ينافسه في المضغ والازدراد . له كل ما حوت المائدة من طيبات . وكان يؤثر الجلوس الى مائدته وحيداً ، لينعم بالاكلات الشهية بلا مزاحم . ومن العجيب ان يكره هذا السخيّ اليد ، المجاوز بجوده تخوم الجود ، اكيله المقتدي به في النهمة ، والاعتكاف على المستساغ

وما انسلّ الى اذنيه ان جعدة بالباب ، تتشهّى المثول بين يديه ، حتى جمدت اللقمة في يده . ووقفت طواحنه عن اللوك ، ومبلعه عن الالتهام . والتفت الى حاجبه والارتباك في نظراته ، والخوف في ملامحه ، واستوضح: جعدة ؟... زوج الحسن بن علي ؟

ـ يشخص لي انها هي بعينها ، يا امير المؤمنين !

فاندثرت فيه شهوة الاكل . ونهض عن المائدة عجلان ، وقد سقطت اللقمة من اصابعه . ومسح هذه الاصابع بمنشفة بجانبه ، ومسّد لحيته ، وشاربيه . ومشى الى ايوانه وهو يقول : لنتقبل الشقية . فما جاء بها الينا تهدم فينا طلالة الانس ؟

وفكر في ما يخاطبها فيه . سيكون منها ليناً ، قاسياً . انه لواقف على سر مجيئها . فما اكتفت بالمال تتقاضاه ، وفي نفسها ينهر حب يزيد . وابتسم معاوية ابتسامة الهزء . هل آمنت جعدة بانها ستزف الى يزيد ؟... انها لتجهل الاحابيل ، مع اجادتها دسّ السم . غابنة ، ومغبونة . وتناهى معاوية ترحيباً بها ، وهي تقف في حضرته بعينين مندوتين ، وخطو مضطرب . ودنا منها يقول ، والبشر ينطق في هيكله المنتفخ : ابنة اخي هنا ؟... عندنا ؟... ألا مرحباً بالحسن اليتيم ! ... رأفة بقلوب الدمشقيين ، يا جعدة . اني لاخشى عليهم فورة السحر المندلعة منك !

واستطاع ان يضحك ، وان يخفي مضضه . فأدار لسانه على هواه ، دون ان يتلعثم . وحجب نفسه بقناع المواربة والتضليل ، لا تخونه نبرة متكلفة . فرحب بجعدة ، كأنه يرقب طلعتها بشوق . عاشق ولهان ، حظي ، في مستحكم الجفوة ، بالحبيب النفور . واطمأنت جعدة ، وهو يبدو لها في هذا المظهر ،

وليس ما يدل فيه على اعراض وخشونة . قالت وفي سيمائها تتهادى البسمة : رغبتي في التبرك براحة امير المؤمنين ، دفعتني اليه . فما انا الا نبتة تستظل جوده ، وتفزع الى غيثه . عطشتُ ، فهفوت الى المورد النمير ، انقع منه الغلة !

فتعاظمت بها حفاوته ، وقد اعلن : انت منا في سواد العين، يا جعدة . ما نفذ الى رضانا امرؤ بلغ منزلتك فينا . وهل ننسى يدك البيضاء علينا؟... ضربتِ ضربة حققت منانا ، على سعتها . وانا لنقرّ لك بالفضل ، ولسنا بمن يتجاهلون حسن الصنيع ؟

فشاقتها هذه الزخرفة في ابداء عرفان الجميل . معاوية ليس بالناسي . قالت وهو يفسح لها في عرض ظلامتها : اني لشاكرة لامير المؤمنين عطفه على امرأة مكسورة الجناح ، مثلي . فلم اكن يائسة من حدبه عليّ ، وليس من عون لي سواه ارتجي منه الغوث والرحمة . انتم موئل نعمتي ، وركن غدي!

قال يحبوها الامل : وبوسعك ان تتكلي علينا . فان معاوية لذكور !

ورقبت منه ان يحدثها عن يزيد . فاين يزيد؟... ودت ان تراه في قصر الخضراء ، ان يلوح لها خياله ، فتنعم بنظرة منه . قالت : ضحيت في سبيلكم باغلى واعز ما عندي . فجردت نفسي من عاصمي ، من ابن بنت النبي ، في مقابل وعد لا ابرح اتعلل بانجازه !

واعربت عن مرماها . فاستفهم معاوية مدهوشاً : وهل ثمنا عن الانجاز ، يا ابنة اخي ؟... يزيد نقدك خمسة وعشرين الف درهم . وانا طيرت اليك خمسة وسبعين الفاً . فهل قصّرنا عنك !

فاجابت بنضاضة من حياء : ولكن المال ليس جميع المنشود، يا معاوية!

فلجّ في تجاهله ، كأنه في عمى ، وقد استفهم باستغراب : وما هو المنشود ، يا ابنة اخي ؟... هل من حاجة لك فنقضيها ؟

فحارت في هذا السكوت عن الوعد بيزيد . قالت : حاجتي ما تزال ترقب ان يجود عليها امير المؤمنين براجح حلمه . فما نلت منها الا شطراً . وما كنت ادري ان معاوية يهب جزءاً ، ويمسك عن جزء . فاني لاعرفه يسخو بالعطية على فيض واطلاق !

فتظاهر بانه يتعجب مما يسمع من تبكيت . اين وهى في العطاء ؟... قال : وهل استزدناك لتستزيدينا ، يا جعدة؟... وعدناك بمئة الف ، فنقدناك مئة الف . لست ارى اننا وقفنا عما عاهدنا عليه !

فصعقها . أما اطلعه يزيد على العهد بنصوصه ؟... اذن خدعها يزيد . وسددت الى معاوية نظراً حاولت به ان تمزق الغشاوة عن عينيه ، وان تثب الى اعماق قلبه فتنضو عنها الغطاء . شاءت ان تدرك الحقيقة سافرة ، عريانة ، لا يلفها جلباب . ولكن معاوية بدا كالصخرة الصماء ، كالليل الاسفع . فما من ومضة تنبض في حدقتيه برعشة من نور . وحنقت جعدة على نفسها ، وعلى زمنها . اقدمت على امر جليل شيدت به بنيان دولة ، ونسفت دولة ، فكانت المكافأة تافهة من ريش . مع انها عللت النفس بالرويّ ، السنيّ . أتكون ضحية مكيدة دبرها يزيد ، وابو يزيد؟... ان من يدفعها الى طبخ السم للحسن بن علي ، زوجها ، ويقنعها بانها الرابحة في اعتمادها على الجريمة ، لا يتورع عن الكيد لها ، والقضاء عليها . قالت وهي ترتجف : اين يزيد ، يا معاوية ؟

ــ وما حاجتك بيزيد ، وانت في حضرة ابيه ، يا جعدة ؟

— حاجتي به انه قطع لي عهداً . ومن حقي ان اطالبه بالوفاء !

— سأدعوه اليك . يزيد لا يحجم عن تحقيق عهد أبرم . ولكن حدثيني بهذا العهد، يا ابنة اخي . فهل يضيرك ان يدري عمك، فيكون لك عوناً على يزيد ؟

فلم تكن تعلم ما تقول . انها لتخشى دهاء معاوية فوق ما تخشى خيانة يزيد . فالصل، في عرفها ، انجب الثعبان . قالت وقد اعتزمت الافضاء بكل ما تجيش به اضالعها : يزيد اهاب بي الى استئصال الحسن بن علي ، زوجي ، ففعلت . ووعدني ، في مقابل هذا الصنيع ، بمئة الف درهم ، وبالزواج بي . وقبضت يميني على المال ، اما يزيد فلا يبرح دون متناول يدي !

فتراجع معاوية كالملسوع ، كأن في منطق جعدة حمة عقرب . قال وقد هاج وأزبد : هل وعدك يزيد بالزواج ، يا ابنة اخي؟...انه لغبي . على اني لا اصدق انه امضى هذا العهد . أفلا يخشى الشقي على نفسه منك ؟

فلم تفهم . قالت وهي تترجح في حيرتها ، ولا تجد سنداً تتكىء عليه في نصرتها : وما يخيفه مني ، يا امير المؤمنين ؟

فاجاب معاوية بصلف ، بشماتة : من لا تعف عن الحسن بن علي ، ابن بنت الرسول ، فلن تمسك على يزيد بن معاوية بن ابي سفيان.جازفت لاجلك بمال المسلمين ، يا جعدة . فاستبقي لي يزيد ، وهو بهجة ايامي !

فدمغها . وعادت تبحث عن مقعد تستند اليه ، لئلا تسقط الى الارض. معاوية دفعها الى الجريمة ، واقام يعيّرها اقدامها على القتل . اغراها بالحسن ، وها هوذا يندد بها ، وقد انقذته منه . أتجري في طاعته ، فيحتقرها ، وقد خدمت مآربه ، وحققت مشتهاه ؟

لا ، ليست تملك القوة على درء هذا الكيد . فهي دون المكر الطاغي عليها . وخابت في الاهتداء الى متكأ تصون به نفسها من السقوط . فمالت على الجدار تستغيث به من الكبوة . الا ان عزيمتها خانتها قبل ادراكه ، فتدحرجت في عرض الايوان ، ومعاوية ينظر اليه بفتور ، كأنها ورقة رمت بها عن غصنها نسمة ريح ، فتلقتها الارض عابثة . انه ليزدري هؤلاء المرتزقة ، مع بحثه عنهم ، وسخائه عليهم . فهم لقضاء الحاجة ، حتى اذا ما نال بهم الطلبة ، ادار لهم ظهره ، وهم لمن يؤدي البدل الاغلى . وما جعدة الا من هذا العجين . غدرت بالحسن لهوى اثيم ، ولن تبخل بيزيد على هوى اثيم تضطرم به جوانحها . قاتلة الحسن بن علي ، لا تحقن دم يزيد بن معاوية . ونادى الخليفة الاموي حاجبه ، قائلاً : اليّ بنفر من الخدم ، يا سعد !

فامتثل الحاجب في خلجة جفن . قال معاوية يومىء الى جعدة المغمى عليها : احملوها الى جناح النساء ، ولتنعم فيه بوافي العناية !

واغتبط باطلاع جعدة على نيته . لا امل لها بابن الخليفة . فما تقاضت من مال يعادل بدل الجريمة . واستفاقت جعدة ، في دار النساء ، فاخفت وجهها بيديها ، وقد ابصرت نفسها في حلقة من الاناث يلتهمنها بلواحظهن . اين هي؟... وفطنت فوراً الى حالتها . وادركت انها في قصر معاوية ، وانها اصيبت في ايوان الخليفة بالاغماء ، فحملها رجاله الى نسائه ليتوفرن على درء النازلة عنها . واستبشرت النساء خيراً ، وهن يبصرنها تنفض غشيانها ، وتغنم صوابها . وهنأنها بالنجاة من الصدمة . على انها لم تجب ، وقد ذكرت كلمات معاوية . قذف بها ابن ابي سفيان ، وابنه يزيد ، نصلة جائحة في كبد الحسن بن علي ، زوجها . فمات الحسن ، ولتيت المضيمة . مع انها قتلته لتظفر بحياة رغد ،

وعيش بسيم . كذبت الرؤيا . فالخيبة اودت بروعة الحلم

ونهضت على عجل كالاعصار المفاجىء . فصاحت بها النساء : الى اين ، الى اين ؟... صبراً ريثما تسعفك العزيمة في الوثبة !

ولكنها لم تسمع . هي تطمع في الفرار ، في النجاة من القصر المطبق الجو ، وقد اوشكت ان تختنق فيه . بل جنحت الى الخلاص من بيئة تمور بالمكر ، وتتناهى في المراوغة . وتاهت في باحات المغنى على غـير هدى . ستعود الى الكوفة دون ان تبصر يزيد . فالذئب لا يلد غير ذئب يضاهيه . بيد ان املها بيزيد لم ينقطع . فما يمنع ان تراه ، وتحاول تذكيره ؟... ربما صيغ الابن من معدن يختلف عن معدن الاب . ولكن أتلقاه في القصر ؟... لا ، هـذا قصر يزخر بالمداهنة ، والخبث ، فلن تحدث فيـه يزيد . واين تحادثه ؟... لا تدري . وانسلت من باب القصر وهي تتنفس طويلاً على ما بها من خذلان وموجدة . وانطلقت الى حيث يتقاذفها القدر ، غير حافلة بالمهاوي . فليدفعها حظها الى المهلكة ، وهي راضية بالمكتوب عليهـا . واحترقت ندماً على قتل الحسن بن علي . بماذا اساء اليها ابن بنت الرسول ، وريحانة الجنة؟...فيا لفضيحتها غداً، يوم تمثل امام ربها، ليحاسبها عما انغمست فيه من ادران ، واجترحت من موبقات !

٨

هذه الكأس، المسرفة في الطفاح والنضوب، في دير موران، في الغوطة، كانت تهمس بسر شاربها، وهي تندى بزفراته، وترتوي من شفتيه، فيما يرتوي من جوفها. فيا للآخذة المعطاء!

وشاربها يزيد بن معاوية. فما ان يعصرها، فتبيت هزيلة، عجفاء، تشكو الظمأ، حتى يحييها، فتتوهج كالدينار، وتغري كالدينار. قبيحة في عريها، مليحة في تبرجها. على ان يزيد لم يكن يلتفت الى الحسن والقبيح فيها، ولم يجرعها الا لينسى، ويدفع بها عنه شبح تلك، المستقرة بالعراق

وبجانب من تقيم في العراق؟... بجانب عبدالله بن سلام، احد عمال الدولة الاموية في ولاية الرافدين. ظفر بها من هو دون يزيد في الحسب والسلطان. فكيف نام معاوية عن رجاوة ابنه، فاباح اريئب لعامل من عماله، وحجبها عن يزيد، معقد الرجاوة، وحافز الطماح؟

وعادل يزيد بينه وبين عبدالله، وابتسم ابتسامة اصطكت لها اسنانه مرارة ومضضاً. هو ابن الخليفة، وسوف يكون خليفة، وذاك من رجال المناصب في الدولة، من هؤلاء الساجدين في اليوم الف سجدة في حضرة مولاهم. غير ان هذا المنحني، في كل آن، بين يدي ابن ابي سفيان، المتمثل لسيده كالعبد الرقّ، بلغ من بهجة زمنه ما لم يبلغ ابن اميره. هما من نبعة واحدة، من قريش. على ان هذه النبعة الواحدة لا تقيم المساواة بين جميع

ما يتدفق منها، وثمة ما ينتهي الى ساق زهرة ، وما يغور في الرمل،بلا جداء

والتهب يزيد . وتمايل رأسه بتنوط. وامسك بيمين الاخطل ، الجالس بجانبه ، الى الخوان ، واطلق الكلام مهشماً ، قائلاً : ألا حدثني ، يا شاعر الدنيا ، بغرائب الدهر . عرفتك تستنزل المعاني ، وتنظمها اسماطاً من مرجان . فهل بلغت من القدرة ما تتوفر به على حل الالغاز، والانسلال الى بواطن الزمن اللئيم ، الحقود ؟

وصاح بلهجة يائسة، وقد تململ في جلسته : والله، ما ادري كيف حيك هذا الكون. فما من كأس صافية، الا وفي قرارتها نفثة من حثالة . وما من سماء نقية ، الا وفي مدرج نيراتها كدرة . ألا حدثني بسر هذا التشابك ، ايا الاخطل . فلا وردة بلا شوك . لا فرحة بلا اكتئاب . لا راحة حتى في برج من العاج !

على ان الاخطل رحمه الله . فالخمرة ذهبت برشده ، ولم يكن بميل عنها. نهر لها ، لا ليزيد ، واشجان يزيد . وارتخت اساريره في ابتسامة بلهاء . وارتجفت يده، وهو يحمل الكأس الى مرشفيه ، ليعيدها الى الخوان ، وقد استصفاها . وبعدت به السن عن يزيد ، وإن جمع بينهما خوان واحد . فهو يحبو الى الشيخوخة ، وابن معاوية في صباحة الاقمار . ان كأساً لتنعتعه ، ويزيد لا تلويه خابية طفحى . صلابة الالواح وهت في الاخطل، وما تبرح على مناعة في يزيد . قال شاعر بني امية ، وابتسامته تتسع في بلاهتها ، مع اجتهاده في ان يفيض بالحكمة ، والمجال الى الافاضة بها فسيح : الاستخفاف بالزمن خير دواء في قهر الزمن ، يا يزيد . أتدري ما حملني على ادمان الخمرة ؟... والله، ما عشقتها عن هيام بطعمها ، بل شغفاً بأثرها الماتع . فهي

تقصيك عن بؤرة الهموم . فلا تحس ، وانت تشربها ، بانك تشقى وتتعذب ، ولا بان دهرك وترك حتك . فانت بها في نجوة من الكربة ، وفي عز مستطيل . تحسب نفسك معاوية في عرشه ، وانت على خشبة نخرة . ألا فاستعن بها على الكيد للدهر الظلوم . انت في لألاء المجد وتئ ، فكيف بمن هم دونك ؟... ما عرفت الزمن يصفو لمخلوق ، يا ابن امي !

ورفع كأسه يقرع بها كأس يزيد . وكان الليل المتلفع بعباءته السوداء يشمر عن اردانه في الرحيل . فالغوطة نامت بعصافيرها ، وغياضها ، حتى وبجداولها . فما ظل على انتباهة فيها سوى فوح العبير . ولكن الباب يطرق في دير موران . فمن المقبل في الظلمة كالعسس ؟.... واصغى يزيد بن معاوية . فمن عادة أبيه ان يقيم عليه العيون ، ويتجسس اخباره . فهل بلغ به الاحراج مبلغ التضييق ، على ابنه ، حتى في دير موران ؟

وغضب يزيد . ونهض الى الباب يفتحه بنفسه ، وفي عينيه وعيد . سيشتم رجال ابيه ، ويعيدهم الى دمشق نادمين . ولكن من يبصر بالباب ؟... هذه امرأة ، لا عسس . ومن هي ؟... أتكون ممن تعوّدن ارتياد دير موران ، لاشباع شهوة ابن معاوية ؟... متعددات هن المتقلبات في هذا المكان على فحش واثم . أتكون احداهن هذه الطائرة على جناح العتمة ؟ ... وعرض يزيد محياها على ضوء المصباح . وعرفها من ذل في وقفتها ، وعتب في عينيها . هي احدى المطالبات بقلبه . سحقاً لهذا القلب ، كم من غانية تستظهر به ، وهو العاجز عن نيل مشتهاه !

وعبس يزيد ، لدن عرف الزائرة . وكاد يلوي عنها ، ويغلق دونها الباب . فهي ليست امنيته . بيد انه استعدى عليها الصبر ، ولم يكن يملك منه غير

قشور رقاق. قال ورائحة الخمر تندلع منه طاغية شروداً: أأنت، يا جعدة؟.. من ارشدك الينا في هذا المكان النائي، بل من قادك الينا في مثل هذه الساعة الغبشاء ؟... أما كان بوسعك الانتظار حتى الصباح ؟

وكانت جعدة نفسها، ارملة الحسن بن علي. قالت وهي تتأوه: بأبي انت وامي، اني ابحث منذ ثلاث عنك، ولا اهتدي اليك. وحدثتني احداهن انك في خلوتك، في دير موران، فشققت اليك الليل، متوكئة على دليلين. ما جئت لازعاجك، بل لتذكيرك باني ما ازال على العهد. فهل لك ان ترحم قلباً يصبو اليك ؟

فزفر. انها لمفاجأة تلهب الجراح. وسدد الى جعدة ناظرين اعتلج فيهما الكره والارتباك. وهز برأسه، وقال بصوت يهدر فيه الغضب، فتمسكه بقية من طول أناة: مرحباً بك، يا جعدة. لسنا نقلوك. على اني وددت ان اراك في دمشق. فما كنت على اضطرار الى ركوب هذه المشقة. هل ظفرت برؤية معاوية بن ابي سفيان ؟

ولم يشأ ان يبيح لها الدخول. هي في الباب، ولتظل في الباب، لا تجاوزه الى صدر المكان. وسألها هل شاهدت معاوية كي يصرفها فوراً اليه، ان تكن لم تبصره. فليس كمعاوية في الارضاء. فانه ليملك سر معرفة الناس، ومدى طموحهم، كأنه يزنهم بالميزان. ولما اجابت انها كانت في حضرة ابيه، درك يزيد ان سهم معاوية طاش عنها، فقال: وماذا اسمعك امير المؤمنين؟

فهالها منه هذا التدقيق. أيحتاج المحب الى استطلاع، وقد بوغت بمرأى الحبيب؟... غير انها صبرت على استقصائه، واجابت بصناعة نزعت بها الى درء الخيبة: معاوية صارحني بانك لا تحجم عن انجاز ما ابرمت. اما وعدتني بان

تتزوجني فور موت الحسن ؟... عليك بتحقيق الوعد !

فاصطكت اسنانه بعضها ببعض حتى كادت تتفانى . واطبق فمه دون الشتيمة . ليست هذه من يريد . مجنونة به ، وما يخفق فيه اليها حنين . قال ولا يدري كيف ادرّع الصبر الجميل : هذا ليس اوان الزيارة ، يا جعدة . هبطت علينا في ليل مقيت . ان ما بنا ليشغلنا عنك . سنسير اليك يوم يصفو لنا الزمن . فما انا بالتائه ، ولا انت بالضائعة المقيل !

فارتعشت فيها الوهلة . حديث هذا حديث ذاك . صدّ وجفاء . الا ان هذا اعذب منطقاً . قالت وفي حدقتيها غصات دموع : أتسير اليّ يوم يصفو لك الزمن ؟... وفي اي صفاء تطمع بعد هذا العز الرويّ ؟... السيادة باتت باجمعها لكم ، تتجاذبون وحدكم اطرافها ، بلا شريك . لقد مات من كان ينافسكم فيها ، وانا القاضية عليه باغراء منك . أتكون خدعتني ، وانت تحثني على الفتك به ، لتخلو لكم الساحة ؟... اغرقتني يومذاك في فيض من المنى . فهل لوّحت لي بالسراب ، يترقرق لعيني ، حتى اذا ما جئت اتقاضاك الدين ، انكرتني ؟

فقال ، وقد احس بجفاف نضاضة الصبر فيه : اخذتِ بمقدار ما اعطيت ، يا جعدة . فلم يبق للمطالبة بالدين متسع . أما نعمت بالبدل العريض ؟... لست اراك على قسمة ضيزى في ما تناولت عن قطرات قلائل من السم . سأدعوك اليّ يوم يلجّ بي الهوى . فانا الساعة منه خليّ !

فصاحت تقلقها كلماته ، كأنها الغصن الاهيف في مهب النوء : ثكلتك امك ، أتطردني كالسائل الخزيان ، وكنت ترتمي على قدمي كي انيلك شهوتك في زوجي ؟... أتنسى كيف تهاديت امامي كالخنساء ، تسترحمني في

الرفق بقلبك وبغدك ؟... والله ، لو لم اكن ساقطة بنت لاقطة ، لتحاميت الوقوع في شركك. على اني حثالة الناس ، استندت الى اكذب الناس ، فلقيت من غدره ما يجمل بفاحشة مثلي . انا قتلت بيدي حفيد الرسول ، يا كافر ، كي امهد لك السبيل الى سيادة المسلمين . أفكافأتني بالطعنة ترضّ بها امسي ، وحاضري ، وغدي ، وتنام رخيّ الضمير ، كأنك ما ارقت دماً ، ولا ادميت كبداً ؟... لا والله ، هذا كيد لن تخرج منه على رفاء . لاحرقن قلبك ، واشوّهن نجدك ، كما احرقت قلبي ، وشوّهت نجدي . ولكن من انت ؟... ابن معاوية . فالغدر من معدنه . معاوية ما كان في المسلمين غير سافل خسيس!

وايقنت ان الاب والابن متواطئان عليها . فهي وزوجها من ضحايا هذين الغاليين في التضحية بالارواح . نحرا بها الحسن بن علي ، ثم نحراها ، وهما يضحكان . فلم تكن لديهما غير وقود لاشعال النار ، ثم حفنة من رماد تبددها الريح

فاكتفى يزيد بان يغلق دونها الباب . وعاد ادراجه الى الخوان ، لا يجيب . فزاد في حشرجة املها المقهور وهو يدير لها ظهره ، ويكنسها بصفحة الباب ، كأنها الحشارة ، بل كأنها لقيطة موبوءة . وما تمالكت حيال المهانة الناخعة ان صاحت ، وفي قلبها جمرة ، وفي مدمعها شرر يتطاير حقداً وغيظاً : لينتقم لي منك الله ، كما انتقم للحسن مني . قتلته وهو في نصاعة الوليد ، ما جنى ولا تجنى ، كي اعقد لك راية السؤدد ، فتمسي في الاسلام الثلب الخفاق . فاذا بك تقابل صنيعي بطعنة في صدري . لا ، لا وفقك الله في عمرك ، ولا ابتسم لك زمنك . لتغرق في غمرة التعس . فما تنجو في اسعد دقائقك من مضض الكبوة . سلكت بي طريق الضلالة ، لا عرفتَ الهدى .

ليقهرك ربي ، كما قهرتني . ولكن ايامك سلسلة من لوعات ، وويلات !

وانكفأت في الليل، الى دمشق، وهي تشرق بدمعها. حطم يزيد جناحيها، واطعمها الحرقة ، مكرهاً اياها على احتمال الالم دون ان يوسع لها في شكوى، اويستجيب في دعاء. فلمن تتظلم ،وبم تتظلم ؟... رماها ابن معاوية في الاحبولة، واجاد شدّ وثاقها .فهي مقيدة ابد الدهر بالكتمان، وبالصبر على الضيم . فاذا افاضت باشجانها ، فانها لتتهم نفسها . قتلت الحسن بن علي زوجها لاشباع سفاسف لذائذها

ونفرت من دمشق . لن تقيم في عاصمة ابن ابي سفيان ، وقد عانت فيها مضض روغان الثعلب، وفتكة الذئب . فان بها من حاضنة بردى ما يحرمها الغفوة .وعادت الى الكوفة تدفن فيها خزيتها. اذا اباحت لها الليالي الانتقام، فلن تحجم عن صولة . وعضت جرحها وهي تحرق، مستنزلة على يزيد، وابي يزيد،ودولة الامويين، اللعنة.غير ان يزيد لم يكن اسعد حظاً منها .فالغاشية العابثة بلبها ، تنكأ جراحه . على انهما مختلفان في المتجه . فان يزيد ليتشهى أرينب بنت اسحق ، ويلتاع حسرة عليها

ابن خليفة، يسجد بين يديه مئات الالوف من البشر، ويعجز عن أمنية، عن امرأة . واي شأن لامرأة في هذا المضطرب المنفسخ بالمخلوقات ، في هذا الجيش الرداح من المعفرين جباههم في غبار نعلي معاوية ؟... على ان تلك الضعيفة المقتدرة ، تلك الهباءة المالئة الدنيا ، اذلت ابن الخليفة ، ونهشت كبده، فاضحى منها في ثورة المخنوق الشهوة، الذبيح النعلة. اضحى كالظامىء حيال المورد العذب ، يحاول الابتراد برسيل الماء ، ولا تسعفه قواه في نجعة

وحفر الى دمشق ، الى معاوية . انه ليحترق في حبه العاقر . ودخل بلا

استئذان . ليقل معاوية ما يشاء . ليطرده . ليقتله . فلماذا اطلقه الى النور ، وقد ادركه في النور الظلام ؟... وانحنى ، وسلم . ولكنها انحناء موتور ، وسلام مفؤود . وانتفضت في معاوية هامته . واستدارت عيناه على حنق . الا انه كظم غيظه. فاستشم في يزيد الغليان. واشرقت فيه البسمة كالاغاضة. فالموقف يحتم المماكرة. وسبق يزيد في الكلام. فقال وهو يميل الى هدم النزق الفائر في ابنه : مرحباً بقرة العين . أطلت الغيبة ، فاوحشت ، يا يزيد . ما هذا التنائي عن ابيك المشتاق ؟

فما خفف اللقاء الحفيّ من لهيب الحرقة . قال يزيد بخشونة في اللسان ، وبحة في الصوت ، تشفان عن متفاقم الضغن : دهمتني جعدة تستنجزني وعدي لها ، فألقمتها السبة . فانهالت عليّ بالدعوات . فهلا كفيتني شرها ، وابعدتني عن حديد مقولها ؟

فماع معاوية في ابتسامة رخية ، وقال : انها لتستميت فيك حباً ، قاتلها الله . لو لم اكن اخشى عليك منها ، لزففتها اليك . ولكني اخاف ان تمثل فيك دورها في الحسن بن علي . ولقد جاءتني تتنصف بعد فوزها بالعطية . واستشفعتني اليك ، فقلت لها : « أما يزيد ، فاستبقيه لنا . اني اضن به على السم تطبخينه له ! » . فسقطت الى الارض مغشياً عليها . ولم تكن ترقب الصدمة . على انها لم تقطع منك الامل . فهفت اليك تسألك فيها . فكانت اشبه بمن ينطح صخرة . فاستفاضت في الدعوات الداعرة . لتحرقها النار !

واذا الباسم يشتعل سخطاً . واذا السحنة الهادئة ، الرضية ، تعتكر كبحيرة اقلقت سكونها الزوبعة . وزمجر معاوية كالرعد في عنيف قهقهته : أتدعو عليك الفاجرة ، فتتشهى كسوف بهجة زمني ، وانتثار درة نعمتي ؟...

والله، لا غيّضن بشرها، واصوّحن عودها . لحناء، لكعة، لايستنام اليها في ذمة ، ولا يؤمن جانبها في حفاظ . لو سمعتها تطلق فيك المقال الوجيع ، لاستأصلت لسانها من مبلعها، ولفقأت عينيها . فمن يتجرأ على ريحانة عمري، فقد تجرأ عليّ . من يطعن على ابن معاوية ، فقد طعن على معاوية . ان يزيد لنضرة ايامي ، ومكان الروح مني . تعال اليّ ، يا مرجاة ابيك !

وفتح له صدره ، وطوّقه بذراعيه. ومشتهاه ان يتق في هذا الابن فورته الجموح . فمالأه ليخفف فيه غضبته ، ويسلم من تنديده به . حقق يزيد مطمع معاوية، ومعاوية لم يتوفر على ارضاء يزيد. وهذا القعود، عن الاجابة، اخجل معاوية ، واذله حيال ابنه، فبات لا يدري كيف يستعتبه ، ويخطب وده. فالحاجة الى هذا الابن ماسة ، وهو صاحب رأي وفطنة. ثم هو وارث المجد، فلن يقيمه ابوه على غضاضة. قال يعانقه: وقعتُ على تدبير يعيد اليك أُرَيْنَب. قطب قلباً ، واسكن الى ابيك . عبدالله بن سلام لن يتمتع بها طويلاً !

وسبقه الى الضالة. فادرك معاوية ، ببليغ دهائه، ما يجيب بيزيد الى هذه القحة في اقتحام الايوان، كالعاصفة . حبه لارينب طغى عليه . فساقه الى ابيه ناقماً يتململ . وقد يكون دفعه غاضباً يتوعد . فتلاعب به معاوية وكبح فيه الجماح. رفعه وحطّه. وتنقل به من اليمين الى اليسار، ومن اليسار الى اليمين، حتى ضعضعه في نفرته ، واخمد غليانه. فهو الآن بين يديه عصفور في قفص ، يرجو الرفق والعون. وود يزيد معرفة ما اهتدى اليه ابوه من تدبير في استعادة ابنة اسحق . ان معاوية لخصب الحيلة . فماذا اعدّ للفصل بين عبدالله بن سلام وارينب ؟... قال يزيد : ابي يعلم ان ليس لي عن ابنة اسحق مصطبر . فهي تأكل من قلبي ، ومن هناءة ايامي . وامير المؤمنين ، ايده الله ، وعدني بان

ينصفني منها، فاسترسلت اليه، وكان ان فاتتنا النهزة. لهونا بجعدة ريثا تطوي الحسن، فاذا بابن سلام ينتزع اللقمة من الفم. وهذه الخيبة زادتني باريب كافاً. ولا احسب امير المؤمنين يرضى لابنه بالارق والغمة. فان بي من الترحة ما يسقم جبابرة الارواح والابدان!

فزمّ معاوية ابن ابي سفيان عينيه، كأنه همّ بالبكاء. ابنه يشكو اليه تباريح الوجد. ان يزيد ليشقى شقاء الدهماء، وما انقذه جاه ابيه من النكد. وما تماسك معاوية ان عاد الى ضم هذا الابن، وهو يقول برعشة من ألم: رفقاً بابيك. لا تتبسط في عرض ظلامتك. فانك لتسحق بها كبدي. ما حسبت اننا سنهون في قلوبنا، وقد بلغنا من الرفعة منتهاها. اريب لك. سأخادع فيها عبدالله بن سلام حتى ينبذها، وتستولي منها على ينبع الحسن. من كايد وناكد، وخالب وخاتل، ليتم له الامر في المسلمين، لن يعصيه عبدالله بن سلام الصافي الدخلة، النقي البال. ان هو الا لعقة في فمي. فصبراً. تقصيري في امرك، ساعوضك منه الظفر بالارب. فاكتم سرك بوسيع حلمك، واستعن بالله على غلبة هواك!

وما تمهل. فكتب على الفور الى عبدالله بن سلام يدعوه اليه من العراق: «اقبل حين تنظر في كتابي هذا لامر حظك فيه كامل. اعتزمت ان ارفع من قدرك، وان اجعل لك نصيباً وارفاً من افياء المسلمين. السرعة خير مطية. فلا تنم عن الزمن المؤاتي، والسعد لا يبسم مرتين!»

وفي لغة المصانعة، من معسول القالب، ما يستهوي حتى اللبيب البصير!

٩

نام الحبيبان على شغف وفرحة ، جاهلين ما يحوك لهما القدر . فهما في العراق مخموران بما يتأرج فيهما من مخالصة ، وقد رنحت اعطافهما نشوة الحب المتفتقة عن كؤوس ابكار ، يتساقيانها برغادة . أرينب سكرى ، وعبدالله ولهان ، متيم . يشم العطر ، ويستزيده فوحاً . نهم لا يشبع ، وظامىء لا يرتوي . وكيف الارتواء ، واريئب سلافة طافحة باللذة ، امتزج فيها رائع الحسن ، بفاتن البيان ، فباتت ينبوع سحر تلهم الهوى ، وتقعد النهية ؟

هي وعبدالله في الذروة من الفتوة . وعبدالله ثري ، واريئب على يسر ، فجمعا الدنيا من طرفيها . ولم يكن عبدالله فاسد النية ، ولا لئيم الفطرة . فان بين حوانيه لتعبداً للخالق ، وطأطأة لولي الامر ، وولاء للخدين . واكتفى من دنياه بالطيبين ، بالمنصب تعلو به منزلته ، وباريئب تثلج صدره . ولما ورد عليه كتاب امير المؤمنين ، معاوية بن ابي سفيان ، ووقف على منطوقه ، تولته البهجة . ولكن اثار فضوله ما تغلف به الكتاب من غموض . فاي نعمة يحبسها عليه الخليفة ؟

وتلا الكتاب على زوجه ، فما بدا منها انها طائرة المسرة . قال عبدالله : وما يلوح لك فيه ، يا اريئب ؟

فاجابت ، وفي مهجتها سهوم : اخشى كيد معاوية ، يا عبدالله . قد يكون يبطن لك المهلكة ، فيما يسخو عليك بالعطية . هذه الدعوة اليه ، على اجنحة ،

ما يحفز اليها ؟... يخيل اليّ ان في الكتاب لغزاً اعيذك منه ، بابي انت وامي !

وظهر منها انها تحاول ايضاحاً ، وتتردد . كأن الكلام لا يطيعها . فقال عبدالله ضاحكاً : واين المهلكة ؟... ليس بيني وبين معاوية حفيظة . انا وانت من ابناء اعمامه ، من قريش . أتحسبينه يغدر بابناء اعمـامه ؟... ستحدثينني بموقفه من علي بن ابي طالب ، وهو بمكانتا منه . ولكن علياً نازعه في سيادة المسلمين . اما انا ففي اي سيادة انازعه ، وحسبي منه هذا المنصب ؟... لا ، لست ممن يحجبون عن معاوية امنية ، ولا ممن يثيرهم عليه مطمع . وجلّ ما يشفّ عنه كتابه اليّ انه يعـدّني لاحدى الولايات ، فيزيد في رفعتي ، وانعم واياك بغد سعين !

فاكتفت بان تطيل اليه النظر ، دون ان تفيض بمقال . فازعجه موقفها القلق ، الخشيان ، وصاح بها : ولكن افصحي . صارحيني بما تتخوفين منه . ماذا ينضّ من كتاب معاوية ؟

فاعلنت بكمدة : ادعوك الى الحذر من ابن ابي سفيان . فانت حيـاله طفل ُيجرّ بخيط . ولست منه في بعيد حيلته ، ولا في رهيب مكره . قد يزين لك السعادة في الاكتواء بالنار . فيدفعك الى الموت بطلاقة من يريدك على الحياة . ابن ابي سفيان ، يا عبدالله ، يطعنك في صدرك ، فيما يقبلك في جبينك . يسحقك بنعليه ، فيما يسمعك المنطق الواعد . انه ليحلك منه محل ابنه يزيد في بارع ختله ، وخداعه ، فتغفو على ريش نعام ، وتستفيق على دبابيس . ثم اني رأيت ...

فرمت في قلبه الرعب . واستجلى متشائماً ، متهيباً : وماذا رأيت ؟

فتأوهت ، كأن ما تراءى لها يدمي حشاشتها . وودت كتمان الرؤيا ، وليس في ما طاف بها من اخيلة ما يمسك على طمأنينة . ولكن عيني عبدالله ألحتا في الاستطلاع ، وما عوّدتها اريتب اصطباراً . فقالت بعد لأي : رأيت مهواة تفصل بيني وبينك . فصحت مستنجدة بك ، فاذا شبح كريه يرفل في الارجوان ، والبرفير ، كالملوك البيزنطيين ، يثب اليّ من احشاء الحفرة ، ويطوّقني بساعديه ، فيستطير لبي فرقاً . وتعاظم استغاثتي بك ، فتتوارى عني ، كأنك نسيتني واستأثر بك سواي . وجرّني الشبح الى البؤرة ، وانا على صياح واستجارة . واستفقت من نومي ، وبي من الوهران رأسي تحطم على نواتىء الصخور !

فضحك عبدالله بن سلام ضحكة المستهين بالرؤى ، وقال ممازحاً : ربما وقعتِ من نفس معاوية موقعاً حسناً ، يا اريتب . فاهابت به صبوته الى اكراهي على طلاقكِ مني !

وتمادى في ضحكة المستأنس بالمداعبة . فحردت اريتب وقالت : وهل يرضيك ان يفصل بيننا معاوية ؟

فآلمه غضبها ، وضمها اليه وهو يقول : لا والله ، يا ابنة عمي . اني لاكفر بدولة معاوية ، على بكرة ابيها ، لاجل بسمة تضيء في شفتيك . انت ، ثم المنصب . فان يخطر لمعاوية ان يباعد بيننا ، تخليت له عن الولاية ، ونعمت في قربك بالعيش الخضل ، دون جاه السلطان . فما المعالي عندي ، على سمو رفعتها ، بما يعادل ساعة تغشانا على جفوة . مباركة لمعاوية الرتب ، وحسبي الفوز بمرضاتك . دنيا الحب اشهى من وسعة المجد ، على متمادي رحبتها !

فرشحت عيناها بدمعة سخية . فصاح عبدالله ، وقد انحنى عليها بهاسع :

أتبكين ؟... ما بال عينك تسخو بالالم ؟

قالت بلوعة سخينة : لا تذهب الى معاوية . إبق هنا . ابن ابي سفيان يريد بنا شراً . ان في عطائه لمنة ، وفي عطفه لاذى . اخلع عنك منصباً اولاك اياه ، ولنعد الى مكة نقطن فيها على سكينة . ففي ايدينا من المال ما لا تفنيه السنون !

فهاله ما تدعوه اليه من تضحية . أيخلع عنه المنصب ، وفي المنصب عز مستطيل ، وشموخ مديد ؟... انها لتكلفه ما ترزح به الطاقة . وما يخيفها من معاوية ؟... معاوية ليس تبع نساء ، ولا حفيلاً بشؤون النساء . هذه ترهات قد ينصرف اليها يزيد . اما ابوه ، ابن هند ، فانه لساعٍ لنصرة دولة شيد أسها . والدولة لا تقوم على وسامة كاعب غيداء . قال عبد الله بكياسة البصير ، الرفيق : ولماذا نجبه معاوية بالنفرة ، ونحن على جهل بما يريد منا ؟... علينا ان نسمع مقاله ، وان نكيل له بكيله . فهل جاءك عن معاوية انه فصل بين زوجين ، ليستأثر بالمرأة ، وينبذ البعل ؟ ... معاوية ابعد مرمى من الوقوف عند حسناء !

فذكرت يزيد . وكادت تفشو ما كان من ابن معاوية فيها . حاول استدراجها ، فتوارت عنه . بيد انها نكصت عن الافصاح . اجل ، معاوية ليس يزيد . وقد يكون يزيد تناسى . فما تعوّد ان يصفو لامرأة ، وان يطيل الشغف بها . وهي لديه اشبه بالكأس ، ما ان يرتوي منها ، حتى ينساها . فاذا عزت عليه ، مال عنها الى سواها . ولن يقضي ايامه في البحث عن خمرة اشتاق مذاقها ، وضاق عليه مجالها . فهو لساعته ، لا لغده . ومعاوية في شغل عن حب يزيد وكلفه . اما اقصاه عن الخضراء ، وقد اباح القصر للهوه ومجونه ؟

وشاءت اريتب ان تطمئن ، مع اضطراب السكون فيها . قالت وهي تجاهد في ابداء الارتياح : اذهب واتكل على ربك . اريتب معتصمة بوفائها لك ، فلا تخفر ذمتها !

والقت رأسهـــا الى صدره . هذه الدعوة الى قصر الخضراء ليست مما يستعذب خاطرها . فهي منها على رمض . اما وعبدالله لا يرى من ندحة عن اجابة امير المؤمنين ، فلا عليها اذا صبرت على الشدة . ومال عبـــدالله على مبسمها الريان ، في ضيق ، يخمد فيه الآنة . فزّقها قبلة تنتفض بلاعج الهوى المخمور ، وتمتم عاتباً : ألمثلي يقال لا تخفر الذمة ، يا اريتب ؟... والله مما انا منك غير هدب في جفن . اذا شئتِ استبقيته . وان شئت نزعتهِ منك نزع الشوكة الواخزة . وما انت مني سوى نضاضة الروح . فاذا اعتراك في حبي جفاف ، ذهبت عني ايامي . أتريدينني على الامانة ، وانا مرآتها الصافية ، ومثالها الاوفى ؟... كوني حسنة الظن بابن عمك ، وهو الواهب لك غضارة الليالي ، وخلجة الانفاس !

وركب فرسه الى معاوية ، يزمّ الفدافد والسهول ، وفي نفسه فضول وطماح . ان هذه الدعوة ، الى الخضراء ، لميمونة المطلع ، مشرقة الديباجة . معاوية يريده على سرعة حثيثة لينفحه بالحظ الاسنى . فاي سلطة سيجود بها عليه هذا الشحيح بالسلطان ؟... وسبح به جواده في الفلوات الفساح . ولم تشغله الصحراء ، في منبسط رمالها ، ولا في يتيم نخيلها ، عما يتلظى به ذهنه من حدس . أيكون والياً على الحجاز ، ام يعهد اليه معاوية في منصب في الخضراء ، كأن يلقي اليه زمام بيت المال ، او قيادة من القيادات ؟

وطال تفكيره ، دون ان ينفذ الى صميم اللغز . فما برح فيه على حومان .

ولم يكن السهم المرنان اشد منه انطلاقاً في خاوي المفاوز الرحاب . امير المؤمنين يبغيه . واتسعت اساريره ببشاشة مندلعة البسمة . هو في روض اريض من دنياه . وانتعش وقد اطلّ على بردى يستقي منه ، ويسقي جواده . بات في حاضرة ابن ابي سفيان . وعلت به هامته ، وقد اشرف على دمشق . لا ريب ان معاوية يجهزه لمقام نضير . واذا كوكبة من الفرسان تشق اليه الادغال والهضاب . هؤلاء رجال معاوية يقبلون الى لقاء ابن سلام . انها لنعمة وارفة الظل ، غضّة الجلباب . قال كبير القوم : اوفدنا اليك امير المؤمنين للترحيب بمقدمك . فانت بيننا على سعة واكرام !

فاجاب ، والبشر يغمه ، فيكاد يفحمه : روحي فدى امير المؤمنين . سخا علينا من لألاء هذه الدولة بما زاد في شأننا ، مدّت القدرة بهجة ايامه . لا تصلح الاحكام لسوى السيد ابن السادة ، في الجاهلية ، وفي الاسلام !

ومشى في موكب حفيّ ، وهو يقول : ومتى يأذن لي امير المؤمنين في المثول بين يديه ؟

فاعلن مخاطبه : مكانك ، فور بلوغك دمشق ، دار فخمة على خطوة من قصر الخضراء . ستنزل فيها محفوفاً برعاية معاوية ، ريثما يدعوك الخليفة الى القصر !

فتفاقمت فيه المسرة . معاوية اعدّ له داراً بجانب قصره ، يقيم فيها عزيزاً مبجلاً . انه لعطف لا يتقلب في نعيمه غير الاقيال . فاي مهمة استدعاه اليها معاوية ؟ ... ورحب به اصفياء الدولة ، وهو يبلغ الدار الموقوفة عليه . انه لاكبار يعزّ فيه النظير . اذن سيقيمه ابن ابي سفيان اميراً على شطر من هذه المملكة المترامية الاطراف . فبسمت له الآمال في الشام اكثر منها في العراق . فالمجد في حاضرة معاوية يلقاه على فيضان . ورقد ليلته تتجاذبه

المنى الجسام . ما اهنأ وسادة العزة ، وارفع عماد السؤدد. فشعر ابن سلام بانه يجر ذيل الخيلاء . وربما ملك من اعنة الدولة ، بعد معاوية ، ما لا يطاوله فيه سيد ، ولا يصاوله جبار . فالدولة هو ، وابن ابي سفيان

واصيب بغشيان الرفعة . واهتز طرباً في بحبوحة الفخار . وتراءت له الدولة الاموية تنحني خشوعاً في حضرته ، فوثبت به نفسه الى ولاية العهد . فما ينبو به عن بلوغ مرتبة يجثم فيها معاوية ، والامر في الاسلام شورى ، يبلغه الضعيف الجاه ، كما يبلغه الداهية الهمام ؟... انه ابن قريش . واضالعه تلتف على ادب ودين . فاذا مشت اليه الخلافة ، فليس في حبوها ، الى مثواه ، عجب عجاب

وفيما يتقلب على الاماني النضرات ، حفل قصر الخضراء بمشاهد بطر فيها الدهاء ، فاستشرى. كأنه في تحمة الذئب الجوعان . ففرك معاوية يديه يترنح بسكرة الحبور . ودعا اليه شيخين من الصحابة ، ممن آكلوا الرسول وجالسوه ، وحادثوه واصغوا اليه في سديد آرائه ، وشاطروه النعمى والبؤسى . فدلفا الى ابن هند ، وقد احتضنت عباءة من الوبر كليهما ، واستظلت كل هامة بعمامة منتفخة ، كأنها رفرف الفلك . فنهض اليهما معاوية مسلماً ، ومرحباً . هذان من اتباع الرسول . وقادهما ، برفق ، الى قربه ، حتى لم يبق بينه وبينهما مجال لاصبع . ومال على كل منهما يقول : السلام على نبي الله ، وعليكما ، ايها الصفيان !

ولم يكن من هذه المقدمة بد للتمهيد الى الطلبة . وانحنى معاوية مرتين اكراما واجلالاً . فهو بين اكرم الصحب ، واصدق الخلان . وعالن جليسيه انهما من الصفوة المعدودة في الاحباء ، ومن النخبة في ذوي المشورة

والرأي في الاسلام . فرانت البهجة على الشيخين العتمتين. انهما لفي كنف من لا يبخسهما حقهما بالتعظيم . وانبسطا في قعودهما . فهما اشبه بمعاوية في الشأن والمقام . قال ابن ابي سفيان ، وقد دعا لهما بالطيبات ، ليقينه ان بهما اليهما حنين المستهام: لست املك، من بليغ البيان، ما يسعفني في الاحتفاء بمن وقعت في مسامعهما آيات النبي ، صلى الله عليه وسلم . فان نزولكما داري لمن رضى الرحمن عني . واني لفي جذل واستبشار. ولولا يقيني انكما من زهرة الاوفياء، واصحاب التدبير الحكيم، لملت الى سواكما استشيره في امري . على ان ثقتي وقعت موقعها ، والحمد لله . فاذا افضيت اليكما بسري ، فاني لافضي به الى الاريب الفهيم ، والخيّر الصدوق !

فاتسعت فيهما الفرحة، وباتا على وشك افتداء امير المؤمنين بالروح، اذا التمس الفدية . وان هما الا ابو الدرداء ، وابو هريرة ، ممن شهدوا مجالس ابن عبدالله، وانتظموا في رعيل المؤمنين بالدعوة الى هدم الاصنام والتوحيد. قال ابو الدرداء مفتوناً برقة معاوية: كل ما نملك من مال وروح في يد امير المؤمنين . انه فينا لخليفة الرسول الامين ، وليس له الا ان يبدي لنتوفر على الطاعة !

فقال معاوية، وقد ادرك انه نفذ منهما الى اللب، وانهما باتا له اطوع من خاتم الخلافة في بنصره : ما انا الا منكما . وما الدولة الا نبتة تسقيانها بيانع رأيكما . معاوية يجري في نهج ترسمان خطوطه ، وتحكمان معالمه . ساءلتكما بامر على جمّ من الخطر . فهل تعاهدانني فيه على نصحي ، والاخذ بيدي ؟

فقال ابو هريرة، ولحيته البيضاء تجلل صدره،وراحته تغوص في الافاويه،

وقد استطاب توابل معاوية ومواحله : بابي انت وامي ، يا ابا عبد الرحمن ، أتكون خليفة الله فينا ، ولا نصوغ لك ابلغ حكمة ، في انصع مشورة ؟... هات . كان نبي الله يستفتينا ، فنصارحه بما نعلم . وانت كاتب النبي ، فلست تجهل مكاننا من مستنزل الآيات !

فابتسم معاوية ابتسامة التأييد . انه ليدري من امرهما فوق ما يعلمان من انفسهما . وقال وهو ينظر بخبث فضفاض الى هذين الغارقين في الاكلات المرينة ، وقد رشحت بذوبها اصابعهما الضخمة العقد ، المزمومة البشرة : دعوت اليّ عبدالله بن سلام من العراق ، لاعجابي بنضيد خلقه ، ونظيم دينه . فهو ممن اوتوا نعمة الايمان ، وموهبة الحفاظ . وان سمو فرعه ليحثني على تزويجه صفية ، ابنتي . فاذا بعل لها ، فقد جمع بين سماحة المنتمى ، وذروة المجد . على اني اخشى ، اذا اوضحت له بنفسي ، ما يمور به صدري ، ان يستخف بطلبتي . فهلا خاطبتماه في الشهوة دوني ، وحفظتما مكانتي ؟... انه لينزل داراً بجانب الخضراء . فهل ترتضيان ان تسيرا اليه ، وان تزخرفا له الامنية الروعاء ، فيصبو الى ادراكها ؟

فقال ابو الدرداء ، وقد أعجب بوداعة معاوية وخفض جناحه : امير المؤمنين ، من هذه الامة ، نديّ اللب ، رحب الصدر . فلا يتيم عليها نفسه سيداً ، بل يدرج فيها اخاً رفيقاً . وفي ما يعرض على ابن سلام فادح الغبن ، ولكن رجاحة الخلق تأبى عليه الا ان يسلك ، في من يستظلون لواءه ، مسلك العطف . ان ابن سلام لمن ارباب الحظوظ ، وقد بسمت له النعمة ، وحالفه السعد . وفي هذه الهبة بعض مناعم الجنة ، يا امير المؤمنين !

وقال ابو هريرة يغلو في الاطناب : انه لممن صلت لهم امهاتهم في ليالي

القدر ، يا معاوية . ما رأيت ابن انثى يدرك الحمد والرغد، وهو في غفلة عنهما!

فاوضح معاوية بصوت يكاد يرجج في ملوسته ليان المخمل : هي الاقدار، ايها الصفيان ، وليس لنا فيها يد . ابن سلام واري الحظ . وانه لابن عمنا. ولكن اصدقاني الخبر ، وتربة محمد ، هل انطوي عن ذروة اتسنمها في عقد هذه الصلة ؟

فترددا في الجواب . ماذا يقولان ؟... أليس عليهما ان يوافقا على رغبة السيد المطلق؟...ان التلذذ بالطيبات لخير من هذا الاحراج. والتفت بعضهما الى بعض، كأن هذا يستعين بذاك على النجاة من الفجوة الضيقة، ولن يسلما في اجتيازها من الخدوش. وشعر معاوية بحيرتهما، فضحك وقال : لا عليكما . اعتزمت ان ازف ّ ابنتي صفية الى عبد الله ، وهو من بني اعمامها . فلا تجهدا الخاطر في ابداء رأي قد يوشح باللومة. جل ّ ما عليكما ان تنصرفا الى عبدالله ، وان تدليا اليه برغبتي . صفية له اذا شاء . وعليه ان يشاء . والا عاتبتكما عتاباً قاسياً . ما تعو ّد معاوية الترحيب بالصدمة والاخفاق !

فصاح ابو الدرداء ، وقد تنفس طويلاً، وهو يسلم من غصة الاستفتاء الخانقة : أيتم لابن سلام ان يعل لابنة معاوية بن ابي سفيان ، ويتدلل ؟... انه ، والله ، ليقتعد عين الشمس على رخي ّ بال . لا نكير انه رجل دين وادب ومروءة . ولكن حظه كف فضله . فلو لم يكن حبيباً الى قلب امير المؤمنين ، لزلت به قدمه دون المطلب الوعر . ليشمخ عبد الله بانفه ، فقد بسم له الزمن بسمة التصافي والامان !

فقال معاوية، وقد تعو ّد هذه المجاملة، وبات لا يحس بوقعها لفرط ما يساق اليه منها : ألا اسرعا اليه وابلغاه مشيئتي. اني اراه لابنتي صفية كفوءاً كفيا.

وارجو ألا تخرج صفية عن رأيي ، وقد جعلت لها من نفسها شورى . فمن احبت اختارت . على ان يكون من المنزلة على رجحان !

فمالا على الافاويه ميلة الوداع ، وكلاهما يمسح شفتيه بسبابته . ونهضا بتثاقل همة ، وبطء خطوة ، يرددان الآيات . ومعاوية ينظر اليهما باسماً ، ومن نظراته تفيض المراوغة ، فتخضب وجهه . انه ليدفعهما الى الختل مكبلين بسلطانه ومهابته ، وهما يجهلان ما يرى وما ينوي . وانى لهما النفاذ الى ما يغلي به صدره من كيد ، وكل ما يحسنان التحدث عن الرسول ، والتغني بآيات الكتاب ؟

وما ان توارياً حتى صفق معاوية بيده جذلاً ، مرنح الاعطاف . فاطل من وراء الستار ولداه يزيد وصفية . فمال بيزيد على قلبه ، وهو يقول : دعني اشم فيك رائحة جدك ، وعمك ، وولي عهدي . انت ريحانة نفسي ، وعنوان غدي . فما تعب ابوك باطلاً في تشييد هذه الدولة الشاسعة الآماد . لقد وطدتُ ركنها ، وبذلت في سبيل نهضتها وسموها اصدق مجهود ، وامضى عزيمة . ولست اريد ان يقبل بعدي من ينازعك فيها اللواء ، ويسلبك الصولجان . هذه دولة بني امية ، اصحاب السيادة في الجاهلية ، وفي الاسلام . ينتقل فيها الامر من سيد اموي ، الى سيد اموي . فمن الجد ، الى الاب ، الى الابن ، الى الحفيد . وقد عالنتك ان من حباك روعة السؤدد ، يا يزيد ، يضمن لك بهجة القلب . أرينب باتت منذ الساعة في عصمتك ، ومتناول يديك . فما دهمنا فيه الزمن ، سنبلغه بالحيلة ، وانف الزمن راغم . فكن على ثقة وازنة بابيك ، الحابس عليك جنى الدهر !

وعانقه بحنو وصفاء . لن يشقى ابنه لاجل امرأة ، وسيجود في مرضاته

بكل ما تنتفض به نفسه من دهاء . فما بذل من جهد ، في اقتناص الخلافة من علي، سيسخو بمثله في انتزاع اريتب من عبد الله. واستحل لبلوغ الارب كل حرام ، شأنه في جميع مناحيه الصعاب . فلا حرج عليه في تسخير الضمير لادراك الامنية . والخدعة ، انجع سلاح، في الظفر بالمراد . قال يزيد ، وقد شاقه من ابيه الحدب الصادق عليه: وماذا اعد ابي لفصل اريتب عن عبد الله ابن سلام ؟

فضحك معاوية المعجب بالاحبولة المنصوبة ، وقال : هل رأيت لابيك نديداً في تدبير المكيدة ، والاستئثار بالامر ، حتى لينكر ذو الحق حقه ، يا يزيد؟... ألا كن قويم الرأي في ابيك . لا كرهن عبد الله على استئصال اريتب من وكره ، استئصاله الشوكة الغارزة في خصره . سينبذها فتغنمها ، وتدفأ بنارها . انك لتبدو لي ترتعش كالمقرور !

فشده يزيد . أيقوى ابوه على هذه الاعجوبة ؟... فمن اي معدن هو اذاً ابوه ، وقد طاول الخوارق ؟... قال يزيد بلجلجة : أيطلقها عبد الله ؟

ـــ سيطلقها . بشراك . وسنزف اليه صفية ، اختك . فلا بأس علينا اذا عوضناه من الزمردة ياقوتة . أترانا خاسرين في الصفقة ؟

ونظر ليرى ما يكون من ابنه . أترضيه المساومة؟... فاطرق يزيد. انه ليكلف اباه ما يعدو الطاقة . ولكنه الهوى الخانق الانفاس . فقال معاوية . وقد لمس في ابنه الحيرة : لا ترهب . اريتب حلال لك . ولا تقلق على صفية ، عندي لها رقى وتعاويذ . فلست بمن يطرحها لقمة سائغة للمزدردين . اني اضن بها على اشداق الافاعي. وابوك لا يجازف بخطوة. حسبك ان تظفر بطماحك، وعلى معاوية رتق الفتوق !

وتناهى في ضحكته . انه لطروب . وما استطاع يزيد استيضاحاً . فكل ما يشتهي ان يحس بانفاس ارينب تغشى وجهه ، وتهيم في مسمعه ، وتختلط بانفاسه . له قرص الحلوى ، وعلى ابيه التدبير . وقف على هذا الاب المجهود الشاق ، ولن يضير اباه ان يبادله السعي . تضحية بتضحية . وامسك معاوية، بيد رفيقة ، بكتف ابنته صفية ، وقال : ان ما ندعوك اليه لعلى جسامة ، يا صفية . ولكنه هناء يزيد . فانت لا ترضين عن تعس اخيك . يزيد يهيم بارينب بنت اسحق ، زوج عبد الله بن سلام ، وعليك انالته المبتغى !

فاجابت صفية بلهجة سمحة : انا على ما تطيب به نفس ابي ، ويصفو له زمن يزيد !

ولاح فيها الذكاء ، والاقدام ، والصباحة . فهي على هيف ، ووثبة خاطر . ينطق فيها الجمال الانوف ، المتلألىء بنبل السلطان . فكأنها درجت في الاقمطة ابنة خليفة ، والوقار نجيتها منذ اطلقت صرختها البكر . وهي في اساريرها اقرب الى يزيد منها الى معاوية . على ان محياها رتع في نصوع الندى . قال ابوها : شخص ابو الدرداء وابو هريرة ، الساعة ، الى عبد الله بن سلام يخاطبانه فيك . ومن الراهن عندي انه سيجيب النداء . على اني مبلغه اني اطلقت في امرك يدك . فانت تكتبين بنفسك مصيرك . واذا استطلعك عبد الله رأيك فيه ، فعالنيه بانك لا تبتين له على جفوة ، وانك راضية بان يباعلك ، على ان يطلق ارينب بنت اسحق !

فابتسمت صفية . انه لشرك سوف تتحطم فيه اضالع عبد الله . قالت تكبر سعة الحيلة : سأردد على مسمعه ما شاء ابي !

قال : يكفي ان يعلم ، الآن ، انك لا تمانعين فيه زوجاً ، وان فرض

البعولة هجران اريئب . ولك ان تصوغي الطلب في اعذب بيان ، واصدق اداء !

فاتسعت ابتسامتها اعجاباً بدهاء ابيها . معاوية يقيس ويفصل على هواه . هذه العباءة لهاتين الكتفين . وهذا الفرس لذاك الفارس . قالت صفية : سأخاطبه في ما تطمئن اليه نفسه ، ويوقن به ان الخلافة تجرر اليه اذيالها !

وضحك الثلاثة معاً . وضم معاوية اليه يزيد وصفية وهو في غبطة السعيد . وقال : الشكر لمن جمع . ما اشتهيت من زمني الا ان يزينني بالمعرفة في سياسة الناس ، وبالسؤدد الجليل المدى ، وبالاولاد الاذكياء . ولقد وهب لي ما جنحت اليه ، فالحمد لله ، ثم الحمد لله !

وشاقه هذا المثلث المستوي الزوايا . دهاء ، على دهاء ، على دهاء !

١٠

ابو هريرة ، وابو الدرداء ، يتهاديان ، على شيخوختهما الرضيّة، الى مقر عبد الله بن سلام . وما برح عبد الله يسائل نفسه عن هذه الحفاوة البالغة به. فقد اغرقه معاوية في فيض من الاكرام. وهو ازدلاف، لا يعتمد عليه ابن ابي سفيان ، في سوى من يرتجي منهم الغوث والنصرة . ففيمَ يتفق لعبد الله ان يغيث به امير المؤمنين ؟

وبنى ابن سلام تخميناً على تخمين، وهدم ظناً على ظن . حيّره معاوية، واثار فيه الفضول اللبيك . على مَ يريده في هذه الدعوة المظلمة العين ؟... وتنفس، وقد قيل له ان الشيخين ببابه . قال : ليدخل صاحبا الرسول !

لا ريب انهما يحملان اليه مطلب معاوية . ففي صدريهما نفثات ابن ابي سفيان . ورحب وجامل . وشكر وتناهى في الاطراء . ان في هاتين الشيخوختين الصالحتين لنفحات من نبي المسلمين

وفسح للشيخين في صدر المكان. بجيئهما اليه فضل ومنّة . وتكلم ابو هريرة بمنطق رجل الدين الهادىء، الموزون، فقال : من الاجحاف ان يرتاد عبدالله ابن سلام قاعدة معاوية ، ولا يكون له فيها الملقى الاثير ، والمهد الوثير . ان هو الا غصن من اغصان هذه الدوحة النامية . ابناء قريش في طليعة الصفوف ، وقد كانوا رسل الجهاد . وامير المؤمنين انتهج النصفة في الاحتفاء بابن عمه بتقدير السمح، ورحابة المشتاق !

فلم يدرك عبد الله ما يلقى في سمعه . ما هذه الفاتحة الخجلة الديباج ؟... أيكون ، في معتقد معاوية ، بهذا المقام الوزين ، وهو يجهل نفسه ؟... انه لايثار حقيق بالفاتحين والاقيال. وكاد زوج ارينب يضيع في غلو الايناس. ما يدعو الى الترحيب به باجلال وعظمة،وما اقدم على جليل عظيم؟...فهو عامل من عمال هذه الدولة ، يقوم بما يشير به عليه ،معاوية ، صاحب المكانة العليا في المطمئ العربي . فما اهاب بابن ابي سفيان ، الى رفعه ، الى حيث يكاد يرتاب بكونه هو اياه ؟

وأرتج عليه . فما اطاعه لسانه في جواب . بل هو لما حضره الرد على ابي هريرة، كان قد سبقه ابو الدرداء في الشوط ، فقال : من نعم الله على امير المؤمنين ، معاوية ابن ابي سفيان ، انه دعمه برجال المروءة والوفاء ، والعقل والدين . فالتوفيق يطوّقه من جميع الجنبات . ولقد سمعنا ، من ثنائه على عامله في العراق ، عبـدالله بن سلام ، ما ملأ القلوب استبشاراً . ان امير المؤمنين ليرى فيك علماً من اعلام هذه الدولة،ووجهاً من وجوهها الكرام!

فشرق ابن سلام بريقه ، واستعاذ بالله من هذا المديح الطافح المكيال . أيريد به معاوية شراً ، فطبخ له السم في الدسم ؟... ووانبته مخاوف امرأته ارينب : « ادعوك الى الحذر من ابن ابي سفيان . انت حياله طفل يُجرّ بخيط. ولست منه في بعيد حيلته ، ولا في رهيب مكره. يطعنك في صدرك وهو يقبلك في جبينك . يهدهدك على ريش النعام، ليوقظك على دبابيس ! » . تذكر مقال ارينب، ولكن ... لقد ضاع. قال: روحي فدى امير المؤمنين. نحن زغب في خوافيه . فما شأننا في بنيان هذا الصرح الركين ، وقد شيد دعائمه الخليفة المفضال بيديه ؟... إنا لقوم نؤمر فنطيع . وان نكن نقوى ،

في خدمة معاوية، على مأثرة، فاننا لنقدم عليها بنافذ رأيه، وماضي قدرته. ولولا حسن تدبيره، لزلت بنا القدم، وادركتنا الظلمة المدجان!

فقال ابو هريرة، شاحطاً في الابانة: ان له فيك لرأي الخطر. فيؤثرك على جميع من تضمهم اصقاع العرب. وما دعاك اليه لسوى مشاطرتك فلذة كبده. فان منزلتك السامقة منه، مالت به الى وقف ابنته صفية عليك. فليس يجد سواك جديراً بمصاهرة امير المؤمنين!

فارتاع، وقد انجلى له السر. معاوية يريده على الزواج بصفية، ابنة الخليفة. وعاد يتذكر هواجس اريتب، ووساوسها. خافت من معاوية على نفسها، وهي في خوفها على حق. ابن ابي سفيان يحاول ان يحبها بضرّة تقاسمها قلباً ترتع فيه وحدها

وارتبك. هذا الالطاف من معاوية ذهب بروع عبدالله. على مَ تنطوي مصاهرة البيت المالك في الاسلام؟... وألمّت بعبدالله بن سلام الغصص الشوائك. هذا احراج. وخشي على اريتب. فكأن دعوة معاوية تنعاها. لم يكذب حدسها، ولا طاشت رؤياها. ذلك الشبح الفاصل بينها وبين زوجها ان هو الا معاوية. ولقد استفاقت من الرؤيا وهي تحسب هامتها محطمة على نواتىء الصخور. وستتحطم هذه الهامة بزواج عبدالله بابنة الخليفة. ولكن أيعقد لعبدالله على صفية، فيحفل منزله بضرّتين؟

تردد ابن سلام في اقرار امره. ان الكفتين لراجحتان. وليس يدري الى اي كفة يميل. اريتب ذات يسر وبهاء. وبنات معاوية الثلاث على بهاء ويسر. هؤلاء من قريش. وتلك من قريش. اريتب تتوكأ على طلالة خلت منها حسان العرب. وبنات معاوية يرفلن في جاه يعزّ فيه النظير.

فالتفوّق مرموق في الناحيتين . غير ان عبدالله يهوى اريتب . والهوى حكم وسلطان. فالقلب لا يخفق خفقتين متساويتين. وشفع في اريتب حب عبدالله لها ، فتجرأ ابن سلام على القولة : امير المؤمنين ينفحني بما لست به خليقاً . يكفيني من الشرف ان اكون خطرت له في بال . على ان لي زوجة هي اريتب بنت اسحق. وانا من قوم يخافون ألا يعدلوا، فامسكوا على واحدة. ولا اراني استطيع ان اكون لاثنتين . مدّ الله عمر امير المؤمنين ، وابقاه لنا حامياً نلوذ به، وهادياً نستضيء بنبراسه. انه ليكلفني رفعة انوء باعبائها !

فنظر اليه الشيخان المخضرمان بعته وبله . أتنزل عليه نعمة امير المؤمنين ويعرض عنها ؟... هذه قحة لا تبدر من فطين . قال ابو الدرداء : أيكابر عبدالله بن سلام، وما سيطوق هامته،من نبل،يشتهيه اكابر اهل الارض؟... أيعرض عليك خليفة الرسول ابنته ، فتمانع ؟... ربي ، ان هذا لكفران . انت تلعب بدمك ، يا عبدالله . معاوية لن يصبر على الخزية . فاني لاخشى ، اذا عاندته في المطلب، ان يحفظها عليك، فتدور بك الدائرة .ولست ارغب لك في المصير الانكد ، يا ابن اخي . إن يصاهرك معاوية ، فقد شقّ امامك دروب الجنات !

فتلجلج عبدالله في النطق . لا ، ليس من حسن الصنيع الاحجام عن قبول عطية الخليفة . معاوية اعلن ، فكأنه ابرم . وقال ابو هريرة بلهجة الايمان : انك لتسيء الى نبي الله في نكوصك عن اجابة النداء . فان معاوية خليفة سيد المسلمين . فاذا عصيناه ، فقد عصينا الرسول . وماذا يتكافأ من دنياك وهذه الهبة ؟... ليس من اليسير ان تصاهر ابن ابي سفيان . فتهبّ ريحك ، ويكتنز عودك ، وتبيت الدولة النامية الجذع ملك يمينك . انت

ويزيد في بسطة العديل، ومرتبة المثيل . وما يدريك اي غد مورق ستنقلب فيه ؟... فالخلافة قد تحوم عليك ، وفي بردتيك من الفضل والدين ما عطل منه يزيد . أفلا تبيع اريب بخلافة المسلمين ؟

فسال لعابه حيال المنصب الاسمى . وتراءت له أعنة الدولة في عينيه ، فيسوس بحكمته ، ويتبع رأيه ، هذا الملك الضخم . وقابل بين الحب والجاه ، فاذا الجاه اطيب واشهى . ولكن اين عهده لاريب ؟... أينكث العهد ؟

وظل على اضطراب . بسمة ابنة اسحق ما تزال تطغى على جنانه . فهو بها مقيد الساعدين. قال ابو الدرداء يحضه على الرضى ،وقد هاله منه الاحجام: دع عنك ميول الفتوّة. فأنت من صفوة رجالنا علماً ونخوة. وخليفة المسلمين، وقد عجم عودك ، شعر بتعجي" جلالك ، فشاء ان يستند اليك في رعاية بني قومـــه. فان تلكأ عن الاجابة ، حرمت اخوانك العرب سديد نهجك ، وتضيع علمك . وهي اساءة لا يغتفرها لك ارحم الراحمين !

واستعدى عليه الدين ، ليقينه انه من المتعبدين . فلا يهادن في صلاة ، ولا يعابث في سجدة . فالتقى فيه طبع حصين . قال ، وهو في بحران ضاق به عليه مجال التفكير : وأريب ، ماذا يكون من اريب ؟ . . . لها عهدي وقلبي . أيعيش المؤمن في دنياه بوجهين وقلبين ؟

فضحك ابو الدرداء ضحكة ساخرة ، وقال: أتكتب لاريب الرجحان على ابنة الخليفة ؟... ان اريب لفي ذروة الحسن والخلق . ولكن المعادن لا تستوي في الحظوة . فالذهب اغلى من الفضة . والفضة اسمى من النحاس شأناً . والحجارة الكريمة باجمعها في اشراق النجوم ، بيد ان الماس زينتها . والماس نفسه على مراتب . وابنة الخليفة ، مهما وهت دون اريب نضارة

وسنا ، فانها لاوفى مكانة ، واكرم محتداً !

فتاه عبدالله في ما يجهز له معاوية . وجمجم بحذر الخشيان : لو كنت اعلم ان امير المؤمنين يدعوني الى الزواج ، لرغبت اليه ان يعفيني من مشقة الرحلة . والله ، ليست تجد نفسي في السؤدد مشتهاها . ضمة من اريتب تكسف عندي البدور !

فتصاعدت ضحكتان هازئتان اطلقهما شيخان لا يحسان بلهيب الشوق، وضرم الجوى. فلقد تناسيا لاعج الحب، والسن قعدت بهما عن نشوة الهيام. قال ابو هريرة : كنا في مثل ما انت فيه من مواهة العمر ، يا عبد الله ، نبيع الحياة بفم رويّ، وناظر وريّ . فماذا لقينا ؟... طارت عنا السكرة، ووقفنا ازاء الحقيقة واجمين . المرء لربه ولحاكمه . وانت ، وقد اجدت التعبد لربك ، فعليك بالاخلاص لحاكمك . معاوية اراد، ولا بد من اجابته الى ما يريد !

فكاد يجنّ . على انه اعاد النظر في المعروض ، بل المفروض ، فما ملك همة المغالبة . سلطان معاوية قهر الاخلاص لاريتب . فسقطت ابنة اسحق في الميدان محطمة ، مهشمة . فالفوز لابن ابي سفيان . والتصقت عينا ابن سلام بالارض ، لا يبدىء ولا يعيد . فهو صنم كئيب . قال ابو الدرداء ، وقد شعر باستسلام زوج اريتب الى رغبة معاوية: على مَ عولنا، يا عبد الله؟

فغمغم بجزع : على ما شئتما . غير اني ارى ان ابقى في هواي على ديني ! وواثبه الخجل من تلك المقيمة في العراق. قال ابو الدرداء موقناً بالظفر: أنبلغ معاوية انك راضٍ عن المصاهرة ؟

فاطلق عبدالله زفرة سالت بها عزيمته ، وقال بصوت كسير ، وهي به

امتناعه : ابلغاه ما يشوقكما . عزيز عليّ ان اعود الى اريب بضرّة تلطم فيها شموخ الحب والوفاء. اريب ليست ترضى بمن تزاحمها على عبدالله بن سلام!

فامضتهما هذه الميعة . أيتفق له ان يتزوج ابنة معاوية ، ويسخر بالحظ المؤاتي ؟ ... وغادراه الى الخليفة ضاحكين من حمقه الدهاق . واغتبط معاوية واستبشر وهو يبصرهما ، بين يديه، على طلاقة . وقال بنهل البسمة: اراكما على اشراق . فماذا تحملان من طريف ؟

وادرك من الاعين الجواب . نال ما اشتهى . ابن سلام وطن النفس على مباعلة ابنة الخليفة . فقال ابو الدرداء ، وهو من بهجته في نشوة السعيد: أيكلفنا معاوية امراً ، ولا نكون فيه على توفيق ثريّ ؟

فقال معاوية، وابتسامته الماكرة تطغى على وجهه ، فتطلق من حدقتيه نظرات حادة ، مؤمنة بالغلبة ، تبطن الصلب ، فيما تتستر بطراوة المخمل : وهل اجابكما الى المبغى ؟

فقصفا ضحكات صاخبة، ندّية،تطاير منها في جو الايوان رشاش حفيل. وترنح ابو هريرة بقولة يقطر منها الزهو المصانع : أيتحامق حتى يركل عطية السماء ، يا امير المؤمنين ؟

وقال ابو الدرداء باعجاب المفاخر بسمو القدرة، وراجح الفطنة :هززناه حتى لم نبق فيه من اريب اثراً ، يا امير المؤمنين . سلاها ، وبات لصفية ابنتك قلباً خافقاً ، وعيناً مشتاقة !

فقال معاوية، وقد سرّه هذا النجاح الوشيك : احسنتما ، ايها الصاحبان الوفيان .والله ، ان فيكما لدهاء اللبيب، وحكمة البصير . معاوية لم يعتمدكما عفواً . فان يقينه بسعة علمكما حمله على انتدابكما للامر الجُسام . هذه

الاساريرِ الخفيّة لا تزال تضيء بما انعكس عليها من وهج النبوّة . الصلاة والسلام على ابن آمنة الرشيد !

واجزل لهما العطاء . وبهذا العطاء خطب المودات . فزادهما له اجلالاً ، وبه اعجاباً .قال : ومتى يقبل عبدالله الينا خاطباً صفية ؟

فاجاب ابو الدرداء : عندما يشاء امير المؤمنين !

ـــ ليقبل غداً الينا . خير البرّ عاجله . فما انقضت، في خاطري ، هذه الامنية ، حتى شمّرت لها على وثّاب سبوح . عبد الله زهرة من يزدان بهم قصري ، وتستضيء بملكي . فمرحباً بالطلعة المهيبة ترصع داري بلمعانها السنيّ !

فعاد الشيخان الى ابن سلام يبلغانه ان الموعد ضُرب غداً. امير المؤمنين بالانتظار.فقال ابن سلام وهو يزحم بنفسه القلقة:نحن طوع مشيئة معاوية، حامينا ، وهادينا . سأكون صباح غد بين يديه !

ووقف من غده وقفة الحائر . ويله على اريتب ، وويله من معاوية. ولم يكن يتشوّق الى صفية ، فيتزود منها البسمات ، وينهل اللذائذ،وقد ساوره فيها حب المجد، فكسف لظى الهيام. ذهبت به مطامعه الى احتلاب الضرع، واقتعاد ذروة السيادة ، وما صفية غير سلم للارتقاء . ولم ينم ليلته ، وقد بدت له طويلة ، محرجة . يغالبها بالنعاس ، فلا تنعقد له اجفان . وكلما انطوى حجاب من الليل ، توهم عبدالله انه في برقع الفجر . ولكن الالوان استوت في تلك الليلة الدكناء . فالغسق والبكور تشابها . وما ان يتراءى لابن سلام ان المؤذن على وشك تحية الصباح ، حتى يغرق الليل في ضجعة المكسال .

وكاد ينكر اذنيه فيما تحملان اليه صيحة : « لا إله الا الله ! »، تمايل بها اعطاف دمشق خشوعاً وتحناناً . فهل تخدعه اذناه ؟... وسجد سجدة الصبح يناجي بها الغفور الرحيم ، خالق الارض ومن عليها . وماج في عينيه قصر الخضراء ينفض منه الغبش ، وينجلي عن مبسم ريّان. فاستطاب سكنى هذه الدار الرخيّة، القريرة العين، المشدودة الاطناب في منبسط مديد من الارض، والطامعة في مطاولة السماء !

١١

معاوية ، في ايوانه ، يرصد وثبة الزمن . فما عانده الدهر الناشز العاصي ، ولن يعانده . فانه ليقبض منه على خطامه ، ويديره انى شاء . هذا عبده . اذله في الحرج الصعب ، فلن يحرن في الهين اليسير

واقامت صفية وراء ستار . قال معاوية : اصغي الينا في ما سوف نتخاطب فيه . وعندما ادعوك اجيبي بما حرصت على تلقينك اياه . فلا تزيدي كلمة ، ولا تنقصي حرفاً !

وجلس بجانبها اخوها يزيد يشهد فصول المكيدة بقلب ضاق بالغبطة . أرينب اضحت له ، وسيخلعها عنه عبدالله بن سلام كالعبء المضني . وانتصب بالباب سعد ، حاجب معاوية ، يعلن بصوته الجهير : عبدالله بن سلام يستأذن على امير المؤمنين !

فقال معاوية بابتسامته الخادعة : مرحباً بفتى قريش ، يا سعـــد . صدر المكان له . فليدخل بامان !

فظهر عبدالله في ابهى حلة ، يتأرج فيه عطر الشباب ، وتخضبه الاناقة الجليلة المبسم . وانحنى بين يدي معاوية ، وهو يقول برهبة المتقين : السلام على امير المؤمنين ، خليفة الرسول العربي !

فانثنى ابن ابي سفيان بصولة النمر وقد تهادت اليه الغنيمة . ليس له الا ان يغرز بمخالبه لتبيت في حلقه . قال : والسلام عليك ، يا ابن الميامين ،

ويا اخا يزيد ، ابني !

ونهض يستدرجه اليه. وما امسى بجانبه حتى جنح الى معانقته ،قائلاً بشجو المشوق : كم يزني اليكم الحنين ، انتم ابناء عشيرتي . فاجاهد في ان اجمعكم حولي ، واضمكم الى صدري . واني لافاخر بمن طبع مثلك ، يا عبدالله ، على فضل وحمية . فان ذوي المروءات لقليل . اجلس هنا، على مقربة مني . فمن المسرة لعمك ان يساقطك الحديث !

وفسح له حتى كاد يكون لزيزه . قال ابن ابي سفيان متناهياً في الرقة: ماذا ابقيت بعدك في العراق؟... أمطمئن انت الى طاعة القوم لنا ، ورضاهم عن نهجنا ؟

فراقه هذا الاستفسار الحشيم من معاوية . لكأنه يلقيه على ندّ كفوء . قال عبدالله : عاش امير المؤمنين، دعامة هذه الدولة وهامتها . فالامر لا يصلح الا به . ان القوم ليجدون فيه السيد الحازم ، والاب الحكيم .ولقد لوت الدسائس من اعنتها ، واطفأت الاحقاد من نيرانها . وان يكن هناك موتور ، فليس يجد من يلتفّ عليه ، وينجده ، وقد ايقن الجميع ان الركن الاموي أيّد ، منيع !

فابان معاوية ، راضياً عن الزلفى : اطربتني في مقالك ، يا عبـدالله . فيشوق عمك ان ينعم بعطف الامة ، وما يكافح لسوى نصرتها . والله ، لن يغمض لي جفن الا وقد ضمنت الحق لطالبه ، ومنعت الاذى عن البريء . فلست اطيق ان اذوق اللقمة ، والعدل يتمرغ في الضيم !

فنظرت صفية الى اخيها يزيد نظرة الاعجاب بابيها، و كأنها تقول: ما ادهاه! وعضّ يزيد شفته لئلا يقهقه ضحكاً . فالحيلة محكمة النسج. قال عبدالله بن

سلام : جهد امير المؤمنين، في رفاهة الرعية، مرموق، محسوس. فما للاسلام، بعد سادته الذاهبين ، غير معاوية ينشر ألويته ، ويوطد جنباته !

فقال ابن ابي سفيان يبدي خفض الجانب : ولكني لست في النضال وحدي ، يا عبدالله ، وانتم حولي تعضدونني ، وتسعفونني في خطوي . هذه الدولة ليست صنع معاوية وحده ، وله فيها شركاء مصابيح !

والقى يده الى كتف عبدالله ، وقال يثخن في المماكرة ، وليس له ان يزيغ عن خلقه: أيجوز ان انكر فضل عبدالله بن سلام في حميته وشممه؟... ان له على هذه الدولة لليد البيضاء، بما ينفحها به من الخدمة النصوح، والسعي الامين . جاءني عنك ما صفا له خاطري ، يا ابن اخي، وابهج كبدي. انت، في هذه الدولة ، من اركانها النجباء!

فشاعت في عبدالله المسرة . ان ما يسمع لندي فتيق . معاوية يرفعه الى شامخ في دولة الامويين . قال وهو لا يكاد يتماسك : نحن في خدمة امير المؤمنين ، وفي طاعته ، كيفما دار بنا الزمن . فاذا بدت منه الرغبة في العمل الجادّ ، الحازم ، فاننا لنقتفي خطواته في الصعيد القويم . ان معاوية لنبراسنا وهادينا . به نجلو الحلكة، وتتبين المنهج السديد !

فقال ابن ابي سفيان ، وقد اطربه ان يرقد عبدالله بن سلام على وثير الامان : عبدالله ، لست اغالي في مغالنتك انك بمقام ابنائي . وان تكن تروم الدليل على كونك من فلذات الاكباد ، فان في ما حمل اليك ابو الدرداء ، وابو هريرة ، من نبأ جليّ ، للحجة القاطعة . اعجبني ما ترتع فيه من محامد ، فاعتزمت ان اعقد لك على صفية ابنتي !

فهزت الغبطة عبدالله، وقد عدت الهبة وسعه. صدق الشيخان المعتمان،

المتبرنسان . قال وهو يكاد يتلجلج لفرط الطرب : هذه منة عليّ لامير المؤمنين لا اراني لها اهلاً . فان مباعاتي ابنته لترفعني الى حيث لا يحق لمثلي ان يرتقي . فالنور الوهاج يعمي من لم يتعوّد مرآه ، يا امير المؤمنين !

فقال معاوية ، وقد تمثل ابنه يزيد في فرحة من تهادت اليه الامنية الضالة : انت اهل للخلافة نفسها ، يا عبدالله . فلو لم تكن على قدر راجح من الكفاية ، لتحامى معاوية مخاطبتك في لباب شؤونه ، وعميق دخائله . فما حملني على هذه المصارحة غير الثقة بكونك من الصفوة ، الغيارى على احدوثتنا ، ومكانتنا . فليس بالامر الضئيل ان يفاوضك خليفة المسلمين بامر زفاف ابنته اليك ، وانت تعلم ان العيون ترمق بناتي ، وان اكابر رجال الدولة يطمعون فيهن ، وانا امسك بهن يدي !

فانحنى عبدالله ، وغمغم : هذا اسراف في الجميل ، يا معاوية . واني لاحل ابنتك مني المحل الارفع . فهي عقد المجد في جيدي ، وياقوتة العز في صدري . اعجابي بامير المؤمنين ، واخلاصي له ، يدفعانني الى اقرار مشيئته بطاعة واجلال !

فعاد معاوية يلقي يده الى كتف ابن سلام ، وهو يقول ببشر يطغى على اساريره النابضة بالختل والرثاء : بارك فيك الله ، يا عديل يزيد ، وقرين صفية . انه ليسرّ معاوية ان يلمس فيك صدق الاجابة . سأدعو ابنتي فنسمع منها رأيها . وانه للرأي العالي ، ان شاء الله !

وانتفخ صدره ، وتمايلت اعطافه . اطعم عبدالله بن سلام لعقة من عسل ، فامتلك منه الجنان . وراقه من نفسه بعيد الدهاء . فانه ليجرّ اليه الجبل بايماءة ، اذا استطاب . وصفق بيديه ، وهو ينادي : صفية ، ابنتي صفية !

فاجاب من وراء الستار ، المضروب في جانب من الديوان ، صوت مرن" كالوتر الاغن ، قائلاً : ها انذا، يا امير المؤمنين !

فاستفهم بارتياح الطفح : انت، يا ابنتي؟... رضي الله عنك . ابن عمك عبدالله بن سلام يجالسني . واني لمحدثه : يزينك من حشمة، ووسامة، فرغب في بعولتك . فما رأيك في ما يبدي صفيّنا الحمي" ؟

فرددت الامثولة ، وقد حفظتها ، واجادت التمثيل : الرأي رأي امير المؤمنين !

فتصنع معاوية البراءة، كأنه خالي الضمير من كل مواربة ودس":ولكن امير المؤمنين يضيمه احراجك ، يا ابنتي . فالكلمة كلمتك في ابن عمك . وليس يخفى عليك ان عبدالله من مفاخرنا ، ومن قادة الفضل فينا . فاذا عقد له عليك ، ازداد النبل وهجاً ، والخلق الرضي سموّاً . فماذا تقولين في هذا النجد الكريم ؟

فاعلنت بصوت يحفل بالتأني : ان يكن امير المؤمنين يرى، في ابن عمه، ذلك الخفيق بابنته ، فمن يعرض له في بال ان يعاند امير المؤمنين ؟

فتظاهر معاوية بالحبور . قال : اذن انت راضية عن استئثار عبد الله بك ؟

قالت : وكيف لا ارضى ، وقد رضي امير المؤمنين ؟ . . . غير اني اعلم ان عبدالله بعل لارينب بنت اسحق. والجمع بيني وبين ارينب مما لا تشتهي نفسي !

فارتجف عبدالله ، وكاد يثب من مقعده . فالتفت اليه معاوية ، وقال بلهجة المستوضح الجاد" : أتسمع ، يا عبدالله ؟ ... صفية لا تبخل عليك

بنفسها. غير انها لا تطيق ان تصدمها ضرة . فهل لك ان تنصفها من ارينب، يا ابن اخي ؟

وطمى الدهاء . ونشر معاوية استيضاحه بلهجة السائل، كأنه يسترحم. على حين تنطوي نفسه على صادع الامر . والا فكيف تتجلى البراعة في المخاتلة؟... فكاد عبدالله يختنق. ما هذه المهواة يحفرها تحت قدميه معاوية؟... وخاف . وحاول الابتعاد ، كأنه يخشى السقوط في البؤرة . ولمس فيه معاوية الفزع، والجزع. فقال يخفف من اضطرابه : صفية لا تدفعك الى ما تهون فيه، يا عبدالله. الا انها تجنح الى المسالمة .ولا مسالمة، وصفية وارينب في عنقك . فعليك ان تمسك على واحدة ، مخافة ألا تعدل بين اثنتين . أما طرقت اذنيك الآية ، آية ربك المالك يوم الدين ؟... ان رغبتي في ان اعقد لك على ابنتي لا تفرض عليك الاستسلام ، على كره منك ، الى مطلبي . فانت حر في ان ترفض ، او ترضى . هذه صفية تجاهك . وتلك ارينب في منزلك . فكن لمن شئت منهما ، ولا ضير عليك !

فزاد في احراجه ، وقد اطلق له يده في الخيار . أيميل عن أرينب ؟... انها لطعنة في صميم الوفاء . أيشيح عن صفية ؟... انه ليدمي حشاشة معاوية. وهو اذا ادماها ، انقلب سعده الى ويل . فان معاوية لينتقم منه بما لا يبقي فيه على نفثة . ووضحت حيرته . فهو أشل الارادة ، مهدود الرأي .وابى الخليفة الداهية الا ان يستغل هذا التردد تنتفض به جوانح عبدالله بن سلام، فقال بمكر حاطم : لا عليك، يا عبدالله . ان تكن صفية تحرجك في قلبك، فدعها . لست اريد لك الاذى ، يا ابن اخي . كن لارينب ، ولا تحفل بابنة عمك معاوية . انها لتغالي في مطلب عزيز !

فامعن في اقلاقه . أيرفض ، وفي الرفض محوه ؟... أيقبل ، وفي القبول خسة ؟... وكاد يصيح : ما هذه الاجوبة المحكمة ، يا معاوية ؟

واستبطأ ابن ابي سفيان الجواب ، فقال في شبه همس : أأبلغ صفية ان لا نصيب لها منك ؟... لا حرج عليك في الاعراض عنها . فانت لارينب ، وهي لديك اسمى !

فاعلن بحشرجة : صبراً ، صبراً . فمن حقي استشارة ضميري !

وعاد الى القول متعتعاً ، وقد هاله طلاق ابنة اسحق : ألا يجوز الجمع بين الاثنتين ، يا معاوية ؟... اني لضنين بارينب . احببتها حتى وهبت لها النهية والروح. وخشيتُ ، وانت تدعوني اليك ، ان اسلوها ، فتشاءمت ، وبكت. ان الرحمة لمفروضة في المحبين !

وزفر زفرة كاوية ، اطلق مثلهـــا يزيد من وراء الستار المضروب . وتراءى لمعاوية ان الفريسة تكاد تفلت منه. فقال بعذوبته المأثورة: لسنا نميل الى ايلامك ، يا ابن اخي . ان تكن ترى ، من الصعب ، هجران ارينب ، فابقَ لها . قد تكون ابنة معاوية لا تساوي ابنة اسحق . وانت تأبى ان تعدل صفية بارينب !

فاطرق . ان في ما يرشقه به معاوية لسخراً خادشاً. ولكنه يهوى امرأته ، تلك . وشهده الخليفة تعباً ، مكدوداً . فهو يتلوى بين حبه المكين ، وشهوة المجد. ارينب قلبه . الا ان صفية غده. وامسك يزيد بصدره لئلا تهي جوانحه ، وقد ضاق بها الصبر . أيكفر عبدالله بن سلام بحبه لارينب ، ام يحرص عليه ، وينبذ ما يعرض عليه معاوية ؟... وساد القلق الديوان . حتى صفية تولتها الوهلة . فان يصدّ عنها عبدالله ، فقد خذلها ، واخزاها ، ولا كت

سمعتها الافواه

ورقب الثلاثة من عبدالله ان يتكلم . فان مصيرهم بين شفتيه . هو في هذه الدقائق الحرجة ، الخافقة بالرعدة ، ارفع شأناً من معاوية ، وانفذ قولة . هو رب قصر الخضراء ، وسيد الدولة الاموية . ونظر اليه ابن ابي سفيان بابتسامته الخالبة . الا انها ابتسامة تبطن اللبكة ، ويرين عليها الوجل . فان يرفض عبدالله ، يهدم مكانة معاوية ، ويحطم قلب يزيد ، ويثلم مناعة صفية ، مما جاهد في ان يتحاماه ابن هند ، براجح حاله . قال يستحث على الجلاء لدرء النازلة : هلا تكلمت ، يا عبدالله ؟

فالتفت ابن سلام الى الستار المضروب ، وقال بحرقة : صفية ، صفية ، ألا رفقاً بارينب !

فاجابت بصوتها الاغنّ : ابنة معاوية لا ترتضي الضرائر ، يا عبدالله !

— حتى ولا ارينب ؟

— حتى ولا ارينب بنت اسحق !

فكاد يصرعه ارتباكه . فهو غادر اذا خلع عنه زوجته في سبيل الجاه . وغاب في وجومه . فامسك بذراعه معاوية ، وهزه ، وهو يقول : عبدالله ، ستكون شريك عمك في ملكه العريض . ستقبض على اعنة هذه الدولة من اطراف بلاد الروم ، حتى اقصى بلاد فارس . كلمتك كلمتي . ورأيك رأيي . معاوية ما اصطفاك ، لابنته ، ليبقيك عاملاً زريّاً في العراق ، بل ليعدّك لغد ابهى ، وهو الموقن انك اهل للمعالي ، يا ابن اخي . لا ، لم اختر لك صفية حباً لصفية ، بل كي تدنو مني ، وتصبح من اهل بيتي . على شريكي في الاحكام ان يكون من اقرباء معاوية الادنين ، من ابنائه ، او من اصهاره .

وهو ما دفعني الى مخاطبتك في امر ابنتي . اني ألقي في كفك المجد والسعد . فقابل بين ما اسخو به عليك ، وما يلتمع في اريتب من رونق ، واحكم بنفسك لنفسك . انك لخير الحاكمين !

فاندلعت فورة العز العريض ، والسؤدد الطليق ، في نفس عبدالله ، وحجبت بسناها لألاء اريتب . فتلاشت ابنة اسحق في عين زوجها ، رويداً، رويداً ، كأن غمامة تلفها وتغيبها في مطاويها . وامتدت باصرتا ابن سلام الى ما ينشد له معاوية من جاه ، وما ينشر عليه من فتون . وما تمالك ان قال : انك لتغريني بدمي ، يا امير المؤمنين !

وانفرجت شفتاه عن بسمة بليلة . فضحك معاوية . حُلّت العقدة . قال الخليفة بمجهود من يستعجل الاستهواء، واستلال المطلب: واخيراً، ياعبدالله، على مَ اتفقنا ، يا ابن اخي ؟... افصح . عمك يشتهي ان يبيت على نور !

فكان الجواب وجيزاً ، كومضة البرق في العتمة الفاحمة : رضيت ، يا امير المؤمنين !

نزلت كلماته على الثلاثة كالبلسم على ناغر الجراح، والندى على الازهار العطاش . وتنفست الصدور بهناءة وارتياح . قال معاوية ، وهو يلتمس النفـاذ الى الاعماق : أتطلق اريتب ؟

ــ هي طالق مني ثلاثاً ، يا ابا عبد الرحمن !

فجمجم ابن هند ، وقد فاز ، وعيناه تجاولان الستار المضروب : هداك من نعبد ومن نستعين . ألا اوفد على عجل الى ابنة اسحق من يبلغها انك في حل منها ، وقد طلقتها . وتعال الى صفية ، فأعقد لك عليها . انت منذ الساعة ساعد امير المؤمنين الايد ، وسيفه الصقيل !

الجزء الثاني

خبز ... فابتهاج !

١

ــ ابطأ سيدك ، يا رسيلة !

وتأوهت وهي ترجي قولتها . فان بها ، من مضض هذا الابطاء ، ما قعد بها عن شؤون نفسها . فجفاها الرقاد، وفترت فيها شهوة المأكل والزينة. ولم تكن تجد الراحة ، وهي القلقة في جلوسها، ووقفتها . فلا تطمئن الى ليل، ولا تستأنس بصباح . فان ذلك النائي عنها ، احرجها في غبطتها ، فاحست بانها تموج في دوار من الحمى . وادركت رسيلة الزنجية ما يلمّ بسيدتها ،فلم تبتعد عنها . هي ابداً بجانب هذه الروعاء ، المتدفقة بلظى الحسن ، كأنها منه على دائم الغليان

ورسيلة جارية يمنية ، سوداء كالمصيبة. الا انها عطوف، كالغمامة الوطفاء في لاذع القيظ . نشأت في هذا البيت على وارف امانة ، وما برحت تفيض بامانتها واخلاصها، كالام الرؤوم. فتشعر بشعور سادتها في الفرحة والترحة. تطرب، كأن المسرة تغمرها اذا طربوا، وتألم، كأن لهفتهم لهفتها في الجزع الغاشي. وهذا الصدق، في المودة، اقامها من السادة مفزع ثقة،وموئل ركون.

فيفضي اليها بالدخائل ، كأنها معقل الاسرار

وعالها البلبال الناشب في سيدتها . فمالت عليهـا تواسيهـا : سيعود ، يا مولاتي . فالرحلة بعيدة، شاقة . ودمشق لا تُدرك ، من العراق، بوثبة!

فقالت ربة الدار ، وقد بدت في اشراق الريحان ، مع نفورهـا من التجمل ، وليس بها اليه ، في بحرانها ، هوى : كنت اوثر ان يصدف عن التلبية ، وما اراني فيها على سكون. ان قلبي ليحدثني بوقوع خطب جلل. والقلوب تصدق في تخمينها ، يا رسيلة !

واطلقت كلماتها بنواح . فهي على هلع يذيب منها مسكة الصبر .قالت الزنجية،تحاول ان تمنع عن سيدتها انهيار الرجاء: لا خوف عليه، يا مولاتي. غادرنا في صولة الاسد ، وسيرجع الينا في بسمة الامير المنصور !

فكشفت ربة الدار عن مخاوفها ، معلنة بارتماض يتقد بين جوانحها : انا اخشى عليه من ذاك ، يا رسيلة . من ابن عمه ، خليفة دمشق . فهو ممن لا يستنام اليهم في مروءة ، والغدر ديدنه . فيخلع القلوب من نوطهـا ، فيما يعانق اصحابها عناق الاب لبنيه. يعنف في عناقه، حتى يختنق، ويزهق .وهي محبته لمن حوله ، محبة الطامع في الابادة والتنكيل !

فصاحت الزنجية برهبة : أينطوي لمولاي عبدالله على حقد ؟

فضربت سيدة المنزل ركبتيها بيديها ، وهي تقول بانتحاب يائس :هل من يدري، يا رسيلة ؟... ان موقف سيد دمشق ليبعث على الحيرة .وليس في الناس من يدرك امره . قد يكون صديقاً ، فينقلب الى عدو . وقد يكون عدواً، فيبدو في ثوب صديق. دعوة عبدالله الى دمشق تثير ظنوني!

فما استطاعت الزنجية الا ان تشاطر سيدتها لوعتها.ومن هي سيدتها؟...

اريئب بنت اسحق ، شاغلة معاوية، ومالئة قلب يزيد. فلم تكن تهدأ وعبدالله في غيبة ، وقد نفث في خاطرها ان معاوية سيباعد بينها وبين ابن سلام ، فيرميها بفاجعة، يجول فيها مكره، جولة الثعبان الارقط. وغامت ملامحها، وملامح جاريتها، بالكمدة اللهفى، فوجما في شجو كاسف. ذاك الصفو الطريّ الوجنة ، السائد المنزل ، ينذر بالرحيل الوشيك

وجاهدت اريئب في امتلاك روعها ، ففتّ في ساعدها . انها لفي وهن العاجز عن الاسترسال الى الطمأنينة . واقامت ترقب عودة عبدالله يوماً ، فيوماً ، بل ساعة ، فساعة . وكلما اقبل ركب ، من دمشق ، اوفدت جاريتها رسيلة للوقوف على اخبار الهاجر النائي . فتعود اليها الزنجية مرتخية اليدين ، ساقطة الهمة ، وتغضّ الاعين بالدموع ، كأن انقطاع اخبار عبدالله، ينعى عبدالله ، الى من تنتظر طلته بحرقة المشتاق

وفي ليلة ، طويلة البساط ، غفل عن اريئب الارق ، فنامت . أغفت والفجر يتوائب . ودهمتها فور نومتها رؤيا هزتها في رقادها الصفيق. ابصرت بنفسها تمشي على حبل ، واذا الحبل ينقطع بها ، فتسقط الى الارض محطمة الاضلاع . واستفاقت وهي في شهيق . هدّتها الرؤيا . ونادت على عجل رسيلة الزنجية ، قائلة لها : طيري الى حيث تقبل من دمشق القوافل ، واستوضحي امر عبدالله. انا موقنة ان لنا منه اليوم خبراً !

وكان قد انقضى على رحيل عبدالله الشهران ، وبدأ الثالث . واسرعت الجارية الى مستقر القوافل ، وعادت على حالها في كل استيضاح ، منحنية الظهر ، مخلوعة الجناح . فالتفتت اريئب الى السماء مستشفعة ، متسائلة : الى متى يطول ، يا رب ، هذا العذاب ؟

ولكن الباب يُقرع . هذا فارس يبدو في متنفس الاشعة . من ؟.. عبدالله ؟... واندفعت بنفسها الى الباب تفتحه . يا صباح الخير !... على ان الباب ، وهو ينشق ، زخر بالخيبة . هذا ليس عبدالله بن سلام. انه لفارس مجهول . فاستطلعت اريتب : من الرجل ؟

لا ريب انه يحمل اليها خبراً عن زوجها . ففي اساريره ما ينطق بما في صدره ، وقد رشح مظهره بنبأ خطير يريد ان يلقي عنه اعباءه . فاعادت الاستفهام : من الرجل ؟

فنعتعه سناها ، ووقف منها على شده . ما هذا الحسن الصاعق ؟...وكاد يضيع عما جاء يعلن . فالصباحة المتألقة شغلته عن المهمة العجلى . وشعرت أريتب بوقع جمارتها عليه ، فانقذته من خبله بقولها: ايها الرجل ، من انت؟... أتكون رسول عبدالله بن سلام الينا ؟

فتذكر ، وهي تلفظ في مسمعه اسم عبدالله ، وقال : عبدالله بن سلام ؟... هو ما قلت . انا رسوله . وقد جئت ابلغك عنه انك... ولكن من انت ، يا اخت الشمس ؟... اريد زوج عبدالله !

فصاحت بشغف بالسماع ، وبالحاح في استلال الرسالة من فم المؤتمن على البلاغ : انا هي زوجه . هات ما تحمل . كيف حال عبدالله ؟

فزادته احجاماً عن الافضاء بما يجيش بين حناياه. جاء يعالنها انها طالق . ولكن أيجوز طلاق مالكة هذه الوسامة المنزلة ؟ .. وراعها بطئه في البيان ، فعلت منها صيحة اشد : تكلم . ما بلك لا تصارحني بما في صدرك ؟ . . . ماذا تحمل من عبدالله؟... هل اصيب بمكروه ؟

وتعاظم بهاؤها في قلقها .وخشي الرسول الاحراج ، فاوجعه ان يكون

دعي الى ابلاغ رسالة الطلاق . واطرق لا يبين . فهو في اشفاق على هذا الحسن الموّار بالفتنة . بل اشفق على من خلع عنه هذا الاشراق اليتيم . كيف قسا قلب عبدالله بن سلام ، ومال عن هذه القسامة المعطار ؟... فما كان من ارينب ، وقد احرقها سكوته ، الا ان قبضت عليه تهزه ، وهي في رهبة خرجت بها عن اعتدالها . وزعقت بارتجاف : ايها الممعن في ايلامنا ، هلا اوضحت لنا ما يحملك الينا ؟

فاعلن ، والكلمات تفرّ من ذاكرته ، فلا يهتدي اليها لسانه : انا مقبل من دمشق . ولقد كلفني ابن سلام ان امرّ بك لابلاغك تحيته . فهو بخير !

ــ وماذا بعد ؟... ماذا ؟

فما خفي عليها ان الرسالة ما تزال بتواء . قال وهو لا يدري كيف يؤدي النبأ : ثم ان اقامته في دمشق سوف تطول !

ــ أتطول ؟... وما يدعو الى الاطالة ؟

قال ، والمضض يساوره ، والكلمات تتصاعد من حنجرته كأنها اشواك : وربما لن يعود !

فاعولت كمن نزلت به مصيبة قاصمة : لن يعود ؟... ألا افصح . افصح . انك لتحمل اليّ ما هو انكد وادهى . هل اصيب عبدالله بشر ، فبات لا يقوى على العودة الينا ؟

فنهد الى الافصاح بالتدريج ، وقد هاله صاعق الايلام : لا . هو بعافية . غير انه يميل الى الهجران . فلن يرجع الى دار تقيمين فيها !

فاذهلها عن نفسها . أيهذي ؟... ماذا يقول ؟... وجمجمت مستفهمة من فم تراخت اعصابه : لن يرجع الى دار اقيم فيها ؟

فاشاح عن مرآها ، لئلا يتجلى له مبلغ وقع النبإ عليها . وقال بصوت كسير ، اقرب الى الجمجمة منه الى الجهارة : لا . لن يرجع . وقد رأى ابلاغك انك طالق منه !

ونطق بما تولى بيانه . عبد الله بن سلام ينزع الى الطلاق . فلم تصدق. هذا خداع وزور . غير انها اختلجت بسوء الظن . قد تكون صرفته عنها دمشق . واستندت اريتب الى الباب لئلا تقع . ونظرت الى الرسول بحقد وخجل . هل طلقها عبد الله ؟

ودخل الرسول . فلم يجد من الصواب ان يفضي ، وهو بالباب ، بكل ما عنده . وحدجته اريتب بناظريها الهالعين ، وهي تود ان تشق صدره ، وتطلع دفعة واحدة على كل ما يموج في هذا الصدر من فوادح . وظهرت فوراً لعينيها يد معاوية.معاوية اكره عبدالله على الطلاق. بيد انها ما برحت توتاب . من المحال ان يكون عبدالله بن سلام طلقها منه ، وهو المستعر بها هياماً .ومشت الى صدر المنزل، يلحق بها الرسول، والزنجية رسيلة .ونشر رسول عبدالله ما استودع : الطلاق ، يا مولاتي . اني اسوق اليك مشيئة عبدالله بن سلام . وقد كان زوجك !

فما بكت اريتب . غير انها اطرقت وهلة ، كمن تفاجئه الصدمة ،فيسهو بوقعها عن الشعور بألمها . وطال السكوت . هو سكوت اللوعة اثر البادرة الحاطمة . ورأت ابنة اسحق ان تتماسك حيال النبإ اليقين ، فقالت بهدوء عجيب ، بعد قلقها الفائر : أبلغ عبدالله انا سمعنا فاطعنا . فليس لكلمته فينا مرد !

ونهضت لا يختلج فيها عرق بوجل.وانتصب الرسول يستأذن في الانصراف.

فما شيعته بنظرة ، بل دخلت حجرتها تنزوي فيها ، ولا تجيز حتى لرسيلة ان تجالسها . وذكرت مخاوفها . كانت على حق في منع عبدالله من اجابة دعوة معاوية . قالت له : « انه ليتلاعب بك ، كما يتلاعب بالخصرة في يمينه ، وانت لا تدري . فيرفعك ويحطك . ويتجاذبك ذات اليمين وذات اليسار . وانت تحسب نفسك ما تزال حيث انت ! » . وما توقعتْ وقع . نجحت الخدعة . ولكن ... في سبيل من طلقها عبدالله ؟... ولماذا طلقها؟... أهذا هو الحب في شرع المغرمين ؟

واعتزمت الصبر على المحنة . الا ان ما ودت النفاذ الى لبه ، هو الباعث على القطيعة . فما ذنبها ، وما عذر عبدالله ؟... بمَ اغراه معاوية ، واستلبه؟... واقرّت بعجزها عن مناهضة ابن ابي سفيان . فهي دونه دهاء وسلطاناً . دولة السياسة ، الماكرة ، امضى شفرة من دولة الحسن . ولما برحت حجرتها كان المساء يدق أوتاده . فهرعت اليها رسيلة بذعر في اساريرها ، تقول بنواح : مولاتي ، مولاتي !

فاشارت اليها ان اسكتي . وجالت في حديقة المنزل ، لا لتأنس بظل الشجر ، ولا لتشمّ الزهر ، بل لتتيه ، في الفضاء الطلق ، على تفكير غضيض . وما برحت تسائل نفسها : بمَ اغرى معاوية عبدالله ، فاقنعه بالطلاق ؟ ... هل اختار له من هي ابهى واسنى ؟ ... هل اسند اليه احد المناصب الرفيعة في الدولة ؟

وخشيت ان يكون حدثه عنها بما يسيء الى السمعة والكرامة . وليس يحجم معاوية ، في سبيل هدفه ، عن التهشيم والتحطيم . والا بمَ اقنع عبدالله ، وفصله عنها ؟... وما هدفه من التفريق بين زوجين صفيّين ؟

واحتقرت الحياة . وبدت لها الدنيا هزيلة ، بشعة ، فازدرتها . غير انها لم تقوَ على نبذ عبدالله . فهي لا تبرح على دين هذا الفاجر ، المتلاف . انها لتهواه حتى في التجني . وانحدرت من عينيها دمعة بمتوهج الجمر ، ساخنة ، محرقة . ومشت في الحديقة ، والليل قد لفّ بكفنه الاسود تلك الارجاء الظليلة ، فحجب فيها الاخيلة والاشباح . ولم تكن العين لتتبين أثراً ، كأنها فحمة منطفئة . على ان اريئب سمعت وقع خطوات في العتمة المنشورة . فارتعشت وصاحت بخشية : من ؟

فعلا الجواب يبعث على الطمأنينة : انا ، يا سيدتي ، عبدتك رسيلة !

فجلت عنها الرعدة . وتراءى لها ان رسيلة ، وحدها ، بقيت لها من دنياها . فالجميع غدروا بها ، عدا هذه الزنجية السوداء . قالت : وما حملك على اللحاق بي في الظلمة؟... اذهبي ونامي . ودعي السهر للمتعبين المهجورين !

فادمت كلمات سيدتها قلبها . واستفهمت بحرقة : وهل هجر عبدالله ابن سلام ؟

فابانت اريئب بشهقة مقهورة ، خلخلت فيها الروع : هجر ، يا رسيلة. هجر بلا لفتة وداع . آه من ذلك الحب العابر ، الصائر في انتفاضة ، الى رماد . كنت احسب عبدالله اوفى وارحم !

ولكنها، على نفورها منه، لم تكن تدري كيف تلومه . فان له عذراً. وهو عذر تريد ان تقف على مطاويه . لماذا هجر عبدالله ؟... وبرى شفتيها السؤال ، لفرط ترديده، دون ان تقع فيه على جواب. ودهمتها ازمة نواح، فارتمت بين يدي الزنجية تغمغم : عبدالله اذاقني الويل ، يا رسيلة . رحلته الى دمشق ضربة فأس محكمة في جذع هنائي . دعوته الى الامساك عن

الاجابة ، فضحك مني . معاوية هو الهادم . فلا صفا له دهر ، ولا طال له بقاء . ان دولة تقوم ، على الكفر ، لتنهار في اغاضة . ربِّ ، انتقم لي من ممزّق الاكباد !

٢

معاوية ويزيد وصفية ، مثلث الدهاء العاتي ، على بهجة متوامية . فما اشتهوه اقبل طافح الكيلة ، واعد الجنى . عبدالله بن سلام خلع عنه اريئب ، واعتقها . فهي حرّة . ولم يبق ليزيد بن معاوية الا ان يرطب شفتيه بذوب السحر ، وينقع الغلة . اريئب اضحت سهلة الارتشاف

وقهقه معاوية ضاحكاً . وضحكته ذات صخب وهدير . وقال ، وهو لا يكاد يتمالك ، وقد ماع في المسرة : اصطدناه اعمى النهية والقلب . وسنضحك منه طويلاً ، ونمعن في تحطيمه . اوفد اليوم الى اريئب من يبلغها انها طالق منه . لك البشرى ، يا يزيد . فما ان يرجع رسوله قاطعاً ، حتى نوفد اليها رسولنا خاطباً . فتسرّ بعد اكتئاب . ينفض منها عبدالله يده ، فيتلقاها يزيد بحرص . وستحقد على عبدالله حقداً يودي به . فلا تطيق ان تراه ، ولا ان تسمع به . وهو اقصى الني . فاغتبط ، يا رجاء ابيك !

وضمه اليه راضياً عن نفسه . افلح دهاؤه العريض حيث لا تنجح حيلة . فلن يرقد ابنه على حسرة . ان غبطة يزيد لتعادل سرير الخلافة . وانتشى يزيد حتى كاد لا يثبت على حالة . بسمت له النعمة . فما ولاية العهد لديه بارجح من اريئب . هذه منتهى الامل ، ومبتغى الضمير !

وقام يعدّ الايام والثواني في صمود الرسول الى اريئب ، وعودته الى دمشق . ان العراق لقطر بعيد الشقة ، ودّ يزيد ان يكون اقرب امداً .

واندفع الى الحمرة يذيب فيها اوقات الانتظار . والانتظار ممضّ، طويل، يعاني فيه المرتجي الضيق والغصة . على ان النفس راضية . فلن تفلت ارينب من القبضة المحكمة

والتفت معاوية الى ابنته صفية يقول : وانت عليك بالمضي في اجادة تمثيل الدور ، يا ابنتي . احسنت في البدء ، وعليك ان تبدعي في الختام . وانك لتعرفين الامثولة ، فاتقنيها . على عبدالله بن سلام ان يتدحرج من شرك ، الى شرك ، حتى يمحى !

فحاولت شفتيها الابتسامة . هي في دهاء ابيها ، فلا يخف معاوية . قالت : ليكن ابي على اغتباط . صفية ابنته !

وتعالت الضحكات . فالثلاثة في متعة . وما برح عبدالله بن سلام ذلك الضيف المفدى . فالاكرام يؤدى له بسخاء واسراف . فابى معاوية الا ان يطوّقه بالاجلال . هذا رب قصر الخضراء ، وسيد دمشق ، ابن الميامين ، وحفيد المساعير . وفرض ابن هند على جلسائه مجاملة عبدالله ومصانعته . ان كلمته للكلمة العليا في الدولة ، وسيكون صهر الخليفة

وتعجب اصفياء معاوية من هذه الحفاوة البليغة بعبدالله . ولمس ذوو الرأي فيها مداورة وروغاناً . أيزف معاوية ابنته الى ابن سلام ؟... انه ليسخر به . ولكن الحيلة خفيت بهذا الطلاق . فلو لم يكن عبدالله ذا حظ، في ابنة معاوية، لبات بغنى عن سلخ ارينب منه. فليس مضطراً الى الهجران، لولا وعد معاوية القاطع بصفية . وحيال هذا التعليل وقفت الالسن عن التجريح والتقويل. وقليل من درى ان الحافز الى الطلاق حب يزيد لارينب، وحسب

وعبدالله آمن بصدق معاوية . ليس ما يدعو الى الخدعة . فما ثمة خلافة يفرض اغتصابها النفاق . ان هناك الا ابنة اختار لها ابوها زوجاً . غير ان عبدالله ، كلما خلا بنفسه ، خاف من نفسه . فاي اساءة اليه بدرت من اريئب ، ومن في النساء كاريئب ؟... أيبيعها بالجاه والسلطان ؟

ويبدو له طيفها في الليل ، فيؤرقه . فينهض من سريره جاحظ العينين ، مرتعش اللب. ويحاول الفرار من حجرته. ان هذا الطيف ليندد به . ويتفق له ان يبرح الحجرة مغلوباً على امره، مضطرباً ، مهدود الحيل . فان اريئب لتنتصب ، امامه، بغيظ ونقمة، وتصيح به: يا غادر، أتقع في فخ معاوية؟... حذرتك منه ، فما احترزت . انت حقير تطمع في المعالي، لا عرفت الشبع. ولاجل المعالي ، ضحيت بحب ، لو نزل على ميت ، لعاش !

وآلمه الغدر . ولكنه اتاه . وهاضت الخيانة عظمه. غير انه اقدم عليها. فما تحامى ، ولا ارتدع . وقام يرصد رسوله . ماذا كان من اريئب ، وقد ابلغها الرسول انها طالق ؟... وتمثلها عبدالله في لهفتها وجزعها ، بل تمثلها تشتمه وتهينه . ولم يكن عزاؤه ، الاوحد ، في سوى كونه سيرتقي ، في سلالم الدولة ، الى حيث يعزّ على من يطاوله . فيثب من السفح ، الى القمة، معانداً احكام الطفرة . وفي هذا الصعود سعد كفيل، لن يتوافر بجانب اريئب. ومن يدري، فقد يركب مقعد الخلافة، وما يزيد بمن يصلح للمنصب الاثير!

وتهادى على بسطة من الآمال . وشابه يزيد في عدّ الايام المنقضية على الرسول . كم طوى من الزمن ، وكم سوف يطوي . وشاء ان يتناسى اريئب . فالمجد يحجبها عنه . واحس بعطش الى المجد لم يكن فيه . فمن العظمة والشموخ ان يقبض بيمينه على الارواح ، فيديرها كما يستطيب .

فان ما تعب معاوية ، السنوات الطويلة في تشييده ، سينتقل الى ابن سلام في بعولة عارضة . سيكون له مهراً . وما اغلى هذا المهر . فيأخذ عبد الله ارفع ما عند معاوية، في مقابل ماذا ؟... في مقابل لا شيء . بل في مقابل طلاق . فما ارخص الثمن !

وأطلّ الرسول . أطلّ ، وفي ملامحه موجات اضغان . انه ليرشق عبدالله بنظرات عابسة ، تنفث الامتهان . فما اختلج ، في العراق ، من حسن في عينيه ، وملأ اجفانه ، وعقد عليه الاهداب ، لئلا يتوارى، فيتمثله كلما خطر له ان يتذكر الروعة والصباحة، مال به الى ازدراء المتجرىء على الاشاحة عن البهاء السني ، وهو يكاد يعدل به دنياه . قال ابن سلام ، وقد اغضى عن نظرات الرسول الاليمة ، الحافلة بالتعريض والاحتقار : ماذا فعلت في الكوفة ؟... هل احسنت اداء الرسالة ؟

فاجاب العائد من مكمن الروعة ، بصلابة تجنح الى الخشونة : تم الامر كما يشتهي سيدي. ابلغت ارينب مشيئتك فيها . انت منها بعد اليوم براء !

فاستوضح بوجل : وماذا قالت وانت تطلعها على رغبتي ؟ . . . ماذا بدا منها ؟

فطاب للرسول ان يدمي حشاشة هذا الساخر بالصباحة المثلى، المستخف بجهارة يتضاءل حيالها التاج والصولجان . قال وعيناه القاسيتان تخدشان عيني ابن سلام القلقتين : كل ما قالت انها تدعوك الى العمل بما تشتهي !

ــ أما اضطربت ؟. . . اما اذابت دمعة ؟

ــ وقفت موقف السماح . فما انتفض فيها عرق بدهش، كأنها تتوقع المفاجأة . خافت في البدء عليك ، وقد خيل اليها ان شراً دهمك ، فكادت

تجنّ". اما ولباب المهمة تكشف لها، فخمدت كأن الامر لا يعنيها. انعل ما يطيب لك!

وانجلى بيان الرسول عن استخفاف صافع بعبدالله. فليس لمن يملك، ذرة من الرشد، ان يشيح عن الحسن المصفّى. ولهجة الرسول، وموقف اريب من النبإ، لطما عبدالله في انفه فاذلاّها. اريب لم تكترث لطلاقها منه. جزعت وهي تحسبه في اذى. اما وقد علمت، ما يدفع الرسول اليها، فتولتها الاستهانة بالجانح عنها. هو الخاسر في هذا الطلاق، لا هي، ولن تعدم مثيل ابن سلام، فتزف اليه. ولكن هل لابن سلام ان يظفر بمن تضاهيها، في مغرورق البهاء، ومستفيض الانوثة؟

وكمد عبدالله. وانحنت كتفاه. شعر بغدره. كان يعتقد ان اريب ستعول وتضجّ. فاذا وقع النبإ، عليها، جليد على جليد. ربما تألمت لانقصاف زهرة اكثر منها لهذا الهجران السخيف. وخجل عبدالله من الرسول، فصرفه عنه، مكتفياً بما انتهى اليه. ولم يتجرأ على الالحاح، في الاستقصاء، لئلا تتساقط السهام على السهام. حسبه ان الطلاق تم، وانه نجا من عبثه بسلام

على ان الغضاضة دهمته. فحبا الى معاوية متقلقل الخطو، مكسوف الجبهة. يكاد يغور في شدقيه النطق، وقد ارتخى فكاه. ما باله يعدي قلبه؟... أيمحو عمراً راجحـاً، من الحب والاخلاص، بمنصب غير مضمون؟... باع لذة ايامه، بلذة لا تبرح متوجرجة، تعروها الشكوك. وخذلته ركبتاه، وهو يدنو من قصر الخضراء، كمن يقبل على المعركة اعزل. وتضايقت في صدره انفاسه. ونهكه التفكير المضني. ألا يحتقره

معاوية، وقد رآه يزهد في أرينب ، سيدة الرونق الاتم" ، لرفعة ربما كانت موقوتة، خاطفة ؟

وخشي نظرات ابن هند ، ابن هند الحاطم الهادم ، المجهول اللون ، المبهم المطلب . فقد يساوم على شعرة، وهو يريد الرأس . قد يتحدث بالماء، للتضليل، وهو يبغي النار. فليس، حتى لمن يعرفه، ان يدرك دخلته. واستأذن عبدالله ، على ابن هند هذا ، بلجلجة تسودها الحيرة. ومثل بين يدي الخليفة بابتسامة مطعونة، مغتصبة . شاء اعلان النبأ ، فخاف. على ان بشاشة معاوية حبته همة الافصاح ، فقال : زاد الله ايام امير المؤمنين وضاءة واخضلالاً . عاد اليّ رسول ارينب بالنبإ السارّ . فلم يبق بيني ، وبين ابنة اسحق ، نضاضة من مسالمة . فهي في ضفة ، وانا في ضفة ، لا يجمعنا دثار !

فانتشى معاوية . وانتفش في سريره . وقد تراءى له انه جبل شامخ ، يملأ الدنيا . قال ، والفرحة تترقرق في اساريره ، وتفشو في عروقه رعشة ماتعة : هل انتهى ما بينكما ، يا عبدالله ؟

فابان ابن سلام مجتهداً في اظهار المرح: انتهى كل جامع، يا امير المؤمنين!

فاعلن سيد الدهاة بحبور تتغلغل فيه المواربة على طفاح : ان الحظ ليواكبك ، يا ابن اخي . فاهنأ بما كتب لك دهرك من نعيم . هذا انت ، وهذه صفية . اريد ان تنتهيا الى اتفاق !

على ان قصر الخضراء درى بعودة الرسول . ووقف على النبإ قبل ابن سلام . وما الرسول من سوى رجال يزيد . ولقد عرج على ابن معاوية يحدثه بما كان من ارينب . ثم مال على ابن سلام يقص عليه كيف ادى الرسالة ، وماذا لقي من المطلقة المهجورة . وماج قصر الخضراء بالغبطة . افلتت يدٌ

اريئب، لتمسكها يد . قال معاوية، وضحكة الخبث تتطاير من مرشفيه على اجنحة طلاق : البشرى لنا جميعاً . نلنا الارب . احمد الله، يا يزيد ، وقد وهب لابيك القدرة على انالتك مناك . ضربنا ضربتنا الاولى، فعلينا بضربة الاجهاز . كوني على قدر المهمة ، يا صفية . ان في مقولك للكلمة القاضية . اعتقد انك ملكت من ابيك سر التلاعب بالالفاظ !

وانتظر معاوية ان يأتي اليه عبدالله. فلا بد من طلته ليقضي بما صارحه به الرسول ، العائد من العراق . وها هوذا بين يدي الخليفة لعقد الصفقة . فالمساومة وقعت ، ولم يبق غير الانجاز . ونادى معاوية ابنته صفية لتبرم ما عاهدت عليه . فارتفع ، من وراء الستار، المضروب ابداً في زاوية الايوان، صوت صافي النغمة ، جازم النبرة ، يقول : ها انذا في حضرة امير المؤمنين!

قال معاوية بدماثة في اللهجة ، كأن في لسانه الشهد : بجانبي ابن عمك عبدالله بن سلام ، يا صفية . ولقد جاء ينبئك انه حقق المطلب . فالطلاق وقع بينه وبين اريئب بنت اسحق . وكل صلة بينهما انفصمت عروتها . وهو ما ابتغيتِ ، يا ابنتي . فمتى يروقك ان يعقد عليك لعبدالله ؟

فاجابت ، وهي تتظاهر بالارتباك : هل لامير المؤمنين ان يعفيني من وعدي؟... وهل اجد عند عبدالله عن نكولي سماحاً،فلا يجفوني لديه العذر؟

فاعترى الانقلاب اسارير ابيها . واستدارت عيناه ، وجحظتا ، كأنها روعتا بالفاضح المخوف . قال بما يشبه العواء : اعفيك من وعدك ؟...أغبية انت ؟... أتجهلين ما بدر منك ، في عبدالله ، من عهد قاطع ، ام يطيب لك ان امسي هزأة في المسلمين ؟

وتضعضع عبدالله بن سلام . ووهت عزيمته . ما هذه النكبات المتألبة

عليه؟... وتلظى جبينه بالحمّى الناهشة. وجفت حنجرته كأنها صخرة صلداء. قالت صفية بصوتها الحازم: وعدت ثم ايقنت اني لست قادرة على الوفاء. قد يكون عبدالله ممن يعز عليّ الظفر بهم. الا اني لا اريد ان اشقيه. فلا مودة بيننا، ولا ملاطفة تجمعنا. فانا منه، وسأظل، في موقف الغريبة من الغريب!

فنظر معاوية الى ابن سلام كأنه يقول له: «أتسمع؟». ونظر ابن سلام الى معاوية كمن يقول: «أتروقك هذه الخدعة؟... دفعتني الى المهلكة وابيت عليّ النجاة!». قال معاوية يخاطب ابنته: صفية، انا ابوك، ولي عليك حق الطاعة. لست ارضى هذا التغرير بابن اخي. وعدناه، فلننجز. انت له بحكم ما قطعت على نفسك من عهد!

فما رهبت اباها. بل قالت بعزم لا يلاين، ولا يهون: لا احسب ابي يريد لعبدالله بن سلام البؤس في المعاشرة. فان اقامتي بجانبه تظلمه كما تظلمني. فلا انا استطيبها، ولا هو يطمئن اليها. ان عبدالله لمن اجنحة امير المؤمنين. ولا يشوقني ان يبدو جناح امير المؤمنين منتوف الريش!

فنبر ابو عبد الرحمن، كمن ثابت الخزية كرامته: منتوف الريش، يا صفية؟... ما هذا البيان المقيت؟

فاعلنت ابنته جازمة، لا تراعي ذمة، ولا تعتصم بمداراة: زواجه بي نذير بالمضض والخيبة. فلن يشعر بسوى العذاب والالم. صُنْه من الاوجاع، يا امير المؤمنين!

— ووعدنا له، يا ابنتي؟... ألا تعلمين اني دعوته بنفسي الى بعولتك، وانك ايدتني في الطلبة، ودفعته الى طلاق اريتب، وانت لا تطيقين حياة

الضرائر ؟... اين ما اوضحت مما تعلنين ؟

فقالت بثبات وعناد : لا يحملني ابي على ما اكره . ليس لعبدالله مني مكان لهوى . هو ابن عمي . واني لانزله من نفسي منزلة النسيب ، لا منزلة الحبيب . ولا بأس ان اسأل عبدالله ، هل يطيب له ان تقيم على خذلان ، فلا نتصافى ، ولا نتفاهم ؟

وتكلم عبدالله . عليه ان يتكلم حيال الرثاء المستشري . قال وهو يحس بانه يغيب في لجج الغدر الى حيث لا يهدأ له قرار : ولكن ما يدريك اننا لن نتصافى، ولن نتفاهم، يا صفية؟... أتحكمين عليّ،وانت تجهلينني؟... اراك ممسكة على رأي عقيم.اني لاملك طبعاً لا يبيحك الشكوى.ستكونين عندي كأنك ما تزالين في قصر الخضراء ، عزيزة سيدة . ليس لمشيئتك مرد، ولا لمكانتك أمد . انت هنا اميرة . وستكونين في داري اميرة عليّ . رأيت مني الاستنامة اليك في رغائبك جميعاً ، وسترين اني لك على استسلام مديد . وما يرهبك مني ؟... نحن من نبعة واحدة . وكلانا في الريّق الغضّ من متعة الشباب.وما يحطني عنك ؟... اذا وهب لك معاوية السيادة والشموخ ، فلن يبخل بهما عليّ ، وانا صهره ، وساعده ، والضارب بسيفه . اشفقي عليّ من الشماتة، يا ابنة امير المؤمنين !

وكادت تنساب دموعه . اي غضاضة ستلمّ به ، واي حقارة ستغشى عينيه . طلق اريناب في ابتغاء ابنة معاوية ، فاذا بابنة معاوية تركله ، كأنه حصاة تعترضها في الطريق ، وتخشى ان تعثر بها . ولكن صفية لم تقوَ على الالتواء عما تعلن . ابوها لقنها الامثولة ، فحفظتها ، وعليها ان ترددها بامانة.والويل لها اذا اهملت كلمة، او أخلّت بحرف.الرفض.ابداً الرفض.

ليس عبد الله بمن يصلح لبنات الخليفة . قالت : يحزّ في قلبي ، يا ابن عمي ، ان اسيء اليك . اني اطلق يدي، في امري، واني لاملك حق الاصطفاء . وما احجمت عنك كرهاً لك ، بل خشية ان لا نتفق . قلبي لا يميل الى زواج اراني فيه مظلومة . لقد فرضت على نفسي ان اهواك ، ان اتمثل لذة العيش بجانبك ، فاذا بي اغالب هواي ، ولا اوفق فيك لهوى . فعفوك عني ، وقد آلمتك ، واقلقت فيك هناءة الضمير !

فقال ببؤس ومسكنة : صفية ، ليتك شعرت ، قبل طلاقي أرينب ، بان التصافي محال . طلبت منك ان تقيما معاً في عصمتي ، فابيت، مشددة ان تكوني وحدك . صارحتني بانك لا تحتملين جو الضرائر ، فاسرعت الى اجابة رغبتك، وصرفت ارينب حانقة. وارينب روحي، يا صفية. فشعرت، وانا اخلعها عني ، باني اخلع قلبي . ولكني صبوت الى التضحية لاجلك ، ولاجل معاوية ابيك . معاوية دعاني الى الزواج بك . اما انا ، فوالله ، ما خطرتِ ببالي . والآن ، الساعة ، اشفقي فيّ على الكرامة . لا تعرضيني لسخرية قومي ، ولشماتة الناس . لا بأس ان اكون لك لبعض الزمن ، ثم فليقع بيننا الطلاق . ارحمي بقيا الانفة في عبدالله بن سلام ، يا ابنة خليفة المسلمين !

قالت تسوق اليه ما نفث ابوها ، في روعها ، من الاخاديع : انت من ذوي الفضل الراسخ الدعامة، يا ابن عمي. فلا خوف ان تمس فيك الكرامة، وهي على مناعة . فلن يعاب عليك حنث ابنة معاوية ، ونكثها، بل يعابان عليها . لن يقال صفية بنت معاوية بن ابي سفيان صدت عنه ، بل يقال نكثت عن العهد . وفي القولة اساءة اليّ ، لا اليك . انت قمت بما فرض

عليك الاباء، وخرجت من المعركة عطر السمعة، وما اللوم الا عليّ وحدي. فلا يشاركني فيه احد من الناس. وعذري اني رأيت، بيني وبينك، في اعماق ضميري، مهواة لا سبيل فيها الى تماسك وإحكام!

فانطلقت من شفتيه ضحكة مرّة. الا انها اشبه بالأنّة. قال: ما خرجت من المعركة إلا محطماً، يا صفية، مغبوناً، صفر اليدين. فلا انت، ولا أرينب. وانها لاشقى حال. خسرت من اهوى لارضائك. فاذا انت تتلاعبين بي، كأني دمية في اصابع وليد. ألا اذكري ربك، واتقيه. ان السخرية بنا ليست من شأنكم، وفي حوزتكم الخلافة، وانتم عماد الاسلام!

وتقلب من التذلل الى الوعيد. فقال معاوية: خفف عنك، يا ابن اخي. كان عليك ان تتأنى. فما حملك على العجلة في طلاق أرينب؟... عهدي بك من ذوي الرأي والتدبير. فاين اضعت حجاك، حرسك الله؟

فانفجر. أيدعوه معاوية الى التأني، بعد ذاك الالحاح عليه في الطلاق؟... قال بحنق: معاوية، ان خدعتك لناتئة العين. فلا تحاول اخفاءها. أتعرض عليّ مصاهرتك، حتى اذا ما اجبتك الى بغيتك، وطلبت ابنتك، امعنت في لومي وايلامي؟... هذا خَتْل بودي ان اصونك منه. ولكنه ملموس الاديم، يا ابن هند. ان السليم الطوية ليضيع فيكم. كان عليّ ان اماكر، واكايد، لمجاراتكم في ما ينتفض فيكم من لؤم. غير اني، وقد مشيت مكشوف الجبين، غدرتم بي، واذللتموني. وهي نهاية من يثق بكم من ذوي الحظ العاثر. ولكن في السماء رباً يدين، واليه ألجأ في الثأر الغليظ!

ونهض يريد الانصراف. يكفيه ما لقي. فقال معاوية يمسك به عن الرحيل: الى اين؟... لم يضمحل الرجاء. اجلس. صفية، ما بك تحاشين

ابن عمك ؟... أهذه وصيتي لك ؟... عبدالله اقرب الناس الينا ، يا ابنتي . فلا توجعيه . برّدي سعير انفاسه بعذوبة مقالك . عبدالله بن سلام من الكرام القليل !

فارتاعت من دهاء ابيها . ان معاوية لكفور . هي تلقي ما دعاها الى التفوّه به . انه لينطق بلسانها ، وهذه مشيئته . اما هي ، صفية ، فربما كان لها في عبدالله غير هذا الرأي . قالت ، وكلها اضطرار الى مشايعة ابيها في ميوله : ليس يجهل ابي انه جعل لي من نفسي شورى . فان لي مطلق اليد في اصطفاء من يهيم به جناني . ولو كنت من عبدالله في خلجة الوجد ، لآثرته على الجميع . ولكني قاصرة عن تسخير قلبي . وعلى عبدالله ان يقابل هذه الصراحة مني بالرضى والشكر !

فصاح ابن سلام وهو ينتفض ألماً : كل ما بدر منك يقلّ فيه الشكر ، يا صفية . انت ابنة ابيك . ولست ادري ما اهاب بكم الى الازراء بي ، فصدمتموني هذه الصدمة الناخعة ، واقمتموني في الناس اضحوكة . غير اني سوف ادري . فالدهاء المنشور اللواء فيكم لا بد ان تنجلي مقاصده . بيننا الغد ، يا ابن ابي سفيان !

فابى عليه معاوية براح الايوان . وصاح به بشدة مال بها الى ستر الكيد الناحر بجسيم المداهنة : هذا مكانك . فالى اين ؟... اذا تدللت اليوم صفية ، فقد تهوي غداً عن تشامخها . إبق بيننا . ثم ان صفية ليست معاوية . فان تكن لا تستشعر فيك الكفء ، فان اباها لكفء بك . هذه دنياك ، فتبسط فيها على رغد وأنس . فان في صدورنا قلوباً تنطوي لك على اجلال ومودة !

ولكنه لم يشأ ان يبقى . ليس يملك القدرة على البقاء . وايقن ان ثمة

خديعة محكمة . غير انه عجز عن النفاذ الى صميمها . فماذا يخفي معاوية وراء مماكرته ؟... ما هدفه من التغرير باصدق الناس ، واخلصهم له ؟... ووثب عبدالله من الايوان بوجه قاتم ، ورجلين تلتويان . ولم يكن يبصر طريقه . فهو ضائع الادراك . كيفما امتدت قدمه خيل اليه انه يشرف على بؤرة . وتنفس بجهد . واصطكت اسنانه بعضها ببعض ، ثم اطبقت كأنها فوهة كلاّبة ضاغطة . ولم يلجأ الى المنزل المحبوس عليه في دمشق ، بل تاه ، على ضفاف بردى ، حزيناً ، حائراً . أيكون نصيبه من معاوية هذا العسف ؟... يحقق له مبتغاه ، فيجبهه بالامتهان ؟

دعاه الى الزواج بصفية ، فلم يمانع . واراده على طلاق ارينب ، فاجاب . وان في طلاق ارينب لتحطيم قلب ، وقص جناح . على ان كرامة امير المؤمنين تعلو كل كرامة . فالاستماتة في خدمته تحجب كل هوى ملحاح . بيد ان امير المؤمنين ، طال بقاؤه ، هزأ بكل فداء ، وبكل وفاء . فما حفل بالطاعة العمياء ، ولا بالجهد المبذول ، كأن لا شأن لديه للامانة ، والمروءة ، والاكرام .

وتذكر عبدالله مواقف معاوية جميعاً . فاذا به حيال طاغية محتال . يتظاهر بوداعة الحمل ، وهو الذئب الجامح الشهوة ، المسنون الناب . فيقضم كل ما يطاول جشعه ، ولا يبالي النقمة ، ولا اللعنة . يراوغ ويلسع . يبدو في بردة الاخيار ، ليستحل المصونات . انتضى في مسجد دمشق قميص عثمان ، باكياً ، مستبكياً ، ليقصي ابن ابي طالب عن مسند الخلافة . فما استفز المسلمين الى الانتقام لعثمان ، بل الى انقاذه هو ، معاوية ، من عدل علي . فان استباحة اموال المسلمين رمته بسخط ابن ابي طالب . فاعتزم ابو الحسن عزله . فما

كان منه الا ان استعدى على علي انصار ابن عفان ، للبقاء في منصب ولاية دمشق. وجاءه ابن العاص يزين له الخلافة ، فادعاها . وليس من حق له بها. وهل لمن ينكر على الخليفة دعواه الصراح، ويغتصب منه المقام الازهر، ان يقيم وزناً لطلاق رجل من امرأة ، ولوعد لم يقترن بالانجاز ؟

وساءل عبدالله نفسه: أيبقى في الشام، ام يعود الى العراق ؟... ولكن كيف يلقى اريتب اذا عاد الى العراق ؟... وبمَ يعتذر اليها ؟... أيجرؤ على مخاطبتها اذا جازف ومثل حيالها ؟... أيقوى على رفع عينيه الى عينيها، وهو في حضرتها ؟... انه لوقح إن يفعل . لا . سيبقى في ديار الشام ، على مقربة من معاوية . فيشتم الغادر ، ويدعو عليه ، ويعيره مكره . فليس في ما اقدم عليه ما يكتب له المحمدة . ان هذا الاحتيال ، في فصل الزوج عن الزوجة ، لشبيه ، الشبه كله ، باستلال الخلافة من علي . هنا حيلة منكرة . وهناك حيلة منكرة . هنا غدر . وهناك غدر !

وسأل ابن سلام روح تلك الغارقة ، في العراق ، في اساها ، الصفح والغفران . كان غرّاً جاهلاً وهو يدعى الى طلاقها ، ويجيب . شوّه صفحة الحب الاوفى ، ولم يبالِ . نسي العهد الطهور ، كأنه من عهده في مزاح . تناسى الالفة المطبوعة ، والهيام الصرف ، ليلتفّ بعباءة مهلهلة الخيوط ، تراءت له في المنام .

قال ووجهه الى بلاد الرافدين: اريتب ، علّلني ابن عمي بالمنى الكواذب، فخدعني عنك .فالرحمة لمن ليس خليقاً بالعفو . أتحجبين الرحمة عمن يقرّ بانه من الانكاد ؟

وومض عذاره بدمعه . فهو يبكي حباً ، سلخه منه ، قوم دينهم الغش

والمين . وخاف من جميع هؤلاء الدارجين حوله . أما وقفوا على النبإ ؟... ولكنهم ينظرون اليه نظرتهم الى خائن، نذل. في عيونهم احتقار وامتعاض. خدع ارينب ، فخدعته صفية . خدعة بخدعة . على ان الدائرة دارت عليه . فهو لا يملك حتى خيمة يستظلها. فكل ما ازدخر من ثروة بين يدي ابنة اسحق فهل له ان يسير اليها ، ويطالبها بالذخر ؟... أتتقد فيه هذه الخسة ، وتكسو الصفاقة جبينه ؟... لا، يكفيه ما غار فيه من اسفاف . فلن يحاول التسفل الى دون ما تسفل اليه . لن يذهب الى ارينب . بل سيعيش في دمشق . فالحرب بينه وبين معاوية . فاما ان يخرج من المعركة مفلول العزم ، هامد النفس ، وإما ان يتمتع بنشوة الانتقام .

سيبقى للجهاد ، لاماطة اللثام عن دسيسة معاوية ، وكيده الزنيم . فمن اخلاف وعد ، الى استهانة بالكرامة . وتلفت الى ما حوله بذهول الخائب ، وحنق الموتور ، وصاح: ايها العرب الضاربون في مشارق الارض ومغاربها، أترضون ان يتولى الامر فيكم ماكر محتال ؟

٣

تلك الزعقات المتطايرة، من شدقي عبدالله بن سلام، المخضّبة بالدم القاني، وقد ناح فيها الامل الذبيح ، لم تكن تجد ، في قصر الخضراء ، غير الصدى الكابي . فان معاوية ليقهقه بملء حنجرته. ويشاطره القصر ، ومن في القصر، القهقهة الهادرة ، كأنها شماتة السواقي الصاخبة بالصيف الموؤود . فالضربة اصابت الهدف.وها هي ذي الضحية تنتفض في دمها، والسهم يشك في كبدها. ألا فليطرب يزيد . قبض على شهوته بجمع اليدين !

قال معاوية ، وهو نفسه ارتاع من دهائه الحاطم، المقوّض كل شامخ ، منيع : لم يبقَ الا ان نوفد اليها من يخطبها لك ، يا مهجة ابيك . لست اجد للامر سوى ابي الدرداء . فهو صاحبنا العامل بمشيئتنا .فان هؤلاء، المتناهين في التعبد ، يرضونني بسلامة الطوية . انتدبهم للمهمات ، وأطلق ألسنتهم في الحمد والتسبيح، فينخدع سامعوهم بمكانتهم في الدين ، ويجيبونهم الى ما يبتغون، على اعتقاد ان الله ينطق فيهم . وما ينطق فيهم سوى امثال ابيك !

وتذكر ابا موسى الاشعري ، في مؤتمر أذرح ، وابتسم . اقبل ليحكم لعلي ابن ابي طالب ، فساقه ابن العاص بفطنته، وحنكته ، الى حيث يريد . وكأن خاطر يزيد رشح بما رشح به خاطر ابيه . فالابن تذكر ابا موسى ، فيما يحدثه ابوه عن ابي الدرداء . وخشي يزيد ان يتشابه الرجلان . فيخلع ابو الدرداء صاحبه ، شأن ابي موسى في علي . ولكن في سبيل من يخلعه

ابو الدرداء ، وليس من مزاحم عنيد؟... قال ابن معاوية: ارى ان يسرع ابي في تحقيق ما نعلل به النفس. فالقعود، عن انتهاز السانحة ، قد يصير بنا الى ما وقعنا فيه . غنا عن اريتب ، فسبقنا اليها ابن سلام . واذا عفونا اليوم عنها ، فسيسبقنا اليها جمع حفيل !

فاستوضح معاوية ببعض الدهش : أتراهم منها على صبوة ؟

فهتف يزيد يجلو مفاتنها ، وهو منها في كلف المتبول : ان فيها ، من نواضر الرونق، ما يفتح عليها حتى العيون الرمد. ما عرفت حسناء تستهوي الخليّ ، فتشجيه ، كهـذه الروعاء النفور . تفجع ولا تؤاسي . اخاف ان تكون الساعة ببابها الوفود !

ــ وفود من ، يا يزيد ؟

ــ وفود الخاطبين ، يا امير المؤمنين !

وتأوه يزيد . وجمدت عليه عينا ابيه بهول مشدوه ، تتبينان فيه الهيام القهار . فالحب ، المتقد في الحنايا ، يتوهج في الاسارير على خشية . ليس هذا الفتى التلق النظرات، الحائر النهية، من يعرفه معاوية. فلقد تبدل يزيد، حتى بات ينكر نفسه . فالخوف من ان تفلت منه أرينب خرج به عن سجنته ، كأنه على فوهة الخطر ، لا يبالي للنجاة من النار ان يقبض على كل حبل يعرض له ، حتى على الخيط النسيل .

واوجع معاوية الشغف المستحكم من ابنه . ان يزيد لمفؤود . يتراءى له ان الامصار العربية جميعاً تمشي الى اريتب لتزاحمه فيها على نهلة الحسن . وخاف معاوية ، على معقد امله ، ان يهون فيكبو ، فيما يشقّ له طريق السؤدد والمجد . قال بوهلة : يزيد ، سأوفد اليها ابا الدرداء على اجنحة . اين

ابو الدرداء ، يا سعد ؟

فانطلق الحاجب كالسهم المرن يبحث عن رجل الدين. واين يلقاه؟.. إما في المنزل ، وإما في المسجد . فلا مستقر له في سوى هذين المتكأين. وظفر به في المسجد . قال : امير المؤمنين يدعوك . اسرع . ان به اليك لحاجة يساورها الالحاح !

وتماوجت في وجه معاوية البسمة المألوفة ، المتحفزة ابداً للظهور . فبسطها لابي الدرداء مجاوزة أنوساً ، وهو يقول : بابي انت وامي ، كيفما ادرت عيني فلا اجد سواك للشؤون الجسام . ولقد اقتك من نفسي حكما عادلاً ، ومفوضاً براً . فماذا يكون منك اذا انتدبتك لشفاء لاعج ، لجوج ، يحن الى ادراكه خاطري ، ويضطرم به صدر يزيد ؟

فوقف ابو الدرداء موقف المزهو المعجب . ان امير المؤمنين ليلتفت اليه في حل المعضلات . قال بهناءة المرتاح ، المثلج الضمير : ما كنت في خدمة امير المؤمنين الا ذلك المطيع . فليندبرني بثاقب رأيه ، ووضاء تدبيره !

قال معاوية : تلك المهجورة في العراق نزلت من قلب يزيد منزلة الفتنة . فانها لتحرجه في منبسط الامان . ولست ارضى لابني اللوعة تعض قلبه ، وتلذع روحه . فعليك ان تتولى انقاذه مما يعاني ، وانت خير المنقذين !

فصاح ابو الدرداء: ولكن يزيد فرحة الزمن ، يا امير المؤمنين. فكيف يتشهى ، ولا نجيب ؟... على اني في جهل من امر تلك المهجورة في العراق. فمن تكون ؟

فكشف معاوية عن الطلبة لا تغص له حنجرة ، ولا ترتعش شفة ، كأنه لا يجترح اثماً ، ولا يأتي غدراً : هي اريئب بنت اسحق ، ابنة عمنا ، وموئل

اعجابنا !

فتراجع ابو الدرداء ، وقد اضطربت لحيته البيضاء، واستدارت عيناه. وقال بذعر ماج حتى في مستدق اضالعه : اريتب بنت اسحق ، يا معاوية ، مطلّقة عبدالله بن سلام ؟

ـ حزرت ، يا ابا الدرداء . هي هي . فهل من عتب علينا ، ونحن نزفها الى يزيد ؟... عبدالله سلخها منه ، ونحن نضمها الينا !

على ان معاوية اذا لم يرتعش ، فقد ارتعش ابو الدرداء لهول المنكر . وصاح بصوت رعّاد : ولكن ، يا امير المؤمنين ...

فقضى فيه معاوية على شهوة المعارضة ، وقد قاطعه يتنصل من كل حرج ، قائلاً : وماذا بعد لكن ، يا صفيّ الرسول ؟... عبدالله طلّق ، ويزيد يتزوج . فهل في الامر ما يحمل على الدهش ؟... هذا مما لا يتنافى وشريعة العلي العظيم. فلن نأتي امراً إدّاً ، ولن نقدم على بدعة. فما يحله الدين نستحله ، ولا نزيد !

فبلع ابو الدرداء ريقه ، كأنه يزدرد الشوك . وما استطاع الا ان ينضو عنه مخاوفه ، ويصارح معاوية بما يمور في نفسه ، فقال : اعتمدني امير المؤمنين حكماً عادلاً ، ومفوضاً براً ، واني لافاخر بهذه الثقة يحبوني اياها خليفة النبي . غير اني اخشى ثرثرة الالسن ، يا معاوية . فلستَ من الناس في حرز حريز . ولا بد للقوم ان يتقوّلوا ويهذوا . أتدري ما سوف يقولون ؟... سيزعمون انك خدعت عبدالله بن سلام بابنتك صفية ، لتنتزع منه اريتب ليزيد !

فاخرجا معاوية صيحة تهكم ، وقال : أتحسبني احفل بالافك يروج؟...

يزيد يهيم باريئب ، واريئب ليزيد . واني اعهد اليك في امر خطبتها له . فاشخص الى العراق في موكب حفيل ، واقرأ اريئب السلام ، وابلغها مشيئة امير المؤمنين !

وكان جازماً قاطعاً . ولم يجد ابو الدرداء من سبيل الى العزوف عن المطلب . فما يقرّره معاوية ، اشبه بالشريعة المسنونة . قال المتبرنس المعتمّ : اني لامير المؤمنين على ما يفرض عليّ . فهو وجه الرسول فينا . ساشخص الى العراق . واخطب اريئب ليزيد . على اني ادعو خليفة المسلمين الى اتقاء فورة الالسن . فاذا طالت ، واستطالت ، كان لها في اثارة الشر الهاجع ساعد حديد !

فعبس معاوية . ان ابا الدرداء ليجرؤ على ما لا يحق لمثله المباحثة فيه . غير ان ابن ابي سفيان ، مع عبوسه ، وحنقه على ابي الدرداء لجرأته ، لم يكن يجهل ان هذا الشيخ ، المنصرف الى عبادة ربه اكثر منه الى معالجة قضايا العباد ، على صواب في ما يطلق فيه مقوله . فلن يخلو الاقدام ، على خطبة اريئب ليزيد ، من غمغمة امتعاض تهتز بها الدولة الاموية في متناهي بسطتها . ومعاوية يكره الغمغمات النواشز . ولكنه يزيد ، المقلة والمهجة . قال ابن ابي سفيان ، يدعو ابا الدرداء الى الاكتفاء بالامتثال للدعوة المعلنة : ما كنا نميل الى حرمان الناس حقهم ، يا ابا الدرداء . فلو اقامت اريئب في عصمة عبد الله ، لكنا اول من يتحامى الاجحاف . اما وهي طالق ، فلسنا مكرهين على مجانبتها ، وقد ولع بها يزيد . اركب الى العراق مطية عجلى ، واذكرفينا الله !

فبسمل ابو الدرداء وحمدل . وقد يكون في سره حوقل : « لا حول

ولا قوة الا بالله ! » . هذه رغبة معاوية، ولا ندحة عن انجازها . واسرعت يد معاوية الى العطاء الجمّ ، تخمد به وساوس الشيخ الجليل المنظر . وهذا السخاء كان يكمّ الافواه ، ويصرفها عن الطعن والمثلبة .وانطلق ابو الدرداء الى العراق في ركب جامع ، وهو من امره على كتمان . فلم يشأ ان يطبل ويزمر للمهمة الموكولة اليه ، وفيها ما يقعد ويقيم

على ان القوم، وقد ذاع فيهم ان صفية بنت معاوية،رضيت عن عبدالله ابن سلام زوجاً، ثم مالت عنه ، حسبوا لهذا الانقلاب الحساب المديد . فما دعاها الى الرضى ، وما فرض عليها العدول ؟... عبد الله هجر في سبيلها اريئب ، وهي قدرت عليه هجر تلك . فما بها ، وقد اصبحت اريئب طالقاً، وامسى عبد الله حراً،تنقض ما اعلن فمها، وتمحو ما كتبت يمينها؟...طرحت ابن سلام في الداهية الدهياء ولم تكلف نفسها الرفق به . ان في هذا التغرير لفضيحة تهيب بمعاوية الى صون وجهه منها ، وهو غرة دولة ناشئة على انفة واعتزاز

والجميع لمسوا في الخدعة يد معاوية . وقام من يقول : معاوية فصل عبد الله عن اريئب ، ليزفها الى يزيد !

والناس لا يخلون ممن يغوص على المبهمات المغلقات فيفتحها على مصاريعها. وشاع الخبر حتى عمّ . وتناقله من في العراق ، قبل ان يبلغ ابو الدرداء اطراف السواد، وضفاف الفرات.فضج الشام والعراق معاً ضجيج المرعوب. انها لصفقه مستذئبة ، هدم بها ابن ابي سفيان بيتاً ، ورغداً ، وقلبين. وباتت الخدعة حديث كل من أوتي النطق مع سقاطة من فهم . وأُعجب فريق بمخاتلة ابن هند،وغمز منها فريق.فالحزبان،الهاشمي والاموي، عادا الى الظهور

بغضاء . حتى ان الكثيرين من انصار معاوية نقموا على معاوية. في استفزازه ابن سلام لطلاق اريتب ، كي يستأثر بها يزيد ، قحة وذلة لا ترفعان رأساً . ولا تشفعان في طيب احدوثة

ودرت جعدة بنت الاشعث الكندي، فهاجت وتفتقت جراحها .معاوية ويزيد ضحكا من عبد الله بن سلام ، كما ضحكا منها . يا للطغاة الطغام !...وما اكتفى الاب والابن بحبك المكيدة ، بل شاطرتهما ركوب الغواية الابنة حفية ،شقيقة يزيد. انها لاسرة تضيق بذوات الفحيح ، كما نعتتها جعدة.وما تجيد غير الدس ونفث السم . فيا لخيبة البناة ، كم عقدوا من امل على هذه الدولة الفتية ، وكم اضطرب الامل حتى كاد يضمحل !

ووثبت جعدة الى دار أرينب . فما تبرح دامية الحشاشة ، ثائرة الحقد. يزيد سخرها لبلوغ اربه ، ثم سلاها . بل هو رض ّ فيها الرجاء النامي ، بعدما لطخت في سبيل ادراكه يديها بالاثم . لا، لن تكون اريتب ليزيد. ودخلت جعدة على ابنة اسحق تتلظى اضطغاناً ونفوراً . قالت بحنق المكلوم ، المغبون : اريتب ، اختي ، أتدرين ما يبيّت لك اخوان ابليس ، ساكنو النار ؟

واريتب ما برحت على انزوائها ، تأكل حسرتها ، وتعيش باساها . فلا تنفتح شفتاها لسوى الزفرات تطلقها ناراً تلذع ، وتذيب . في نأي عبدالله عنها تحطيم جنانها ، وتهشيم كرامتها . وجل ّ ما طمعت فيه ، وهي ترزح باشجانها، ان تعلم ما غر ّر بعبدالله،ففصله عنها؟...ووقفت ُمن جعدة موقف الرهبة . اي شر يرقبها ؟... أما اكتفى الناقمون ّعليها بابعاد ابن سلام عن مهجتها ؟... قالت وفي فمها جفاف ، وفي ناظريها سهوم : ومن هم اخوان

ابليس ، يا جعدة ؟... وماذا يبيّتون لي ؟... اقلقت خاطري المهيض !

وهي تعرف جعدة ، وتلمّ بحكايتها . ونفذت من هذه الحكاية الى اللباب ، واستلّت السر . هيام جعدة ، بابن معاوية ، قضقض الحسن بن علي في نعمائه وعمره . ثم كان ماذا ؟... اعرض يزيد عن الارملة الكفور ، واطعمها الشجن . قالت ابنة الاشعث الكندي : معاوية يريدك لابنه يزيد ، واوفد اليك من يخطبك !

فهالها النبأ . وومضت في عينيها الذكرى ، يوم أُصيب معاوية بطعنة الخارجي ، وغصّ قصر الخضراء بالوفود . فاقبلت ، يومذاك ، على الطبيب الساعدي ، بين من تحلق عليه من النساء المعجبات ، العائدات . واذا بيزيد بن معاوية يجبو لشكر الطبيب المنقذ . وما كاد يراها ، حتى عقد لسانه ، وأُرتج عليه ، وصبّ عليها نظراته المفتونة . ولولا ان تنسلّ بين الجموع ، وتتوارى ، للغط القوم بحب يزيد لها . ولو شاءت لاسرت يزيد ، وهو كلما رآها استقر منها على شده . غير انها تعرف ابن معاوية معشاقاً هاجراً ، وما تستلذ العذاب في دنياها ، فتهوى من يحبها اليوم ، ويسلوها غداً . ثم هي على شغف بعبدالله بن سلام ، ابن عمها ، ومن طبعها الثبات في المودة . واستطلعت بجزع : أأوفد اليّ معاوية من يخطبني لابنه يزيد ؟

ــ نعم ، نعم ، يا اريتب . ولست اغبطك على هذه النهاية . نظرة من عبدالله تساوي يزيد واباه . اني اخاف عليك من مكرهما ، يا ابنة عمي . والله ، ما في القوم غير شر وغدر !

ــ ومن ابلغك النبأ ، يا جعدة ؟... انك لتحدثينني بما لا تصدق اذني . كيف طلقني عبد الله ، واقبل يخطبني يزيد ؟... أيرغب ابن امير المؤمنين

في من طلقها عامل من عمال ابيه ؟

فوضح لجعدة ان ارينب تقيم مما يساورها على جهل مطبق . فلا تدري ما يحاك لها من احابيل . قالت بدهش : أتكونين غريبة عما يراد بك ؟... معاوية ما دعا عبد الله ، اليه ، الا وهو يبغيك !

فصاحت بهلع : أيبتغيني ، يا جعدة ؟

فتصاعدت انفاس ارملة الحسن بن علي لهبة بركان . وهزت برأسها لفرط ما خبرت من لؤم الزمن ، وقالت : ما وجه ابن ابي سفيان دعوته ، الى عبد الله ، الا وانت مطلبه . فالدعوة لك ، لا لابن سلام . وفي دمشق خاتل معاوية ، وماذق . فادنى منه عبد الله ، وقبله في كتفه ، وضمه الى صدره ، واوهمه انه لديه بمقام يزيد . واني لاتمثله في ابتسامته المصنوعة الخادعة ، وفي كلماته المعسولة المبطنة بالسم . وجرع عبد الله السم ، وهو يحسب نفسه يشتار العسل . فزخرف له معاوية انه سيزف اليه صفيه ابنته ، على ان يطلقك. فوقع عبد الله في الشرك ، وعالنك الطلاق . ولكن صفية لطمته باحتقارها. وادارت له ظهرها . فهو في ازقة دمشق يعوي كالذئب الجريح . واتجهت الانظار اليك ، وانت عنوان الكتاب . فدفع اليك معاوية من يخطبك لابنه . حل عنك عبد الله وثاقه ، ليوثقك يزيد . وانك لصائرة الى جحر الاحناش ، اذا استسلمت الى مشيئة اولئك العابثين بالعهود ، المستحلين المحرمات . انا اشفق عليك من استهانتهم بك . ربما اعتمدوك في ادراك مأرب ، ثم نبذوك ، كما فعلوا بي . حذار ان تستنيمي اليهم . فانك منهم لعلى خطر . وهل من يأمن شر العقارب والثعابين ؟ . . . ينمقون لك المودة ، ليطرحوك في المهواة . حتى اذا ما تدحرجت اليها ، اخذتهم فورة من ضحك

شامت . والفاجعة لا تنتهي الا وقد سحقوك ، واجهزوا عليك . نجنا اللهم من عصبة الكافرين. اني لارتعش خوفاً كلما تمثلت هؤلاء الاوغاد الاشرار. صانك ربك من اذاهم ، يا اختي !

وارتجفت جعدة ، كأن بها البرداء . فما كان لها معاوية ويزيد ، من هضيمة ، لا يبرح ينكأ فيها ناغر الجراح . طوّحاها في بؤرة الملكة ، وانكراها . هذا منتهى الجحود. ووقعت كلماتها على اريتب موقع الرهبة. اي نبأ مخوف يتساقط في مسمع ابنة اسحق؟... أيكون معاوية دعا عبدالله ابن سلام ، ليفصله عنها؟... أتكون هدف مكيدة حاصدة؟... اذن صدقت ظنونها . ألا كم نهت عبد الله عن الركون الى معاوية ، وكم حذرته منه . قالت : «إنه ليبيعك ويشتريك بخمور الوعد، ومبرقش الكلم . يعالنك انه يروم لك الخير ، وليس يبطن غير النكد ! » . ولكن عبد الله لم يسمع . فهو يشوق الى معرفة ما يجيء له ابن ابي سفيان من مبرّة . ايمانه بمعاوية ، رجح ايمانه بامرأته . امرأته ليست امير المؤمنين !

وكم ألحت عليه في البقاء بجانبها ، وفي سدّ اذنيه عن نداء الخليفة. على انها لا تملك من مسموع الكلمة ما يتحلى به ابن ابي سفيان، سيد البدو والحضر. فان معاوية لقابض بيمينه على الارواح ، يسعد ويشقي. اما هي ، فلا تقوى على التحكم حتى في عبدانها. واين سلطانها من سلطان قاهر ابن ابي طالب، ابن عم النبي ؟

اقدم معاوية على المخاتلة ، ضاحكاً من عبد الله بن سلام ، وقد ابتلعه كما يبتلع اللقمة. اكله وشرب عليه، ولم يغصّ. غير ان اريتب تريثت في الايمان بجعدة ، الناقة ، المضطغنة، وقالت : اراك تبالغين في ما افضيت به ، يا ابنة

الاشعث . معاوية لا يتسفل الى هذا الحضيض !

فكادت تشدهها ، وتعمى عليها قلبها السليم . انها لفي غباوة فاضحة . قالت جعدة ، وهي تتواثب في مستقرها ، لفرط حرقتها : كنت احسبك ابعد رأياً في معاوية وابنه. سخرا بزوجك، كما سخرا قبله بي. جاملاه ليطلقك منه ، ووعداه بصفية ابنة الخليفة . وما نالا منه طلاقك ، حتى تجاهلاه . فليسا يعرفانه الساعة . وسيفد عليك من يخطبك ليزيد . وانك لفي جنون مطبق اذا رضيت بما يريدانك عليه .فالموت يرصدك. قد يهواك يزيد اليوم، ويملّك غداً . فما ان يرتوي منك، حتى يركلك . هذا فتى لا يختلف عن ابيه. فالناس في معتقده مطايا مقاصده . يسوقهم في خدمته ، ليشيح عنهم فور ادراك المرام. فالبشر في عرفه عبيد،لا يصلحون لسوى التفاني في الاسترقاق له، وفي تقبيل نعليه. كأنه سبكهم بيده، وصبّهم في قوالبهم احياء يسعون. ذقت منه الويل مخدوعة بتمّق بيانه . لا عاش يوماً يتبين فيه النور !

فقالت ارينب مدهوشة : وهل وعد معاوية بصفية ، كي يجيبه عبد الله الى الطلاق ؟

— وعد ثم نكث. عبد الله اطاحه الغدر، يا ارينب. وهل يملك العصفور قوة البازي ؟... هل للنملة ان تصارع في كيدها الثعلبان ؟... لا تلومي عبد الله في سقوطه ، فهو ضعيف . ان اللوم لعلى الذئب الخاطف، الممعن في النهش والقضم !

فاقلقتها جعدة فوق ما ينتابها من قلق. انها لتفتح عينها على آفاق ما كان يلوح لها منها غير الظلام . وران عليها الوجوم . فهي في تيار يتقاذفها الى حيث لا تدري . ورهبت غدها، وهو غد مشؤوم. ونفر من عينيها الدمع،

كأنه بات لا يطيق بهجرها الثواء . فانساب غزيراً ذليلاً ، على خديها الصفراوين ، وقد ذهب منها الالم بالنضارة المشرقة

وهال هذا الدمع جعدة . فهو دليل الاستخذاء ، لا الجرأة والعنف . وابنة الاشعث الكندي ، وقد اكتوت بنار يزيد وابيه ، وما تبرح على لوعة وحرقة ، نازية الجرح ، فوّارة الضغن ، ارادت ابنة اسحق صائحة ، مزمجرة ، تشتم وتلعن ، لا تعفّ عن السبة . شاءت ان تبصرها في متمادي الغيظ ، ومنتهى الثورة . فالدمع الصامت ، المتلاشي ، سلاح مفلول ، محطم ، لا تتوهج فيه الصلابة الحاقدة ، المتوعدة ، الواثبة الى التهشيم . وخافت جعدة ، حيال مظهر هذه المطلقة المبتغاة ، ان تلين أُرينب في مطلب ابن معاوية . فلا تملك القوة على مقاومة يزيد . فصاحت بها تحضها على الحنق ، بل على الفتك : أتبكين؟... كنت اشتهيك في نقمة ، في عصيان . فالمكر جعل منك ضحية مبتذلة . انت الآن مسحوقة القلب ، دامية الكرامة . انت سلعة يتاجر بها يزيد ، وابو يزيد . وليس للمنكوبة مثلك ان تكتفي باطلاق ماء عينيها ، بل عليها ان تنتضي حزازتها ، وان تلطم بها وجوه الروّاغين . فانت مدعوة الى وجار ذئاب ، لا الى بلاط ملوك . واي بلاط هو ذلك الصرح الحافل بالخبث والمواربة ، فتحشرج فيه الذمم ، كأنها صرعى القبور؟... لا تبكي . فالموقف يدعوك الى الكفاح ، الى الصراخ ، الى فضح الظلم والجهر بالمحنة . معاوية سلخك من زوجك ، ليزفك الى ابنه ، فعاندي وقاومي . انك لمالكة زمامك ، وليس لقوة ، مهما استطالت ، ان تصرفك عن هواك التليد !

فلم تجد اريئب غير الدمع من جواب مستطاع . فهي تصوغ من حبات عينيها عقد الشكوى . في كل دمعة خطاب وبيان . معاوية ظلمها بفصلها عن

عبد الله ، وانها لتعلن بعبرتها ظلامتها . وانتفضت، في اساها ، كالطائر الذبيح في مترقرق دمه . فاستطالت جعدة في تأففها ، وهي الطامعة في الغليان المستأسد ، في النشوز الفلتان ، العابث بكل عنيد جبار . قالت وفي ناظريها نيران تتأجج ألماً وغلاً : دمعك صونيه . هذا ليس اوانه . جلّ ما ادعوك اليه ان تمانعي في طلبة معاوية وابنه يزيد . عليك ان ترفضي بازدراء ، باستهانة . فانت سيدة الموقف . ان معاوية لمن عبيدك الساعة . وكم تزدادين شأواً وانت تناوئين ، وتنتقمين لعبد الله من قاتله ، ممن اصفى دمه . فالويل لمن يقتل ، ولا تغرورق كبده بنداوة من رأفة . عالني من يقبل اليك ، ليخطبك ليزيد ، انك تأبين ان تمدي يدك الى من تخضبت يداه بدم زوجك المظلوم، البريء . صارحيه انك لا تصبرين على الدس ، ولا تصبو نفسك الى المحتال !

فما زاد الجواب على دمع يقطر بسخاء. فضاقت جعدة بما ترى من وهن ، ووثبت على هذه المقتعدة نشيجها اللهفان ، وهزتها كما تهز غصناً مثقلاً بجناه ، صائحة بها : أسامعة انت ، ام غائبة عن الرشد ؟. . أخانعة ، ام غاضبة للحب الطعين ؟... ألا يختلج فيك حس بحب عبد الله ؟... انا قتلت ابن فاطمة لاجل هؤلاء الانكاس ، فماذا كان منهم حيالي ؟... لفظوني كالعظمة الجرداء ، كالدرن . نفروا مني ، كأني الوباء . ولا ترقبي ان ينالك منهم غير ما نالني من كفران بالجهد المبذول . فاستبقي إباءك . واضربيهم في صدرهم . لتنزل بهم لطماتك كاوية ، دامغة ، يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل . فعلى الغدر ان يلقى من يصده عن جماحه . وانت وحدك تقوين على هذه الخارقة !

فتكلمت اريبنب، وقد شعرت بقبضة جعدة تكاد تطحن ذراعها، وتخلع كتفها، فقالت: أأنسى عبد الله، يا جعدة؟... هو مني في مستقر الضمير، فكيف اعدل به سواه؟... عبد الله اول من عرفت، وآخر من اعرف. فلن اكون ليزيد غير رمّة من عظام، جثة بلا انفاس، والله العظيم!

فانتعشت جعدة. هذا هو المطمح. والتوت على اريبنب تضمها اليها، وهي تقول بارتياح فضفاض: عوفيتِ. هذا الطبع النبيل غير عجيب اذا تجلى فيك، وهو منك في حرز مصون. وانك لتحسنين الى الوفاء، ونصوع الجبين، وانت تعرضين عن دعاة النفاق والرئاء. هؤلاء قوم يذلون حيال القوي، ويشمخون على الضعيف. يعفرون جباههم، في تراب نعليك، ما دامت الحاجة اليك ماسة. ويدوسون هامتك بنعالهم، عندما يدركون المطمع، ويتوافر لهم المغنم. انبذيهم وانت الرابحة، يا اختي!

وطفح قلبها بالمسرة. ستنحر يزيد، كما نحرها. مزق قلبها، وستمزق قلبه. خيبها في حبها، وستخيبه في حبه. سن بسن، وعين بعين. فما اشهى، وما ابهى!... قالت تثخن في الايغار: اختي، ليس لهؤلاء الظالمين ان يبطروا. فان لم يتم، في هذه الامة، من يغالبهم، ويرد لهم المضيمة هضيمتين، أكلونا وازدردونا، غير مكترثين. فعلى التيار الهادر ان يقف، حتى عند شجيرة معترضة، كي يعلم الجميع، القريب والبعيد، ان للطغيان حداً لا يجاوزه، وانه لا يدرك في جميع شؤونه التوفيق. فلا بد من مزلق خطر ينحدر فيه. معاوية لم يشعر حتى الساعة بالخزية، فكوني اول من يجبهه بها، ويلقمه اياها. ليس لمغتصب الخلافة ان يستنسر حتى يطاول الافلاك، فيرقى من ظلم، الى ظلم، وليس من يكمه في غيه، ويخرج

به عن كفره . لقد اصطفاك الله لزحزحة الباغي عن عسفه ، فلا تحجمي ، ولا تضطربي !

فغمغمت وقد وافقت ، مع لين عودها ، على المجاهدة : ليهب لي الله القوة على الكفاح !

قالت جعدة : وستجدينني ابداً ، بقربك ، انصرك على امرك . فلا ترهبي . عين الله ترعاك . ومن رعته عين الله ، أمن العثرات !

وشددت عزائم هذه الوهون ، المتراخية الاعصاب ، لفرط ما جرعت من ألم ، وما اختمرت به من اسى . ستسددها الى قلب يزيد حربة نافذة ، لا تبقي على علاقة من روح . ساعة الانتقام تدق ، فما اجملها من ساعة طاحنة ، يعلم بها ابن معاوية ما يعاني من اليأس ، والغمة ، الجريح الامل ، المفجوع بالحب الماتع ، الاثيل !

٤

ذلك الركب المنطي صحراء الرمال ، الى الكوفة ، لجّ به الشوق الى بلوغ عاصمة الخلفاء الراشدين ، المدينة المشيدة في عهد عمر ، ومثوى علي بن ابي طالب ، وبنيه

وتضايق ابو الدرداء من طول الرحلة ، وتبرم بمشقة السفر . لماذا انتدبه معاوية لهذه المهمة الناصبة ، وقد كابد الكلال والضنى ؟... هو شيخ يحبو على ثلاث . ويكاد يدب على اربع . وما تماوجت المدينة ، في ناظريه ، دكناء ، تترقش باخضرار النخيل ، حتى تنفس ، وشكر الله : سبحانك اللهم ، ربي ، هادي الضالّ ، ومنقذ الحسير !

واستفاضت في ذهنه ذكريات رحاب . ان الكوفة لصفحة عذراء من هذا الدين الجديد ، الممتد البساط . يضيء فيها وجه الفاروق ، وابن ابي طالب ، وما تزال تتألق بالحسين بن علي ، حفيد الرسول . وخشع ابو الدرداء ، وهو يذكر الرسول . والتمع في وجهه نور علوي ، كأنه في ابتهال خاشع غاب به عن الحس والجماد . فحثّ مطيه الى حيث يلقى ابن بنت مستنزل الآيات ، وفاتح طريق الجنة . وغمغم الفاتحة : اياك نعبد ، واياك نستعين !

ولم يشأ ان يهبط الكوفة ، دون ان يعرج على حفيد النبي . رؤية الحسين ، لديه ، اشهى من مرأى ارينب . ابن فاطمة ، ثم ابنة اسحق . والحسين بن علي ، يومذاك ، سيد العراق روحاً . تخلى شقيقه الحسن عن

الخلافة لمعاوية ، اما هو فما تخلى عنها ، وما زال ممسكاً عليها بيد لا يرتخي لها عصب ، ولا يني عود . والكوفة نصرت الحسين ، كما نصرت اباه واخاه. ولكن أتخذله ، كما خذلت اباه واخاه؟... وسأل ابو الدرداء : اين مقر ابن الامام ؟

انه ليشتعل هياماً بتقبيل راحة من قبله النبي في فمه ، وهو ما يبرح في الاقمطة ، لا يأنس بفطام . ومن يجهل مأوى ابن علي ؟... فما تلفظ ابو الدرداء بالسؤال ، حتى هفا اليه العشرات يدلونه على مستقر ابن الاكرمين. واذا به حيال صرح اقتعد المهابة ، وتلظت فيه سورة المجد . وترجل ابو الدرداء . هذا مكان تخلع فيه النعال . وانحنت هامته ، كأنه يزحف الى موئل البر . واستأذن برهبة . سيصافح يداً لامست ركن الاسلام ،وسيده الميمون . وخيل اليه ان عين النبي تشرف عليه من سدرة المنتهى ، وان علياً يبسم له ، ويدعوه الى الحدب على ابنه ، شطر قلب فاطمة البتول . وورد الجواب ان يوسع ابي الدرداء الدخول . فما تماسك صاحب الرسول لفرط البهجة . ولم يدر كيف يميل على راحة الحسين فيلثمها، ويتبرك بها ، وهو يجمجم : الله اكبر ، الله اكبر . ليعتقني ربي من دنياي ، وليأخذني اليه.اكفت نفسي بروائع زمنها ما دمت قد استمتعت برضوان حفيد النبي!

والحسين ما يزال يتلألأ بنعمة الشباب ، مع انه يوشك ان يكون منها في فصلها الاخير . وسره ان يرى ابا الدرداء ، في الكوفة ، يسلم عليه ، ويذكر فيه من مضى من القوم الصالحين. وادهشه ان يقبل اليه هذا الخدين المتنائي ، وقد انتثر الشمل بعد الشقاق المستعلي في مؤتمر اذرح . واستوضح ببسمة المرحب المستجلي : ومن رمانا بك ، يا ابا الدرداء ، فشاهدناك في هذا

البلد المنسي" ؟

فاجاب ، وهو يبسط يديه للضراعة ، كأنه يشكر لربه ما جلببه به من قضفاض العطف : حسن حظي ، يا امير المؤمنين . ابى الله الا ان يمتعني ، في بقيا عمري ، برؤية ابن علي وفاطمة . الصلاة والسلام على محمد ، جدك العظيم!

فقال الحسين ، وما غاب عنه ان ابا الدرداء منتدب لامر لا صلة له بما اعلن : ان الفرحة لتلم" بنا ونحن نراكم ، في اكنافنا ، تذكرون السلف الامين . على ان دمشق عو"دتنا ، ان لا تطلقكم الينا ، الا وفي صدوركم غير السلام على حفيد النبي . فما كلفك معاوية من شؤون ؟

فابتسم ابو الدرداء ، وقال : والله ، لكأنك تقرأ في قلبي ، يا ابن بنت الرسول . ليس في ما انتدبني له معاوية سبيل الى الميلان عليك . الا اني جئت أؤدي فريضة السلام على زين شباب المسلمين ، ويضيق بي ان اتخلف عنها . اما ما كلفني اياه ابن ابي سفيان ، فلا يعدو خطبة اريتب بنت اسحق ليزيد!

فاستغرب الحسين ما يلقى اليه . واستفهم ناتىء الحدقتين : هل جئت تخطب اريتب ليزيد ؟

فاوضح ابو الدرداء ، وما للكذب ان ينفث فيه سمه : هو ما قال حفيد النبي . جئت اخطب ابنة اسحق لابن معاوية !

فتعجب الحسين من التوكيد ، وبر : ولكنك تحيرني ، يا ابا الدرداء . انتهى الي" ان معاوية ألح على عبدالله بن سلام في طلاق اريتب ، كي يزف اليه ابنته صفية . فكيف يطلقه منها ، ثم يخطبها ليزيد ؟

فهز ابو الدرداء رأسه . مجال القول ذو سعة ، والصدر يضيق بحوابسه . وكل ما يبذل معاوية من عطاء لا يمحو الأ"نات الشواكي . فالظلم لا بد له

من ألسنة تنعاه على مقترفيه . قال ابو الدرداء ، وهو ينفخ اشجانه كأنه يبرّد بها جرحاً يلتهب: زاد الله في عمر حفيد رسوله، وابقاه لنا دوحة مديدة تفيأ منها وارف الظل . ان معاوية ليبالغ في التحكم في بني قومه . فهم لديه كالسوائم . وما يبالي فيهم كبيراً ولا صغيراً . فما ينهد اليه لا سبيل الى الاحجام عنه . ولقد رأيته ، في مجلسه ، يتعمد الحرص على اموال الناس . يحرص عليها، وينصف المهضوم المنكوب . غير انه، في شؤون نفسه، ارعن، اعمى . فلا يبصر ، ولا يجامل. فالمخادعة ركن سياسته الناس. وهي مبرورة في شرعه . واني لاتعجب من رجل جمع ، في صدره ، الخير والشر . فهو الحليم الصراح ، والمخاتل النجاح . تستنيم اليه ، ولا تأمن غدره . تجد فيه السماح الارفع ، والروغان الانكد . لست اعرف ، والله، شبيهاً له ، يا ابن علي . انه لسر مغلق . ظاهره يجهل باطنه . ولقد خدعنا في عبدالله بن سلام، وما يزال يخادع، ونحن له مطايا. كلفنا التوحيب السخي بابن سلام ، واذا به يتنكر له . دعاه الى دمشق ليعقد له على صفية، ولم يلبث ان حجبها عنه ، بعد ما اكرهه على طلاق ارينب . والخدعة وضحت . وتحدث بها كل من في دمشق . غير انها ، في حينها ، ندّت عن الجميع . فما استيقظ فيها ضمير، الا وقد نفذ القضاء . معاوية غرّر بابن سلام ليخلعه من ارينب ، ويخلع ارينب على يزيد . وهو مكر فاضح . الا انه دهاء لا ينضح بمثله سوى جامع الضدين ، معاوية بن ابي سفيان !

فتمثل الحسين مكايد معاوية الحواطم ، الضاربة في ركن الشمل النظيم ، وقال وهو يتألم ، لوقوف الرجل حائلاً ، دون موكب الوئام ، المتهادي على حكم محمد بن عبدالله الرشيد : ما كنا نعتقد ، يا ابا الدرداء ، اننا سنبلى

بمن يقوّض المعالم ، ويبدل السنن . معاوية غالب بالخديعة ، وثاب . نهض بدعوته ، وهو موقن انه خاسر فيها ، واذا به يربح ، ونقع في الخسران . جال الباطل جولة غير مأمونة المغبة ، ودحر الحق وفاز . ولست أتعجب ، من كيد معاوية ، كما اتعجب من حماقة هذه الامـة ، السائرة في خطوات معاوية . كل من فيها مؤمن بان الرجل على ضلال ، ومعظم من فيها يتبعه. اشترى الضمائر ، واخرس الالسن . ونحن نشحّ باموال المسلمين ان تلمّ بها ثغرة . كنا نبخل على انفسنا بالدرهم . فلا ننفقه مخافة ان تدهم الحاجة بيت المال . ومعاوية يغرف من بيت المال ، ويجيز انصارنا ، فيفصلهم عنا . انها لمصيبة ، يا ابا الدرداء ، خبرنا فيها طباع الناس. فهم يجانب من يطعمهم ، حتى ولو اطعمهم فلس اليتيم . واعداء من يصون فلس اليتيم ومال الدولة ، لكونهم لم ينعموا برفده. تباً لهم من جشعين، لا يفكرون في سوى انفسهم. والحياة ، في عرفهم ، ملء الجيوب والبطون !

وسكت الاثنان ، الحسين وابو الدرداء . وانتصب ، في خيال كليهما ، شبح معاوية الرهيب . رفعه مينه ، وغدره ، الى حيث لم يكن يرجو الوقوف خاشعاً ، متهيباً . كان قانعاً بمنصب والٍ من الولاة ، في الدولة المسيطرة ، فبلغ السدة العليا بقحمة ، وقحة ، لا يتمكن منهما غير المجازف ، العابث بالمصير. فاذا افلح ، فالنعمة شهوته. واذا اخفق ، فالخيبة لا تخرج به عن مستقره. ولن يفوته ان يقتعد منصب والٍ في قطر من الاقطار . وللعرب فسيح الرحاب

وتوجع الحسين ، والمقام الاسمى يفلت من ابيه ، ومن اخيه ، ومنه . ونطقت فيه احقاده ، فقال بمرارة الاضطغان : على اني لم ابايع معاوية ، يا ابا الدرداء . فالخلافة من حقي ، واني لاطالب بها . ويتراءى لي ان المسلمين

في نصرتي . فلن يتخلوا عني حباً لابن هند . انهم ليرهبونه اليوم ، ويتقونه. اما غداً ، يوم يفتك به قاطع الانفاس ، فلن يجدوا سواي ليعقدوا له الراية على مرتبة الخلافة . وسوف يرى الحزب الاموي اي منقلب يصير اليه . سندرك البغية ، يا ابا الدرداء . فالظلم قلق الدعامة ، ذو عمر قصير !

واذا الباب يدق . وبدا الحاجب ، في حضرة الحسين ، ملتوي الهامة ، قائلاً باجلال : بالباب امرأة تريد المثول بين يدي سيدي!

فالتفت اليه الحسين مرفوع العنق ، وقال : امرأة ؟... ومن تكون ؟

— لم تعلن اسمها ، ولا لاح منها وجه . فهي مقنعة ، تلتمس ، من مولاي ، ان يأذن لها في ابداء ظلامة تعروها !

فاعلن ابن علي: أنتقف ببابنا امرأة تتظلم ، ولا نسعفها في الانتصاف من ظالمها ؟... لتدخل . نحن هنا لدرء الحيف !

واطلت قامة ينتظم فيها الانسجام ، مقنعة بالسواد ، ومجلببة بالسواد. وانحنت . وافضت بالتحية بصوت ترتعش فيه الانوثة الدهاق . قالت : السلام على ابن الامام ، وحفيد سيد المسلمين !

فنظر اليها الحسين نظرة حادة ، ثاقبة ، حاول بها ان ينفذ الى كبد هذه الواقفة حياله ، والمحجوبة عنه . فمن هي ، وما تشتهي ؟... قال : والسلام عليك ، ايتها المرأة . فمن انت ، وما هي حاجتك ؟

فاجابت بلهجة يطغى عليها خجل الانكسار : مظلومة جاءت تنتصف لدى سيدي ، وابن سيدي !

فغمرتها عيناه برأفة صبحى ، وقال بصوت بليل : وماذا استطيع فيك، ايتها الظاهرة الخفية ؟

ـ تستطيع كل جسيم . فانت وحدك تقوى على انقاذي من كربتي !

ـ ولكن ابدي ظلامتك ، ولسنا نحجم عن اجابة !

فاستطلعت بوجل : أتنيلني بغيتي ، حتى وان اكن اسأت اليك ؟

فابان بجميل الحلم ، كأنه يعلو صغارة الانتقام : اساء الينا الكثيرون ، فعفونا عنهم . ولا بأس ان تكوني من هؤلاء . تظلمي . كيف تقوى على دفع الملمة عنك ؟

ـ تقوى على دفعها بكلمة ، بايماءة . فما لك الا ان تشاء ، يا ابن علي !

فراعته قولتها . وران عليه الرفق ، فقال : كوني من شئت ، فان حاجتك لمقضية عندي !

فسقط عن وجهها قناعها . وما كاد يبصرها الحسين حتى صاح بسخط وعتاد : انت ؟... انت جعدة ، قاتلة اخي ؟... لا والله ، لست اعفو عنك في شعرة من هدب . اخرجي !

وارتجف حنقاً وكرهاً . قاتلة اخيه الحسن تمثل لديه تتنصف . بل ترجو سماحاً وعفواً . أيطيق مرآها ؟... أيجوز ان تفيض شفتاه بالعفو عن مطعمة اخيه السم ؟... وكاد يمشي اليها فيقبض على خناقها ، ويستل روحها . ولكنها امرأة . فاكتفى بان يصيح بها : اخرجي . اخرجي . اني لاتمثل فيك ابليس اللعين . تكاد روحي تنسل من اضالعي ، وانت في حضرتي . ابعدي ، يا موبوءة الروح . انت ممن ساعدوا على تقويض مجد الهاشميين !

وتشنجت اعصابه ، فبدا راعباً يقطر فيه الغضب من كل عرق . ولم يكن من جعدة الا ان جثت عند قدميه ، تبللها بدموعها ، وتقول : عفوك عن امرأة مشؤومة ، انزلت النحس بها ، وبزوجها الامين . رفقاً بطائشة منكودة

ادركها الخيبة، واحرق الندم مهجتها . جاهلة، لم تشعر بالمضيمة ، الا وقد طار السعد المؤاتي . فاقامت تتحسر على الكنز المفقود ، وتلعن نفسها ، ومن خدعها ، ودفعها الى الاذى اللئيم . اقتلني بيدك ، انتقاماً مني للحسن ، اذا ابيت ان تعفو عني !

وحكى فيها الدمع ما لم يقوَ اللسان على ادائه . وارتاع ابو الدرداء حيال الظهر الرهيب ، وقفّ شعر رأسه . ما هذا الاقدام،في جعدة ، وقد تجرأت على المثول بين يدي الحسين ، تطلب عفوه ، وتستندي حلمه ؟... والحسين يلين حيال الدمع ، فاطرق . وعدها بقضاء حاجتها ، ولم يجد بداً من الانجاز . قال وقد تضاءلت فيه النظرة المتوعدة : اذهبي . عاهدتك على المغفرة، وليس لي الا ان ابرّ في عهدي . اني لمكره على هذا الغفران ، وقد استدانه مني خدعة . وكان عليّ ان اسفك دمك في الثأر منك لذي الروح الطاهرة ، الشريفة . سفالتك جنحت بك الى تقويض عالم من مبرات . والعقاب الاندى اطفاء شعلة الحياة فيك . الا انك اخذتني بالحيلة، فناديت بالصفح . لقد رتعت في عفوي . ولكن حذار ان تعودي . بابي مقفل دونك . أغربي !

وارتجف واكفهر . وانهمرت الكلمات من شفتيه جمرات لهاباً ، تحرقه وتحرق هذه الجاثية عند قدميه، جازعة ، مكدودة . غير انها ما اقبلت كي تكتفي بسماحه . فهي المدى ابعد . ولم تتحرك. بل ظلت في سجدتها ، عند رجليه . فصاح بها بغلواء السخط : انصرفي . اريد ان تنصرفي . لست اطيق ان تدنسي داري بانفاسك الوبيئة . هذا ليس مكانك.انهضي، وابرحي منزلي. اخاف ان تنهار هذه الجدران وانت تأوين اليها بدمامة روحك . فان

مرآك ليشقيني !

فاجابت وهي تشرق بدمعها : من حق من تمتعت بعفوك، ان تستقر بدارك . مأواك لا يضيق بمن اتسع لها غفرانك !

فغلبته على امره، واحس بالقهقرى . جعدة الخائنة اقوى منه في سلاحتها. وبدا في موقف المرتبك ، الكميد ، وليس له ان يشفق على الجانية ، المحتملة الصفايا . قال وهو يتحامى الالتفات اليها، وفي منظرها ما يثير نفرته وحنقه، ويذيبه في شجاه : وفي مَ تطمعين بعد عفوي ؟... اكلتك النار !

قالت لا تنهيب ، وما تستطيب التزوج ، مع غدرها بالحسن، زوجها ، التقي العرف : في خدمتك . فاكون لديك أمة ، تلتقط باهدابها غبار نعليك، للتكفير عن اغتيالها اخيك، مثواه الجنة !

فصاح بها ، وما ينفك انتفاض الموجدة يهزه ، فيثور كالنار يرفدها الوقود : أيطيب لك ان تودي بي ، كما اوديت بالحسن شقيقي؟... هل كتب عليك ان تدفعينا الى الرمس صنواً بعد صنو ؟ .. . اخرجي ، والا دعوت الخدم الى طردك . ما رأت عيني ذات قحة تضاهيك . هذا هو الباب ، يا قبيحة الوجه . فاذهبي لئلا تمحو يدي ما افاض به سماحي !

فشهقت، وتدحرجت في الارض . لقد اغمي عليها . فأثر الحسين، ونادى الخدم قائلاً: اسعفوها، واحملوها الى دارها . هذه امرأة لا مقام لها في حمانا!

فكأن اليقظة عادت اليها وهو يدعو الى اقصائها . فنهضت من سقطتها وقالت بذل المستجدي : سيدي، لن يطول مقامي لديك. جلّ ما استرحمك فيه ان تبيح لي الثواء بكنفك ، لهنيهات ، قد يصبر عليها حلمك الندي !

فقال ابو الدرداء يتشفع فيها ، مشفقاً عليها من غضاضتها : لا تغلق

دونها مستفيض عطفك ، يا ابن علي . عفوت عنها ، فلم يبق من خير في استظلالها رفقك !

فاشتدت بالحسين الجهامة ، وقال : انك لتحملني على ما تكره نفسي ، يا ابا الدرداء. لابأس ،لتبق فينا هذه المشؤومة الوجه ،مع كل ما سيعرونا من نكدها !

وتصاعدت زفراته المشبوبة . وكادت همته ترزح باعباء آلامه . صفحه عن قاتلة اخيه محنة كفور . على ان جعدة داورته ، ونفذت الى فسيح رحمته ، فنالت منه ما لم تكن ترجو فيه هباءة . والتفت اليها الحسين يقول بصوت ساورته البحة : وما تريدين ، يا امرأة ؟

فاجابت وهي تستحم" بدمعها : لا وفق الله من فصل بيننا ، يا امير المؤمنين!

ونادته بالخلافة ، والخلافة مطمعه . واجادت استدرار عطفه بهذا النداء المشتهى . قال : لا وفقه الله مرتين . ضربنا في عميدنا ، واباحنا للشماتة الآثمة. ماذا ترتجين ؟

وألح في الوقوف على مكنون اضالعها ، ليسعفها في طلبتها ، ويسرع في ابعادها عنه . فلم يكن يصبو الى مرآها البغيض ، وما برح يتمثل فيها تلك الجرمة اللئيمة . قالت : ما ارتجي الا الخير ، يا امير المؤمنين !

فتصلبت عيناه دهشاً ، واطلتا عليها تستوضحان : واي خير ينضح به صدرك ، يا ابنة الغواية ؟

قالت تنضو عن مطاويها الستر : معاوية بن ابي سفيان ، الماكر ، يحوم على ارينب بنت اسحق. ومأمله ان يزفها الى ابنه يزيد !

فما لق في ما تذيع امراً ذا خطر . واستوضح باستخفاف : واين الخير

في هذا النبأ الداعر ؟

ــ الخير في ان يحول امير المؤمنين دون الزواج الغاشم . فلا يجمل بنا ان نساند الماكر في حبائله جمعاء . فنبيح له اعراضنا ، واحسابنا ، ولا نعارضه في شهوة طائشة . بالامس قضى على الامام ابيك. ثم اجهز على اخيك. وها هو ذا اليوم يضرب عبد الله بن سلام في كبده ، لينتزع منه زوجته أرينب ، ويزفها الى ابنه. انها لخدعة هدم بها الدين ، وبلبل خواطر المسلمين. فحذار ، حذار ان تنام عن تماديه . اني لاخشى غداً منه عليك ، اذا قابلت بالسكوت مشاينه ، ووهبت له من ارواحنا مرتعاً آمناً يجول فيه . فاضربه ضربة يتعظ بها ، ويدرك ان يده قصيرة عن ان تحوش الدنيا ومن فيها . إن يستفحل غدره ، ابتلعنا جميعاً ، يا امير المؤمنين !

فاطربت سمعه بترديد هذا النداء تستميله به الى مرجاتها. والتمع في ذكيّ فؤاده صدق قولتها . ولكن كيف يدفع عن اريب بنت اسحق اذى معاوية؟...أيقاتله بالسيف، وليس من معادلة بينهما في الجند والارزاق ؟... أيزجي اليه من بضاعته ، فيكايد ويراوغ ، وليست المماذقة من طبعه ؟... قال : ماذا اقوى عليه في ابن ابي سفيان ، يا امرأة ؟

ولم يشأ ان يلفظ اسمها ، كأن في اعلان هذا الاسم ما يكوي القلب والشفتين . واجتهد في ان يتناسى من هي . هذه ليست جعدة بنت الاشعث الكندي ، المضحية بالحسن بن علي ، لاشباع مطمع زريّ ، بل هي احدى نساء الكوفة، المقبلات اليه في بسط شؤونهن ملتمسات عونه . وآلمها تجاهله اياها ، كمن لا يود ان يرتبط بها بصلة ، ولا ان يعترف لها بقرابة . غير انها رضيت بهذا الانكار ، محتملة رهيف مضضه، على ان تفوز بأربها . قالت :

ألا تقوى عليه بانتزاع اريئب منه ؟

ـ انتزعها ؟... و كيف ؟

ـ بان تتزوجها . اريئب فلتة الزمن في روعتها وادبها . ولن تجد لها شبهاً في نساء قومنا . فلماذا يغير عليها يزيد ، وهي بجانبك ، فيستلها من حضنك ، وانت تغفو ، كأنك لا سمعت ولا رأيت ؟... ان في مغامرته استطالة ومهانة . فاطعنه في صميمه ، واسبقه الى ما يمني به نفسه . احتال وغدر ليستأثر بريحانة نساء العرب ، فاظهر له ان الاحتيال والغدر يجدان من يطيحها ، ويصوّح ناميها ، وانك حيث تلتفت تظلم في عينيه الدنيا . هذا مجال كسفك اياه ، يا امير المؤمنين !

وتكلمت بحماسة وهبتها لها نقمتها على معاوية ويزيد . لن تجيز لابن معاوية الخائن ان يظفر بابنة اسحق . بل سترد اليه سهمه . مزق قلبها ، وستمزق قلبه . وتلظت وهي تتمثل يزيد يتزوج باريئب . وودت ان تسمع من سيد الكوفة الموافقة على ما تدعوه اليه . هذا مدرج الانتقام . فراق التدبير الحسين بن علي . وشخص ببصره الى ابي الدرداء يستبحثه . فقال صاحب النبي : انها لنهزة ، يا ابن الامام . فلماذا لا تكون لك اريئب اللعوب ، فتعقد شفتيها على شفتين تخضبتا بانفاس سيد المسلمين ؟... والله ، لست محدثها عن سواك ، وسأعرض عليها الامر بجلاء . انت ويزيد تسعيان اليها . ولا ريب انها ستعرف من تختار . فلن تؤثر ابن ميسون ، على ابن فاطمة البتول !

وودت جعدة ان تعلم من الرجل . فما بقي لديها مراء انه رسول معاوية الى اريئب . ولكن من هو ؟... قالت : من يتكلم ، يا امير المؤمنين ؟

فقال الحسين : هذا ابو الدرداء ، من رجال الصحابة . نعم برؤية جدي ،

صلى الله عليه وسلم . ولم يشأ ، وقد ارتاد الكوفة ، الا ان يعرج علينا . انه لصديق وفي !

فغمغمت تستقصي :أهو خاطب اريتب ليزيد ؟

ـ انه لهو !

فاطمأنت ، وقد جاءت في اوانها . قالت : لا تكن يداً لاعداء النبي على حفيد النبي ، يا صاحب الرسول .على من راموا بنا شراً ، ان يدركوا اننا لن نسكت عن مقابحهم. خليفة المسلمين هذا، لا ذاك المتوسد المنصب الاول ظلماً واقتداراً !

فقال ابو الدرداء يهيب بها الى التجمل : لا تغضبي ، يا ابنتي . نحن نتفيأ هذه الدولة ، ولن يغمض لنا جفن عن العابثين بمصوناتها !

فصاحت وقد استنامت الى موقفها : كيف تريد ان ينمو الاسلام ، والقابضون على احكامه ذوو تدجيل ومكر ؟

فاجاب ابو الدرداء مستعيذاً بالله : لا شأن للاسلام في سيد يكيد . فالناس يذهبون ، والدين يبقى . غرسة ربك لن يستأصلها عبد يتنمّر . اذا فجعنا اليوم بالضالين ، فان عهد الضلال غير طويل !

قالت تحاول الانسلال الى بطانته ، لتقوده الى مشتهاها : أأكون رفيقتك الى اريتب ؟

فابتسم . ظهر له مقصدها . ليس سعيها ، للحؤول دون زفاف اريتب الى يزيد ، غيرة منها على الحسين واريتب ، بل هو حقدها على معاوية وابنه . فانها لذات قصة تناقلها الركبان.وعدها ابن ابي سفيان بابنه يزيد، كي تودي بزوجها الحسن ، فانجزت ، ولم ينجز معاوية . وانها من خليفة دمشق وابنه

الى سورة الحنق . فتجاهد في ان تبادلها الطعنة طعنتين . قال ابو الدرداء : ولماذا لا تستبقيني اليها ، يا جعدة ؟... اطلعها على ما يخلق بها ان تبدو فيه حيالي ، وانا استطلعها مصيرها . لتعلن ما تشتهي نفسها . فاما ان تكون للحسين ، وإما انها ليزيد . ولك ان تمهدي ، امامي ، الطريق الى اقناعها باصطفاء حفيد النبي الكريم !

قالت والغل يفشو في سحنتها ، فتبدو شفرة قاطعة : لن تكون ليزيد . اني لعلى يقين من صدوفها عنه . فقد رويت لها من مخارقه ما فيه الكفاية . وانها لتكرهه كرهها للداء العضال . وزاد في نفورها منه غدره بعبدالله ابن سلام ، زوجها . وهي تحب عبدالله . وطلاقها منه نزع من شفتيها البسمة . فاضحت ساهمة ، ضائعة . غير اني لم احدثها عن الحسين ، امير المؤمنين . فما ساورتني الفكرة الا الساعة ، وانا بالباب . ولقد مثلت بين يدي حفيد النبي لاستيضاح امرك ، ولدعوة ابن فاطمة الى الممانعة في خطبة ارينب للصل ابن الصل . وشاء الله ان يكلل سعي بالتوفيق . سندمغ معاوية وابنه دمغة لن يستفيقا منها . فالى اللقاء !

ونهضت كأنها لم تشهق ، ولم تسقط الى الارض في اغماء ، وقد بدت مالكة قواها جميعاً . قال الحسين بن علي : الى اين ؟

قالت بمضاء : الى ارينب . سارشدها الى ما عليها ان تعلن وابو الدرداء ينزع بها الى الاختيار . وارينب ذات قلب سليم . فلا تقترب من النكر ، ولا تميل الى الارتماء في احشاء النار !

فقال ابو الدرداء : ستجدينني في اثرك . ذللي كل عقبة ان تكن ثمة عقبات !

فتوارت كالشرارة . قال الحسين : انها لتشتعل ضغناً على معاوية وابنه. غرّرا بها ، ثم اعرضا عنها . دفعاها الى هدم الركن الاقوى في الاسلام ، بعد السلف الصالح ، وابقياها تحترق في مذلتها . رمياها بدائها ، وانسلاّ في ليل أليل . ولولا يقيني انها حمقاء ، جاهلة ، لامسكت عفوي عنها . بيد انها آلة عجماء . ويشوقني ان تكون تمرغت في خيبتها . وستجدها بين ايدينا سلاحاً قاطعاً . فنشهرها على من شهرها علينا ، وندرك بها منه ما ادرك منا . لا علينا اذا حطمنا عدونا بسلاحه . وسوف ترى انها تنيلنا المنشود !

وابو الدرداء ، مع خشيته انتقام معاوية منه ، اذا عاد الى دمشق على إنقاض ، سرّه ان يرى في جعدة النصير على الامنية . فما كان شديد الاغتباط بما انصرف له معاوية من زيغان . قال : اني اباركك منذ الساعة في اربنب لسيدي ، وابن سيدي !

فاستقصى الحسين : أتراها صائرة اليّ ؟

ــ بل اراها بين يديك . هذه نبلة قاتلة تصمي بها معاوية . فيعلم من تحقق عليهم راية الاسلام ، ان لعترة النبي ، في كل حين ، المقام الاعلى . فما ظهر ابن فاطمة حتى توارى ابن معاوية . وهي خير مقدمة لاقتحامك سدة الخلافة . فالفوز ، اذا ادركته في صراع المنازع ، فانك لمدركه في كل صعيد !

فطرب الحسين . انها لفاتحة يمن وبركة . ورجا واستبشر . فالسؤدد ، النائي عن الهاشميين ، سيعود الى الهاشميين . فيرجع الحق الى نصابه ، ويأوي السيف الى غمده . وتراءت الخلافة لابن علي في جلالها وفخفختها ، فانتشى بالرؤيا . فما اشهى الفوز بالسلطان في الدولة الفتية ، المسيطرة الى حيث لا تقف بها تخوم . هبت كالاعصار ، في كبد الصحراء ، واذا هي تجتاز المدن ،

وتقوض العروش ، وتنطلق منصورة عارمة الى ابعد امد . وهنىء الحسين بالنشوة . وخيل اليه ان عز الامويين نفق ، وان الزمن تفتّح عن ريحان صبيح . فما للهاشميين الا ان يتنشقوا العطر المتأرج، والفوح المنشور الطيب!

٥

ـ ابشري ، يا اريتب ، وافاك الانس . ستكونين لمن هو اسمى من يزيد ، واطيب مخبراً . ستزفين الى حفيد النبي . ابشري ، يا ابنة الاصفياء الميامين !

وطوّقتها بعنف . لا بد من تطويقها امعاناً في ابداء المسرة . فنظرت اليها اريتب نظرة لا يختلج فيها الفهم . ماذا تعلن جعدة ؟ . . . وودت ان تعلم . اي غد يرقبها ؟ ... قالت ارملة الحسن بن علي : بلغ رسول معاوية الكوفة . ولقد رأيته وحادثته فيك . واتفقنا على امر !

فملكها الدهش . أبيت مصيرها دون الوقوف على رأيها ؟.. . أتكون سلعة ؟... قالت تستفهم : وعلى مَ اتفقتما ، يا جعدة ؟

ـ لا تقلقي . كل ما قمنا به يكتب لك النصر . انت الظافرة ، وخصومك المهزومون . سوف تبصرينهم يأكلون خيبتهم مقهورين !

فصاحت بجيّاش الفضول : وماذا جرى ، ماذا ؟

ـ لن تكوني ليزيد !

ـ ولمن اكون ؟

ـ للحسين بن علي ، حفيد سيد المسلمين !

فوثبت اريتب من مكانها بقلق المرعوب ، وهتفت بوجل : للحسين ابن علي ؟... وكيف ابصرته ، واين؟...هل رضي عنك ، وانت قاتلة اخيه؟

فضحكت بملء فمها . وقالت : ضحيت لاجل انقاذك بكل انفة . فارتميت عند قدمي الحسين ذليلة مسترحمة. وبكيت ورجوت عفوه. فما بخل به عليّ ، وقد تأثر بدمعي واسترحامي . واهاب بي الى الانصراف عنه ، وهو يجود عليّ بنداه ، ولم يكن يطيق ان يراني . فابيت براح داره . وتظاهرت بالغشيان ازيد به في اشفاقه عليّ . وكان لي ما اطمع فيه . فصفا وانالني سماحه . قلت : « اعداؤك يتناهون في تحطيم صلابتك ، يا امير المؤمنين ! » . وحدثته بمقصد معاوية وصحبه ، وانا اقول : « اسبقهم الى اريتب . فمن الغضيمة ان يستلوها من جنبك ليزينوا بها قصر الخضراء !» . وشعرت بان كلماتي كشفت له عن افق رحيب ، لا تقلقه فيه الهزيمة . واتفق ان رأيت في مجلسه خاطبك ليزيد !

فقطعت عليها اريتب الكلام ، وقد حنت الى معرفة خاطبها لابن معاوية ، هاتفة : ومن الرجل ، يا جعدة ؟

— هو ابو الدرداء . من صحابة النبي . شيخ جليل ، منتفش العمامة ، منتفخ البطن . خلع عليه جبة تكفيني وتكفيك جهاز سنة . والرجل ينصرنا على معاوية وابنه . وسيقبل اليك ليسألك عمن تختارين زوجاً . أتكونين للحسين ، ام تؤثرين يزيد ؟

فاستوضحت مبهوتة : وهل حدثك بهذا ؟

— حدثني به . ودفعني اليك استحثك على اصطفاء الحسين . فما رأيك في من اخترت لك ؟... ألا تجدين في ابن علي الزوج المنشود ؟... انه لفي شباب يزيد ، وفي جاهه . ابن معاوية يرتع في دولة ابيه . وابن علي ينعم بعصمة جده ، وبمكانة ابيه الامام ، ابن عم النبي وزوج ابنته . ولست اراك على ضيم في

زفافك الى الحسين . فانك لتلقين في داره الرحابة الصادقة، والبشاشة المأنوسة، الخالية من الكلفة والمصانعة . فلا مماذقة ، ولا تضليل !

فحنت رأسها لا تجيب . انها لفي حيرة من امرها . فالاقدار تتجاذبها غير مشفقة عليها. قالت ابنة الاشعث الكندي : سيكون الساعة ابو الدرداء في حضرتك . وسيخاطبك في امر من تختارين. فالى من تميل نفسك؟... أتميل الى من فصل عنك زوجك ، وهدم هناءك ليستأثر بك ؟... ابعدك عمن تحبين طمعاً فيك . فيا للقاتل ، كيف اطاعته يده في خلع القلوب ؟

قالت أرينب ، وحيرتها ما تنفك تنطق فيها : ولكن الحسين بن علي متعدد النساء ، يا جعدة !

— لا عليك . لكل واحدة من نسائه المقام والاكرام . فلا تسطو امرأة على امرأة . وما يمنع ان تزدان بك دار الانفة والشمم ؟... فانت في حرز الحسين تزدادين نبلاً وجلالاً ، وتزيدين في الروعة والبهجة . والله ،لن تكوني لسوى ابن فاطمة . فقد وقفت نفسي على هذه البغية . ولن اتهاون فيها ما دام في عروقي دم يجري . أيطمع فيك يزيد ؟... لا ، والله . ان بلوغ الثريا لاقرب اليه منك.اعتزمت ان احرمه اياك . وسأحرمه اياك ، لا لشفاء حزازة ، بل لليقين ان التلاعب بالقلوب حرام . حطم قلبي ، وحطم قلبك . على انك ستثأرين منه لي ولك . أليس كذلك ، يا اختي ؟

فلم تملك ارينب غير دمع تذروه ، دون ان تدري بما تجيب . ان جعدة لقابضة على الزمام ، كأنها وحدها صاحبة الرأي في المصير . وتجلى لابنة الاشعث الكندي انها سيدة الموقف. فلن تجد من يصدها عن المنشود . وعلا وقع اقدام امام الباب . وركض الخادم يقول : بالباب شيخ ، ضخم

العمامة ، يستأذن !

فقالت جعدة مستبشرة خيراً : اقبل ابو الدرداء !

وخاطبت الخادم بقولها : ليدخل الشيخ !

ونهضت للترحيب به ، وقد ابقت اريب في ضعضعتها . فلن تحفل منها برغبة وميل . فما ترمي اليه ، هي جعدة ، هو المعلن والمبرم . وابتسمت لابي الدرداء بما ملأ وجهها ، وقالت : مرحباً بسيدنا الاجلّ الاكمل . انت هنا في دار ابنة اسحق . واريب ، القلقة المثوى ، كلفتني ان انوب عنها في الاحتفاء بما يليق بشأنك من تعظيم !

وانحنت عليه تهمس في اذنه : تم الامر كما يطيب لنا ان يتم . فهي بين ايدينا كتلة مائعة . لن تعارض في ما نحاول فيها . فما تقرّ نجد منها الموافقة المطلقة !

ورفعت صوتها تقول : من هنا . من هنا ، يا سيدي !

ودخلت به على اريب . فنهضت له ابنة اسحق اكباراً لمنزلته ، وهي تراه في حجرتها . قال وقد بسط يديه بالتحية : السلام عليك ، يا ابنتي . شققت اليك الصحراء على مترامي ملاءتها . والحمد لله ان اكون بلغت مقرك ، وانا استرجع النفس . فما حسبتني ادركك حياً !

واطال النظر اليها . فهي صورة للجمال الفياض بالاستهواء . كل ما فيها آية ، كأنها سمط آيات . وما استطاع الا ان يلوي عنقه اعجاباً ، وهو يكبر ويبسمل . لا لوم على يزيد ، في ازعاج الضمائر ، لارتشاف هذا الماء الزلال . وكاد الشيخ يتصابى . على انه جلّ نفسه عن المعصية . قال يخاطب ابنة اسحق : انت زينة العرب في بهائك المنيف ، يا اريب . سمعت بك فاتنة

ساحرة . بيد اني لم اكن اتمثلك في هذا الحسن المتوقد بغوالي السماء . سبحان من ابدع وصوّر !

فاعترتها حمرة الخجل ، فزادت في وسامتها . واستطاعت ان تتمتم : مرحباً بذي الفضل والنخوة . غاليت ، يا سيدي ، في حسن ظنك بي !

وشاع في مبسمها افترار كشف عن ثناياها . فارتعش ابو الدرداء على عتوّه في الكبر . فان في هذا الفم ، المشقوق كالبرعم ، المتحفز لنضو غلافه ، عقداً من اللؤلؤ النضيد ، لا يتمالك ، من ينعم بروعته ، ان يخشع في شده . وخشع ابو الدرداء حيال القسامة الغيداء . وبقوة غالبة أُوتي النطق ، فجمجم بابتهال المتضعضع ، المستجير : عونك ، يا ارحم الراحمين !

وخشي على نفسه ان يميع ، فذكر انه شيخ وقور . وتصدر المكان ، وقد اغرق عمامته في رأسه ، ليزداد يقيناً بموقعه ، ومجاوزته حد الهوى . وقال بلهجة لينة ، تجمع بين لطافة الادب ، وجلال المشيب : جئت استشيرك في امر نفسك ، يا اريب . فانت ، والله ، وجه الحاضرة ، وريحانة الجنة . وطلاب استنشاق اريجك ضخام العديد ، وانت تهبين للقلب النداوة والبهجة . فمن المحال ، وقد رنوت الى الحليّ ، ان يتناسى نظرة تأسرينه بها . واني لماثل ، تجاهك ، في اثنين من سادة هذه الامة . فهما ، وقد طلقك عبدالله ابن سلام ، يصبوان اليك . وكيفما نظرتُ اليهما ، وقعتُ على وهج من النبل والندرة . فان حظك ، من دنياك ، لثريّ ، اثير !

واريب ، وقد حدثتها جعدة عن الحسين ويزيد ، لم تجهل ما يجيب بابي الدرداء الى الاستئذان عليها . فالسيدان الخطيران افضت اليها جعدة باسميها . قالت : وددت ان يعفيني الشيخ مما يعدّ لي من خيار . فان نفسي

لا تشتهي زوجاً ، بعد عبدالله . وما كنت اعتقد ان حباً يربطني بابن سلام يُفصم . فتعاهدنا على العيش ، حتى الامد ، جنباً الى جنب . لا تبعدنا بؤسى ، ولا تفصلنا نعمى . نحن ابداً نحن ، في ارجوحة الزمن . فلا يزيح بعضنا عن بعض غير الكفن . واذا العهد يذبل ، واليمين تتناثر كالاوراق الصفر في الكاسحة . واي شأن لحب تهدمه بسمة خالبة في شفتي معاوية ؟ ... لا ، يا سيدي . جربتُ الناس في اصدقهم ، واسماهم . فاذا بالعظيم منهم كالحقير ، والنبيل كالخسيس . فدعني هنا ، في زاويتي . ان لي من مالي ما يكفيني اتقاء فواجع غدي . لست اطمع في مجد ، ولا في ثروة . والوحشة هي النعمة !

وتصاعدت كلماتها حزينة تتوجع . فقال ابو الدرداء ، وقد تأثر بمنطقها الكئيب : ولكني لا احاول ان اجازف بك ، يا ابنتي . فالراغبان فيك يملكان خيرات الارض ، ومباهج السعادة . هما ممن يرتعون من الجاه في القمة ، ومن الذخر في الرويّ الخصيب . أتدرين من هما ؟ .. ابن علي ابن ابي طالب ، وابن معاوية بن ابي سفيان . الحسين ويزيد . كلاهما ابن خليفة . وما لك الا ان تصطفي . فمن تضحك لك فيه الامنية ، فهو لك . انها لعطية لم ترشح لسواك بنضرتها . هذا رضى ربك عنك . فاشكري وقولي : « الحمد لله رب العالمين » !

فاجابت دون ان تتأثر ، كأن الامر لا يلفتها اليه : اراني افضل البقاء في عزلتي ، فلا اميل عنها . فالحسين ابن الامام ، وامه ابنة النبي . فمن يتشرف بتقبيل انامله يقبض على مفتاح الجنة . ويزيد سيد كريم ، تتوهج في طلعته لهبات العظمة والصولة . الا اني في غنى عن الاثنين ، يا ابا الدرداء ، والعزلة

اطيب جنى. هذه الوحدة اشهى عندي من التقلب في مهد السؤدد والسلطان. دعني في زاويتي. فهي ابقى لي من العز العريض!

وظلت مغموسة في اساها، تؤدي كلماتها مجلّلة بالانين. فقال ابو الدرداء يقصيها عن كآبتها وريبتها: على رسلك. لا اريدك على سهوم. ان العلياء لتدعوك اليها، فلا تسدّي اذنيك عنها. ربك لا يرضى عن استخفافك بجهة انعم عليك بها. فالمنحة، الكاسية غدك، يزجيها اليك الرحمن. ومن الاثم ان تكابري، وتعاندي الله في ما يزف اليك من عطاء!

فخشيت المعاندة، وقد آمنت بكلمات ابي الدرداء. فهو ممن اصغوا الى النبي، وساقطوه الحديث، وملأوا صدورهم بوصاياه وتعاليمه. على انها لم تتبدل في جوابها. فالانفراد مبتغاها. وآلم الرسوخ في الممانعة جعدة، فقالت: لا تكفري بنعمة ربك، يا اريب. هذه النفحة لم تظفر بها امرأة سواك. فالجلال من الناحيتين يزحف اليك. فالى اي ناحية تميلين؟... تكلمي. أتكونين لابن علي، ام تؤثرين عليه ابن معاوية؟... فلينطق فيك خاطرك!

فسكتت. فدمدمت عليها جعدة بغيظ: ليس الموقف موقف صمت، بل موقف بيان. بحب أيهما يخفق قلبك؟... أتتقدين بمودة حفيد النبي، ام يشوقك ان ترتبطي بمن يخلع عليك الحب الكاذب، السريع الانطفاء؟

ورقبت منها الايضاح. فاي جواب سينفرج عنه مبسم اريب؟... على ان هذا البيان، اذا اطلّ، على غير ما تريد له جعدة من سفور، نزعت ابنة الاشعث الكندي الى الشدة، مكرهة اريب على قبول الحسين. واريب حارت في ما تعلن، كأنها لا تدري من تختار من السيدين

الكريمين الملتفتين اليها . فلا الحسين ممن يشاح عنهم ، ولا يزيد ممن يجوز لها ان تجبهم بالاعراض . وفي الخيار ارتباك . قالت ،وهي ترغب في ان تتنصل من انتخاب فتاها ، فلا تقع تبعة اصطفائه عليها : ومن ترى ان انتقي ، يا سيدي ؟... انت ذو رأي رشيد . وانا اثق بك . وأقر بعالي فطنتك ، وبعيد حكمتك !

فايقن انها تترجح على لبكة ، وانها بحاجة الى من يقودها بيمينها الى المحج . فما توالى عليها من هزات هد حيلها . قال : الكفتان تتعادلان ، يا ارينب . فالسيدان متساويان في كرم العنصر ، وبسطة الجاه . ابن معاوية لا يقل عن الحسين شأواً ومكرمة !

فصاحت جعدة بغيظ : ولكن حدثها عمن يجب ان تؤثر على الآخر . فلا يكفي امتداحهما معاً . انك لتزيد في عماها ، وانت تطري هذا ، وترفع من شأن ذاك . فمن تراه من الاثنين خليقاً بها ؟

وجعدة سمعت ابا الدرداء يتكلم في حضرة الحسين. وما غاب عنها ان الشيخ ينصر ابن الامام . فهو بجانب حفيد النبي . ومن كالنبي في المسلمين سيداً وحبيباً ؟... واصاب ابا الدرداء ما اصاب ارينب من اضطراب وبحران . اذا هو أيد يزيد ، فقد اساء الى ابن فاطمة . وان هو سند الحسين، فاي شر يلقى من معاوية ؟... ان ذاك المستقر بدمشق ، على سرير الخلافة ، ليزلزل به الارض . وجرض ابو الدرداء بريقه. اي بلية رماه بها ابن ابي سفيان؟... واحس ان ما حوله يدور به ، وانه في ورطة وبيلة . وشزر جعدة بنظرة ود بها منها ان تكفيه مضض الاحراج . ولكن جعدة ، وقد خافت ان يضيع مجهودها عليها، مضت في التحريض، هاتفة: تكلم ، يا ابا الدرداء. انت

من اصفياء الرسول . وما فسح لك النبي في مجالسته لولا يقينه انك من اهل التقى والصلاح . فماذا ترى في الرجلين ؟ . .. أيرجح يزيد الحسين في الفضل والرفعة ؟

فاجاب الشيخ مكرهاً : معاذ الله ، يا ابنة اخي !

ــ أيبدو لك ابن ميسون الكلبية خيراً من ابن فاطمة البتول ؟

فاعلن ، وجبينه ينضح بالعرق الواخز ، المحرق : لا ، وتربـة ابي واجدادي . فاين ذاك من هذا ؟

فقالت جعدة ، وقد تجلت لها الغلبة : وايها اسمى خلقاً ، وارفع همة ، واصدق قولاً ، وأعف طبعاً ؟

فاضطر الى البيان الصراح ، مع كل ما تجرّ عليه قولة الحق من مخوف العقبى : ابن علي ، يا جعدة . ابن علي الحريص على نواهي الكتاب !

ــ اذن من تختار لها منهما ؟

واستدرجته بدهاء صارخ الى الافصاح عن المكنون . قال وهو يتلعثم: اختار لها . . . اختار لها . . .

ــ من ؟ . . . من ؟

ــ الحسين ... الحسين ، يا جعدة . أيحتاج الامر الى ايضاح ؟

واستلّت منه الاقرار بعنف، باكراه. وجهر برأيه الحق ، مغلوباً على امره. وصفقت جعدة بيديها طرباً ، وهي تنتزع منه مطلبها . والتفتت الى ارينب تقول : هل سمعت ، يا اختي ؟... أتطلبين شهادة اوفى ؟... ابن فاطمة يحرص عليك ، ويكرمك ، ويلمّ بمكانتك . اما ذاك ، المحتال الغادر ، فانه ليطرحك، كالنفاية ، حين يكتفي منك . فاختاري . هل يبدو لك السعد في

يزيد الكافر ، الضلّيل ؟

فلم تدر اريئب ما تجيب . وانحنت جعدة على ابي الدرداء تقول بشدة : امسك بطوقها ، وسرْ بها في المهيع الآمن . هذه امرأة سليمة الطوية . فمن الظلم المجازفة بها . من تراه خليقاً بان يتزوجها ؟... تكلم . اعدْ على مسمعها القول الصادق ، الحميّ !

فكاد ابو الدرداء يختنق ، وقد تمثل معاوية معربداً ، هائجاً ، يتهدده ويوشك ان يسحقه بنظراته الحاقدة ، الناقمة ، المشتعلة بنار السخط والكره . قال ، وقد القى رأسه بين يديه ، كمن يحس بالفاجعة تحل به ، ولا يجد سبيلاً الى النجاة منها : الحسين ... الحسين . هذا هو الحفيظ الامين ، يا جعدة !

وارتجف . اضغان معاوية تنصب على رأسه . ومعاوية رهيب يتقى . وسادت جعدة . وادركت مجدها ، كما كان حالها في عهد الحسن زوجها . فان رايتها للراية المنشورة . وانتصبت ، ازاء اريئب ، ويداها تسندان وسطها ، وهي تقول بلهجة المنصور : هل سمعت ؟... هل سمعت ؟ . . . الحسين ، الحسين دون سواه . نطق الشيخ الحكيم . اذا شئت الحياة الهنيئة ، العذبة ، الامينة ، فلا تلتوي عن عصمة ابن الامام . هؤلاء القوم عرفتهم ، الا اني كنت حمقاء يوم مكرت بهم . ولم يحرضني على الغدر غير الثعبان ، الطامع في لسعك . فلا تذهبي ضحية رخيصة ، مثلي !

والتفتت الى ابي الدرداء ، فاذا به لا يتماسك ، وقد استرخى . اذا نجا من بطش معاوية ، فكيف ينجو من بطش يزيد ؟... وخطر له ألا يعود الى دمشق . فيلوذ بكنف الحسين . ولكن يد معاوية ستدركه حيث يكون . ووضح فيه الارتعاش . فقالت جعدة مستفهمة : ماذا اصاب

الشيخ ؟... اني لاراه مريض الروح !

فانتفض ، كأنه يطرح عنه هواجسه . وقال بحماسة يبرأ بها من الهون: لا شيء ، لا شيء ، يا جعدة !

فلا بأس عليه اذا ضحى بالعزيز في سبيل اهل البيت . ان المستشهد الجنة . قالت ابنة الاشعث الكندي ، وقد رامت النفاذ الى طماحها : وعلى مَ اتفقنا؟... اي جواب هو جواب ارينب ، كي تحمله الى مصطفاها ؟

فقال ابو الدرداء يشدد عزائمه ، وفي عينيه يضيء الاستشهاد بوهجه : لم يبق من حافز الى التردد . شققنا امامنا الطريق ، وبباب الحسين ألقينا عصانا ، ولن نعدوه . ابنة اسحق لابن علي ، ولا محيد . فان هذا الاهتداء لمن وحي الله . طيبي قلباً ، يا ابنتي . مصيرك مصير ارباب النور والرشاد . ان من احتضنه النبي ليحتضنك . فما ابعد شأوك ، واكرم حظك !

فهبت على ارينب عاصفة من بكاء . فصاحت بها جعدة : أتكونين من نصيب الحسين ، وينطلق دمعك ؟... هذا جنون . اغتبطي ، وليفرح قلبك . فمن يتمتع برضى ابن فاطمة تضحك له السماء . لا تكوني غبية مثلي. انا بعت سعادتي بالاباطيل . ولو عقلت ، لابقيت على نعيمي ، فلا اهدمه بيدي !

فقالت ارينب ، وهي تغوص في شآبيب دمعها : وددت من زمني ان يبقيني لعبد الله ، ولا كانت هذه الشدة. فانا بجانب عبد الله في متجه خاطري ، ونبضة قلبي !

فامسكت بذراعها جعدة ، وصاحت بها باحتدام : أتزحف اليك المنى ، ويصدها ، في بابك ، النشيج ؟... والله ، دعيني اضحك منك . فلست

ادرك ما يرضيك . أتنهال عليك مراحم الله، فتلقاك منها على نفرة؟... انا لا اجهل حبك لابن سلام ، وامساكك على حبك . ولكن ابن سلام لم يبق لك ، وقد باعك . والى من تركنين، وانت بحاجة الى عاصم يذود عنك؟... أتستنيمين الى معاوية وابنه ، وهذا رسول معاوية نفسه يميل بك عن السقوط في المهواة ؟

قالت ، وهي ما تبرح على اضطراب في بتّ مصيرها : الحسين زينة الدنيا ، يا جعدة . ولكن عبد الله ...

فلم تقوَ جعدة على الاحتمال فوق ما عانت من احراج . وانفجر فيها الغيظ ، فاندلعت زمجرتها زاعقة : أتقلقين الارض بعبد الله ، وهو نابذك ؟ ... آمنا بان عبدالله وحيد دهره ، فماذا لقيت منه غير المهانة ؟... ازدراك كما يزدري الاجير . فكنت لديه أمة مبتذلة ، بل سلعة للمساومة . على حين انك، في رحاب الحسين، سيدة جليلة، تأمر فتطاع. ومن هو عبدالله ابن سلام ، بجانب ابن الامام؟... اعلني موقفك. هذه الزمجرة ما لنا ولها، وليس من حاجة بنا اليها . من انت ؟... صاحب نبي الله يرقب كلمتك . ولقد انتظر طويلا ، وأمضه الانتظار . أتريدين يزيد زوجاً لك ؟

فاجابت ودمعها لا يرقأ : لا ، يا جعدة !

ـ أأنت للحسين ؟... لابن فاطمة ؟

ـ اني لاستهدي بهدي ابي الدرداء !

فتنفست جعدة بملء رئتيها ، وقالت : ابو الدرداء يريدك للحسين !

فاجابت بصوت ضعيف ، ولكنه صريح : وانا لمن اختارني صاحب الرسول !

فقال ابو الدرداء وهو يجاهد في دفع مخاوفه عنه : بورك فيك !

وهوت عليها جعدة تقبلها بشوق وغبطة، وتصيح طرباً، ولا تدري كيف تصيح : احسنت ، احسنت . ان ربك لفي عونك . لم تبلغ امرأة ما بلغتِ من الرفعة والحسب . انت امرأة امير المؤمنين . يا لحلاوتك في حسن اختيارك !

وقالت لابي الدرداء بفائر الجذل : ابلغ ، يا سيدي ، ابن فاطمة ما سمعت . ان مشيئة ربك لهي الغلاّبة . ارينب اصطفت حفيد الرسول ، صاحب القول الفصل في عالم المسلمين . وما تزال الكلمة الاخيرة كلمته ، والحمد لله !

واحست بانها انتقمت . ضربت يزيد في كرامته ، وفي كبده . ان سلاحاً شهره عليها طعنته به . فما اجملها من سانحة قبضت فيها على خناقه ، واستأصلت روحه . آه منه كم حطم من افئدة . فلا حرج عليها اذا حطمت فؤاده ، وشفت احقادها المندلعة النيران . فقال ابو الدرداء ، وقد سرّه من ارينب ان تميل الى الحسين ، كما هاله منها التواؤها عن يزيد : سأبلغ سيدنا الحسين مشتهاك ، يا ابنتي . غير اني اعالنك ، منذ الساعة ، انك مخطوبة له . فقد فوّض اليّ امر هذه الخطبة . لك الهناء . اصبت في اختيارك !

ونهض . لقد ادى الرسالة مستمداً في القيام بها وحي ضميره . وودع بلبكة ، عائداً الى ابن الامام . ألا ماذا سوف يلقى من كيد معاوية ؟... ونفثت جعدة في مسمع ارينب : أتعلمين اي هزة خضخضتِ بها رحبة الاسلام ؟... احدثت في التاريخ رجة لا تهدأ ، وكتبت فيه صفحة لا تمحى . فانت ، منذ الآن ، في افواه الاجيال . يتناقل حكايتك الخلف عن

السلف ، حتى تأزف النهاية . نبلتك مزقت قلب يزيد . كان الله في نصرتك. انتقمت من العابث لجماعة وافرة من الضحايا !

وذكرت ما كان من يزيد فيها ، فبكت . هي في عديد اولئك الضحايا المناكيد. ولم تكن باضطرار الى هذه الكبوة تهون بها. ولكن يزيد اغواها. وانها لهالكة لا تجد من يعطف عليها ، ويؤاسيها . كانت في الذروة ، فهوت الى البؤرة ، على انكسار واعوال

واريب بكت . ماذا سيقول فيها عبدالله بن سلام ، وقد رضيت بسواه زوجاً ؟... هي ما تزال على حبها له ، مع طلاقه اياها . ولم يطلقها طائعاً ، بل مكرهاً . انها من هذه الحقيقة الوثابة لعلى جليّ يقين . خدعه معاوية انجازاً لمأرب ، وفصله عن امرأته ، عمن تبادله الهوى، ليرميه خسارة في الطريق ، ويزجيه الى الهلكة . وساءلت اريب نفسها عن مصير عبدالله. في اي ارض يتيه ابن سلام، وقد رذله معاوية، وأذله ؟... ان له في خزانتها مالاً اودعها اياه . وهي امينة على الوديعة ، تحرص على ردها على جمام . ونظرت اليها جعدة ، والدمع يغشى المقل الاربع ، وقالت بانين : على مَ تبكي اختي ؟

فاجابت اريب : على ما تبكين عليه ، يا جعدة !

وتفاهمتا بلا بيان. انها لتذيبان الدمع تحسراً على حب ضاع . فكلتاهما على فجيعة بالمودة . اريب تذكر عبدالله ، وتنوح . وجعدة تتمثل يزيد في سخره بها ، وتتلهف . فما تزال تحن اليه ، على غدره المقيت . ليته صدق في ما صارحها به ، فلم يهصر عودها ، ويدد مهجتها فور ظفره بمقصده منها. ولقد كانت له بمكياله . غير انها آثرت ان لا تقيم منه على قطيعة ، بل تستوي

واياه على حب سمح ، رفيه

وطال السهوم والبحران ، وما تزحزحت المرأتان ، عن مجثمها ، الا والليل يطبق بيديه من النهار الاجفان

والحب سكرة دائمة لا ينتهي امدها . فاذا لم يعش فيها من تخدر بها ، عاش بذكرياتها الخضال !

٦

دمشق والكوفة ترقبان ابا الدرداء بشوق الظامىء الى سماع البشرى ، وخشية المرتاب . فالحسين ، وقد اقتحم المضمار ، لم يكن دون يزيد هياماً بالوقوف على رأي ارينب فيه . فانه ليمضّه ، وهو ابن الامام ، وحفيد الرسول ، الطامع في الخلافة ، ان يكبو في الوثبة . فيتفوّق عليه ابن معاوية ، خصمه العنيد ، ويذله حيال المسلمين . فيقال ان معاوية كسف آل البيت في العسير واليسير ، والجليل والحقير .

وأقام الحسين يعدّ الدقائق والثواني . واستبطأ ابا الدرداء . فاصابه من القلق ، وهو على رمية سهم من ارينب ، ما اصاب ذاك المتقلب في دمشق على جمر لا يخمد ، وما تطفو عليه نفاثات الرماد .

ولعن الحسين تلك الماكرة جعدة . لقد طوّحت به . فلم يفكر في ارينب ، ولم تعرض له في بال . فكل ما جنح به ، الى التحدث عنها ، غدر معاوية بزوجها ، عبدالله بن سلام ، واحتياله على الزوج ليسلخها منه ، ويسخو بها على يزيد . ولولا خدعة معاوية ، وتحريض جعدة ، لاقام منها خليّ الضمير . ولكنه يرغب في نهزة يحطّ بها من شأن خليفة دمشق ، ويظهره في قومه كليلاً ، مهيناً . وارشدته جعدة الى السانحة في ارينب ، فتصيّدها ، وهو على يقين انه سيطبع جبين ابن ابي سفيان بالكسوف . فالنكاية تملكت فيه ، لا الصبابة . وليس من المحمدة ، لآل البيت ، ان يستبيح ابداً معاوية

حماهم ، فلا يرعوي عن غواية ، ولا يعفّ عن تهشيم .

ولكن ما بال ابي الدرداء يبطىء في العودة ؟... أيحتاج جواب اريئب الى مطّ ومطل ؟... خاطبها من يتبرك المسلمون بتقبيل راحته ، وينحنون حتى الارض بين يديه . وغشي العبوس محيا ابن علي . هذه ورطة لم يكن يود فيها الزلق . قاتل الله جعدة ، كم جازفت به !

وساءل نفسه ماذا يكون منه اذا خيّبته اريئب ، وآثرت عليه يزيد . وجلجلت فيه النقمة . انه لحانق على ابي الدرداء وجعدة . هما طرحاه في الوهدة ، لا يكرمان باذخ شأوه . وتمثل معاوية ويزيد ، في مديد فرحتهما ، وقد طار اليهما ان اريئب ازدرته ، وفضلت عليه يزيد . فضاقت به ارضه ، ونهض وجسده يغلي بالحمّى . ومشى ، وكأنه يمشي على وخز لئيم . فبدا مضطرب الخطو ، تعب الضمير . ان الفضيحة لذات فحيح يلسعه ويخزيه .

وأطلّ ، من احدى الشرفات ، يبحث في الطريق عن ابي الدرداء . أما حان له ان يعود ؟... هل يفاوض في ابرام هدنة ، كي تقعد به وعورة الحوائل عن الانجاز ؟ . . . ولكن ابا الدرداء هذا هو . لاح ببرنسه الابيض ، الشبيه بملحفة رداح . فتنفس الحسين . غير انه ما برح على ارتباك . هل رضيت به ابنة اسحق ؟

وثوى بمقعده ينتظر على شوق طفحان . وحبا اليه ابو الدرداء بمشيبه الوقور ، باسماً ، طروباً . فاشرق وجه الحسين . مظهر رسوله يغني عن كل ايضاح . باتت الامنية في صعيدها الوادع . قال والبهجة تتألق فيه : ماذا ، يا صاحبي ؟ . . . هات ما عندك عن ذات السنا !

فاجاب ابو الدرداء بانتفاخ ، شأنه يوم ظفر ، لدى معاوية ، بعبد الله بن

سلام : كل ما عندي يرضي سيدي . اريتب أمة بين يديه !

فاستوضح الحسين بنهمة الفضول الملحاح : هل اجابتني الى مطلبي ؟

فعلت صيحة ابي الدرداء طنانة، تجأر ببشير القول : ومن تجد كابن فاطمة بين طلابها ؟... أتكابر وابن الامام يسخو عليها بنفسه ؟... ابدت اسفاً على عبد الله بن سلام ، وجهرت بحبها له . فهو عندها الحفيّ الاثير . غير انها لا تهفو ، بعد عبد الله ، الى سوى زين الشباب ، الحسين بن علي . وافضت اليها جعدة بما ستلقى ، في هذه الاكناف ، من نعمة . فشغفت بان تتفيأ ظلك . ولك ان تتزوجها ساعة تشاء !

فاتسعت نفس ابن علي على مخضوضر الهناءة . ضم اليه اجمل امرأة في دنيا العرب ، واحرج معاوية وابنه . فالفوز باريتب لطمة للخصم القهار ، ومدرجة ، الى الصوت البعيد ، في كل بقعة تخفق عليها راية الاسلام . قال الحسين : ارى ان نسرع في هذا الزواج ، يا ابا الدرداء . فماذا تقول وانا أوليك العقد لي عليها ؟... بدأت ، فاكمل !

فضحك رجل الدين ضحكة ما خلت من الرعشة . ألا يكفي انه خطب اريتب لابن علي ، حتى يكلفه ابن علي عقد الزواج ؟... فما تكون حجته ، لدى معاوية ، وقد اوفده ليخطب اريتب ليزيد، فخطبها للحسين ، ولم يقف عند الخطبة ، فتعداها الى العقد بنفسه لابن علي على ابنة اسحق ؟

انها لطعنة ماحقة هذه المكايدة . فمن مهد لابي الدرداء الى الحسين ؟... بل اي حاجة له برأي الحسين ، والرجل من اعداء الامويين ، ومن اشدهم كرهاً ، واقتلهم حقداً ؟ ... قضى الشيخ المتبرنس ما استطاب دون ان يستعين بمشورة . فعصى ولي امره ، وندّ عما فوض اليه . وهل يجمل به ان

يصدم الخليفة في ما عهد اليه فيه ، وثمة خطورة قد تزلزل دولة ؟

وماج ابو الدرداء في خشيته. وكاد يرفض دعوة الحسين الى عقد الزواج. حسبه ما اثقل به عاتقه من تبعة ، ولن يظفر من معاوية بسماح. غير انه عادل بين دنياه وآخرته ، وابى ان يخزو الحسين . فاي قصاص يجبهه به النبي ، في الجنة ، اذا مانع في التوفر على مرضاة الحفيد ؟ ... وودّ ان يمضي في بذله ، بعد ما خطا فيه الخطوة الاولى . فاذا انتقم منه معاوية ، فله المنتهى . وآثر ربه على دنياه . قال ، وقد تراءى له انه يلمس بيديه اديم السماء : ما كنت لاجنح عن تحقيق ما يفيض به متول سيدي . فان يكن الحسين يريدني على العقد له ، على هذه الروعاء ، فاني لمطيع !

فهتف الحسين : سلمت ، يا ابا الدرداء. نحن ننقذك من ابن هند اذا بغى عليك . فلا ترهب شره . ما نزال غلاب سيوفاً تقاتل بها ، وصدوراً نعرضها لطعنات الرماح . ان بني هاشم لقوم يجانبون الواقعة . اما اذا خاضوها ، فلن ينثنوا عنها الا وعدوّهم يكابد الهزيمة . معاوية لم يملكنا بالسيف ، بل بالمكر . وانت ادرى الناس بامرنا . فاذا طاب له ان يغالبنا بمضاء الساعد ، جانحاً عن الغدر والخداع ، فليقبل. ولكنه لن يفعل، وهو في دهاء الافعوان. وما يقوى على سوى الرثاء ينتضيه علينا . والرثاء لسنا منه ، ولا هو منا . فاننا لقوم نشأنا على الصدق ، وسلكنا السداد. لا، لا تخف من معاوية . انا كافيك لؤمه . ان دارات الهاشميين لمفتوحة لك ، فانزلها بسلام !

فتحمس ابو الدرداء ، وقد شمله الحسين برعايته . وقال : لست اخشى في معاوية مكره، ولا سورة حقده، كي انهيبه. فساعالنه بما كان من اريب، وانفض يدي من الظنة. ما اقدمتُ على سوى ما دعتني اليه ابنة اسحق. هي

اختارت ، وليس لي عليها سطوة الاكراه . واذا عاند ابن ابي سفيان في تصديق مقالي ، طلبت منه ان يكويني بغضبه ، ولن افزع منها الى راجح حلمه !

فنهض الحسين الى ابي الدرداء يقبل كتفه ، ويقول : آمنت الآن بانك من الخلصان . وكم يشوقنا ان نقع على امثالك الصالحين !

واعاده الى اريتب كي يعقد له عليها. خير البر عاجله . ونقده المهر الغالي. من حق امرأة الحسين ان ترتع في صداق ثري". وماجت الكوفة بالقول البشير : قهر الحسين عدوه معاوية !

والكوفة ساخرة، مسنونة المقول . تشوقها الفضائح فتداولها، وتتفكه بها .واضاءت فيها الشماتة والحسين ينتقم لعبدالله بن سلام من خاتله .وجمعتها المجالس في الساحات ، والدور ، تهزأ فيها بيزيد ، وبابي يزيد . ضحكا من عبدالله ، فضحك منهما ابو الدرداء ، وهما يدفعانه ، الى مسعى ، لا يجيد إحكامه سوى اشباه معاوية

ضل" ابن هند الطريق ، وما عو"دهم الضلالة . فعلى من حاك المكيدة الدهياء ، وسلب عبدالله بن سلام امرأته ، ان يملك نظراً ابعد ، ورأياً انفذ. فلا يهون بامثال ابي الدرداء . وتساءلوا : هل خبا في معاوية الذكاء اللمّاع؟

ومشت الكوفة باسرها في العرس . الحسين بن علي يتزوج . ومن يتزوج؟... وكيف يتزوج؟... لقد زادت حكاية هذا القران في روعته ، وفي الاقبال عليه . فالجميع ودوا ان يبصروا ابنة اسحق ، في حلتها البيضاء، تجتاز ازقة المدينة الى دار ابن الامام . وعلت الاهازيج من كل فم. وسار الحداة على متون النياق ينشدون اناشيد الغبطة ، وقد حوت كل ظعن على

معاوية ، وكل استهانة بالامويين . ومن يستطيع ان يحول دون المثالب تفيض بها مراشف الكوفيين ، وما في القوم غير الناقين ، الطوال الالسن ، الشانئين؟... فان الكوفة لضرّة دمشق وخصيمتها ، ولا تمت بصلة الى بني أمية ، وما تنفك ترى فيهم الاعداء الانكاد

وذكرت اريئب ،وهي في حلة العرس ،عبدالله بن سلام .ما كانت لترغب في هذا الموقف، ونفسها تشتهي الحبيب النجيّ .غير انها شاطرت القوم النقمة على معاوية في غشه ومينه . فهو قاهرها ، وانها لتقهره في ابنه . بل تقهر الاثنين معاً .حاربها ابن ابي سفيان في قلبها ،فاستطالت عليه في جاهه وسؤدده، وفي قلب معقد رجائه يزيد . وابتهجت روحها . يوم الانتقام هذا هو . والكوفة ،على سعتها، نادت بان الانتقام وقع ،وبان الحسين ثأر لابيه واخيه. واستدلت على الغد بالعبرة الطارئة . لن يدوم سلطان الامويين . فان هذه الدولة العريضة ، المتلألئة بجاه بني امية ، ستتقضقض بهم ، وينتهي الامر الى بني هاشم ، آل البيت ، وعترة النبي .

ولكن هل ضحكت الكوفة بملء جنانها ؟... هل اخلصت في اندفاعها ، ومشت بجانب الحسين على يقين ؟... ان للكوفة مواقف لا تدوم على ثبات في النصرة . ربما مالأت اليوم ابن علي ، وانكرته غداً . فهي كما يخطر لها في السانحة العارضة . قد تويد، ثم تجانب ، وليس لها رأي مكين . ومناداتها بالحسين دعتها اليها ساعة الطرب والفوز . فالحسين هو الظافر . والظافر يجد حوله الخصوم قبل الاعوان . ثم ان الطرب ليس الحرب . فالحسين لا يدعو الى القتال ، بل الى الفرح . والفرح يلقى في موكبه ما هبّ ودب . فلا يتنكب عن الانطلاق في قوافله احد ، والجميع يروقهم ان يضحكوا ،

ويهزجوا، وينشدوا، ويأكلوا، ويشربوا، ويلهوا . والقليل القليل من هذا اللفيف يهوى الرمح ، والسيف ، وخوض المعارك المحتدمة اللظى

وزفت ارينب الى ابن فاطمة زفاف اميرة الى سليل ملوك . وحطت الهدايا مطاياها بباب ابن الامام ، فكادت تضيق بها الفسحات. وطال العرس اسبوعاً ، والشعراء لا يتغنون بجمال ارينب ، ولا بابتهاج حفيد الرسول باجمل امرأة حواها بساط العرب ، كما يتدفقون بالنيل من معاوية ويزيد ، وبازدهار العزة الهاشمية . فالسيف الهاشمي عاد الى مضائه ، وقد وثب من غمده يجلو عنه كثيف الصدأ

وجمعت جعدة حولها اسنى فتيات الكوفة ، ووقفت فيهن تحثهن على الرقص والغناء . وبلغت الحماسة ما لم يبق فيه لمستزيد أرب . وتهادت جحافل الفرسان ، وقد ارتأدت الرماح في الايدي ، تنادي بالحسين خليفة المسلمين

ولم يعدم معاوية العمال يسمعون ويتجسسون . غير ان معاوية، لو اقبل بنفسه الى هذه الامواج المتلاطمة ، لغرق فيها، وتوزعته الافواه لقمة لقمة ، وليس يكفيها . فالثورة كان يومذاك اوانها . الا ان الكوفيين لم يصدمهم مقاوم، ولا اهتدوا الى منافر . فتطاولوا ما شاؤوا ، دون ان يجسر مقحام على نظرة يعلن بها تأففاً وامتعاضاً . وانتخى الفرسان على ابن هند ، وودوا ان يسيروا الى دمشق يفتحونها بسيوف الهاشميين . فالانتقام الابيض يفرض الانتقام الاحمر

واشفق الحسين على ابي الدرداء لدن همدت فورة النشوة . ان معاوية لقاتله . فلن يحجب دمه ، وهو المعن في ايلام يزيد. فالفتى الاموي ،وابوه،

يحتملان عودة اريتب ، الى عبدالله بن سلام ، فوق ما يحتملان زفافها الى الحسين . انها لذلة تقلقل مناعتها في الدولة الريّا . قال ابن علي يخاطب الشيخ بالحديث البصير، الحكيم : ابا الدرداء ، لم يبق لك مكان في ظل معاوية . فأقم بيننا مرموقاً ، مكرماً ، وستلقى فينا الانصاف والبهجة . اني لاخاف عليك من حقد يزيد إن تنعم بسماح معاوية . يزيد لا يغفر لك ضربة سددتها الى صميم طماحه ، فادميت فيه القلب ، والانفة ، وابحته لعضات الغاضبين . سينقم علينا معاً ، عليّ وعليك . وسوف يتحين الفرص لطحننا . فكن منه على حذر . هذا فتى حقود ، لا يصفح عن اساءة ، ولا يصبر على جرح . انا اعرفه . فان نصيب من يخدشه التحطيم بلا هوادة . انه ليطرب لرؤية الفواجع ، ويستلذ الغوص في الدم . ابوه ، على داغر مكره ، اسمى وارحم . فلا تحترق بكيده . أذيتك له سيحفظها عليك ، ويحاسبني عنها . اما انا ، فانك لتعلم مقدار ازورائي به . واما انت ، فكيف تنجو من منسره ، وبرثنه ؟ ... إبقَ بيننا . لا تعرض صدرك للمنايا ، وانت ممن نضن بهم ان تطاولهم حامحات الزمان !

ولكن ابا الدرداء ، وقد وطن النفس على الاستشهاد ، مال عن خلوص النصيحة . لن يبالي الدامغة يدمه بها ابن هند وابن ميسون . فهو من ايامه على استصفاء ، ولن يمتد به زمنه حتى يوم القيامة . قال : ادام الله سيدي ، ونفعنا بمبراته ، لست اطيق ان يعتقد معاوية اني خنته . فعليّ ان اسير اليه واوضح له الامر كما وقع . واذا ابى ان يصدقني ، وشاقه الانتقام مني ، فلتقبض يمينه انفاسي ، وقد سبقني في الشوط ابوك واخوك !

فاستوضح الحسين بمضض : ولماذا المجازفة ، يا ابا الدرداء ؟

ـ لا مجازفة ، يا ابن الامام. معاوية لا يجرؤ على الفتك برجال الصحابة، وهم ألسنة الحق ، وسيوف الرسول !

فادهشت هذه الثقة بالنفس الحسين . وقال بريبة تجنح بابي الدرداء عن همته الطروح: اراك سديد الايمان بكرمه وحلمه ، كأنك تجهل من اغتصب الخلافة من ابي، ومن اودى بالحسن اخي . معاوية لا تؤمن لسعته . فحذار ان تلدغك الافعى !

ولكن ابا الدرداء لم يجبن . سيعود الى معاوية ويطلعه على ما لقي في الكوفة ، وقد التوى فيها عليه القصد . ولا يد له في هذا الالتواء ، وهو منه طاهر الثوب ، نقي اليدين . اريتب تمانع في ان تزف الى يزيد ، بعدما وضح لها احتيال قصر الخضراء على عبدالله بن سلام ، زوجها . فآثرت ابن علي تشفياً وانتقاماً . قال الحسين : وهل يتراءى لك انك تقنعه ؟

ـ لست احفل بما يكون منه . حسبي اني درجت ازاءك ، وازاءه ، على سنة ضميري . وسانطلق اليه على يقين باني قمت بما عليّ !

فصاح الحسين وجلا : ابا الدرداء ، لا تشخص الى حتفك !

فابتسم كمن لا يخشى الحتوف ، وقال : سيدي ، استشفع لي الى جدك ، صلاة الله عليه ، وانا بمأمن من سخط ابن ابي سفيان بن حرب !

وغشي الحديث مسامع اريتب وجعدة ، وكانتا من الرجلين على وثبة . وشاطرت جعدة الحسين مخاوفه على ابي الدرداء . فدلفت اليه تقول : لا تقتحم اشداق النار ، يا سيدي . انت في الكوفة بمنأى من الغائلة . فاذا نجوت هناك من معاوية ، فلن تنجو من يزيد . اني لاخشى عليك من ابن النصرانية . هذا فتى يزدري الكرائم ، ويطيح المصونات. فلا يرهب جليلاً،

ولا يتجافى المنكر . صارمٌه ، وانت الطويل العمر . فان سعيك اليه ، بعد تهاونك في نصرته ، وبال عليك . لكأني اراه يلحوك لحو العود ، فاحذر المقاربة . ان سيدنا الحسين ليدرأ عنك الاذية ، فلا تبرح حماه !

فابتسم برفق المطمئن . اذا قضى عليه معاوية، او يزيد، فان له ممن سبق، من رجال القافلة الميامين ، خير قدوة . فليس بالضحية الاولى من ضحايا الظلم . قال : لا مفر من المقدور ، يا جعدة . مرحباً بالمكتوب . لست اتحامى مشيئة ذي الجلال !

قالت متأففة : أتنطلق الى المهالك ، وتكل نفسك الى الله ؟ . . . من لا يتصوّن عن الزلق ، فلن ينجده ربه . مسيرك الى دمشق شؤم عليك !

واقبلت اريتب تقعد به عن المخاطرة . قالت: انت بيننا في اكرم اهل، واصدق خلان. فما بك تحاول النأي عنا الى حيث يصطادك ذئب موتور؟... لا تبرح مناخك . فأنت هنا على الرحب .ولسنا نرضى ان يطاولك الاذى ، وقد رغبت لنا في السعادة . دمشق كلها انياب لنهشك وقضمك !

فمضى في ابتسامته الرضية،ابتسامة القانع بخسران الدنيا لكسب الآخرة. ولم يتبدل عزمه . سيركب مطيته الى عاصمة الامويين . ولن يبدو ، وهو من رجال الصحابة ، خائناً جباناً . فالمهمة الموكولة اليه لم يكتب له فيها التوفيق . كان على ابن هند ان يختار رسولاً آخر للامر الجلل ، وقد سلك فيه ابو الدرداء مستوحى الضمير . ابن علي، لديه ،انبل وجهاً من ابن معاوية

وودع الحسين وصحبه . ودعا لهم بالغبطة الوارفة ، الآمنة . ودفع جواده الى قفار رحاب ، غبر ، عانى فيها الضنى، وسيعاني الضنى . وتلبدت في جبينه غمائم دكن . فهو غارق في تفكيره . ماذا بدر منه ؟... اي حقد

زاد في اضرامه ، واي نكبة جرّها على نفسه ؟... أيقوى على الوقوف من معاوية وجهاً لوجه ، وهو يتمثل ، منذ الساعة ، غضبة معاوية عليه ؟ . . . اذا سدل معاوية الحلم على الزلة ، فهل يحلم يزيد ؟

و كلما جاب الفدافد ، ثقلت عليه الوساوس ، وتعاظم وقع الخشية . الى اين يسير ؟... أيجهل انه منطلق الى اشداق الموت ، الى الجزّار المنتضي السكين للذبح ؟

وكل ما تذمر به من طول الطريق، وهو مقبل الى الكوفة ، تلاشى فيه وهو عائد الى دمشق . فودّ ان يطول المجال الى ما لا حد له . ليت كانت دمشق في اطراف العالم . فلا يبلغها الا وانفاسه على وشك ان تطير . بل ليت تطير انفاسه في هذه الصحراء .فتطويه حفرة في الرمل المضياف،المتأجج حنيناً الى انيس ، وقد اقام من وحشته على ملل واكتئاب

ومال بالركب الى الهوينا . فليس ما يفرض العجلة. دمشق لن تفرّ من مثواها . هي على ضفاف بردى ، وستبقى هناك راسخة الجذور ، مغمورة بالحور والصفصاف .فلماذا اجهاد النفس في الوصول الى مدينة لا خوف عليها من فناء ، ولا نوى ؟

ورهب دمشق . فبات لديه اسمها مقيتاً ، كأنها دار شقاء . واعتزم ان يمحو من ذهنه اسم معاوية،وان يتجاهل يزيد.فلماذا يحذرهما بمثل هذا المقدار؟... انهما لمن طينته ، والخلافة لا تزيدهما خطراً . ولن يرجحا عليه بها ، وهو ممن آثرهم الرسول بعطفه . ولكن أيتعامى عن الراهن المحسوس ؟... أينكر اشراق الشمس ، ومعاوية وابنه يسطعان كالشمس في بحبوحة الفلك؟... ان اشعتهما لتمتد من القسطنطينية،قاعدة الروم، حتى تخوم الصين .فالى اين المفر

منها ، وهي تشتعل سؤدداً وصولة ؟... وها هي ذي في كبد الصحراء تقلي وتشوي . وان ابا الدرداء ليشعر بمياسمها . فهي تكويه . ان معاوية هنا ، ينشر على هذه الرمال سلطانه ، كما ينشره على الحواضر . فما هذا السيد المستطيل ؟

واستنجد ابو الدرداء بارواح من ضمتهم الجنة ، من الاولياء الغطاريف. ولكن هل يشفع الميت في درء المكروه ؟... غير ان الايمان ، وهو شعلة متوهجة ابداً في نفس ابي الدرداء ، لم يخمد فيه . فظل في صدره مضطرم الاوار ، يهيب به الى متابعة المسير ، صائحاً : لا تخش !

وكلما وهنت ، في الشيخ ، همة الكفاح ، امدها الايمان بالعزة والمناعة. وشعر ابو الدرداء بالضعف والعزيمة معاً يعتلجان في صدره . فلا يتلاشى فيه عرق ، حتى يتصلب عرق . وانقضت على الركب الايام الطويلة في طريقه الى دمشق ، وابو الدرداء منصرف الى شجونه . فلا يخاطب من حوله ، وهو في شغل عنهم بنفسه . كيف يعتذر لمعاوية؟...وهل يجدي العذر ، مهما كان من وجاهته ، في استدرار حلم ابن هند ؟

وعاد فتراءى لابي الدرداء ، في اعماق خاطره ، انه لم يكن صادقاً في اداء المهمة . فهو مكلف امراً واضحاً . فلماذا جنح عما عهد اليه فيه؟... واذا احس ، في الكوفة ، بانه جرى في مدرج ضميره ، فانه ليغالط شعوره كلما اقترب من دمشق . فالخوف من معاوية ويزيد جرّه الى مناقضة نفسه . وارتعش ملياً ، كأنه اجترح في الكوفة الموبقات ، وما يقبل الى دمشق لسوى لقاء جائح القصاص

وطال تقلبه في وساوسه .وادرك ، من في الركب ، ان ابا الدرداء غير

مستنيم الى مصيره، وقد هاله سوء المغبة. فكيف يريده معاوية على امر جلي"، فيعود اليه عابثاً بالرغبة ؟

وساد الوجوم الركب. فهو يطبع الرمال برواسمه بخطوات فاترة، خائرة، كأنه يمشي في جنازة صفي"، ظلمته الاكفان

٧

أهذه دمشق ؟ ... لقد تبدلت في عين ابي الدرداء ، كأنه يؤمها للمرة الاولى. فهي في ناظريه غيرها بالامس . وانه ليسائل نفسه اين هو . فما هذه البساتين الجهم ، البادية لعينيه ، وقد كانت متناهية في الخضرة ؟... وما هذه الوجوه الطالعة عليه، وكأنه لا يعرفها ؟... انه لفي عالم جديد العين والقلب

وومض، في باصرتيه،قصر الخضراء . فارتجف وانتقع لونه.فالشر يبطن هذه الجدران الشوامخ ، القائمة في صدر دمشق ، كأنها قضاء الله ، الباسطة اجنحتها بالرحمة، وبالرهبة . فالظلم فيها ، والحلم فيها . الجبروت في صميمها ، والوداعة في ظلها . انها لوكر اضداد . الحمل يعيش ، بين حناياها ، بجانب الذئب . بل ان هذا الحمل يتبدل في مواقفه . فيبدو ذئباً اغبر ، ثم ينقلب الى نعجة بيضاء . وما يستقر على لون ، لفرط رجرجته . فيربدّ ويصفو ، شأن من طبعه اللفّ والروغان

واحتذر ابو الدرداء الاندفاع في طريق القصر . فليس يجهل ما يرقبه فيه . وتذكر كلمات الحسين بن علي ، وما برحت تتواثب في ذهنه . قال له الحسين : « إبق عندنا. انت بيننا بامان. فاني لاخاف عليك، هناك، من بطش معاوية . واذا أمنت معاوية، فلن تأمن يزيد . لقد كويت قلبه، وليس من العجيب ان يكويك ! » . فقال في نفسه : صدق الحسين . ليتني بقيت في الكوفة . ومن الحماقة ان اعود ، الى دمشق ، بعد قهر يزيد !

ولكن الى ابن يفرّ من يزيد ؟ . . . فوطد النية على المثول في حضرة معاوية . وليس من ذلك بد . فعليه ، وقد تجرأ على الايلام ، ان يمضي في جرأته ، لا يرهب . واقتحم قصر الخضراء . كان يسير اليه بقدمين مضطربتين ، وبقلب واجف . وما برحت صفرة الموت تكسوه . فهو من نفسه في برد رثيث . وبلغ القصر وهو يلهث . ولم يكد يستأذن ، على معاوية ، حتى اقبل الى الترحيب به القادة والحجاب . وماج القصر بالنبأ . ابو الدرداء عاد من الكوفة ، وقد خطب اريتب ليزيد

ومشى الى معاوية . ففتح له خليفة دمشق ذراعيه ، يحاول ان يضمه الى صدره . ولكن ابا الدرداء في رعدة . فانه ليخشى الدنو من معاوية ، كأن في نعليه اثقالاً تقف به عن الحراك . بل هو لا ينظر الى الخليفة ، اشبه بمن في عينيه حسور ، فلا يبصر امير المؤمنين . فتعجب منه ابن هند . ماذا اصابه ؟... هل عاد من المهمة بالاخفاق ؟

وجمدت البسمات في الثغور . واستدارت العيون ، وجحظت . واطل يزيد يصغي الى البشرى . اقبل بفؤاد اتسع حتى ضاقت عنه الفدافد ، على مترامي فجاجها ، وقد تهادت اليه المنى . ولكن الرعب تولاه حيال الصمت المنشور . ماذا ؟... هل رجع ابو الدرداء تدمغه الخيبة ؟

وسها معاوية وهو يجرض بريقه . وارتخت يداه ، فهوتا على جانبي مقعده . فما هذا الجمود الراسي في ابي الدرداء ؟... وتجلت النازلة ، فخاف ابو عبد الرحمن على ابنه . وابى استطلاع رسوله خفايا الكوفة ، حذراً من الصعقة المتوعدة . فالخذلان ينطق في ملامح الشيخ القلق ، الكميد ، الغائر في الارض . على ان يزيد ، وقد هاله الموقف ، مال الى الاستفسار الوشيك . ماذا كان من

ابي الدرداء في الكوفة؟...وعبس يزيد . عرف الجواب قبل طرح السؤال. ولكنه ود ان يستفهم . قال بنبرة يتحفز فيها السخط : ابا الدرداء، ما هذا الشلل فيك، كأنك من الاموات؟... ألا تكلم . ماذا فعلت في الكوفة؟... هل قفلت الينا موفق الجد ، مبرور الهمة ؟

فالتفت ابو الدرداء الى من حوله ، وقال : أؤثر ان تقيم على خلوة ، يا امير المؤمنين !

وارتجف فمه وهو يفضي بهذه الكلمات ، المتصاعدة من صدر يغوص في الحرقة . فقال معاوية ، وقد قصم ظهره عبء الفاجعة : ليخرج من يضمهم الايوان !

فقلب القوم شفاههم حيارى ، ساهمين . ابو الدرداء خانه التوفيق . على ان الفضول عبث بالالباب . ما حال دون امتلاك البغية ؟... وود الجميع ان يعلموا . وعمدوا الى الاسهاب في التأويل .هل رفضت اريئب ؟... قال معاوية وهو يخلو بيزيد ، وبابي الدرداء : اراك تنعى الينا طلبتنا، ايها الشيخ المرتعد الروح. فماذا اتفق لك في الكوفة ؟ ... هل عدت منها على إصفاء ؟

فقبل ابو الدرداء الارض بين يدي معاوية، وقال: ادام الله امير المؤمنين في عالي مجده ، ورفيع سؤدده . ان ربك ليعطي من يشاء، ويحرم من يشاء. وله في عباده ، تعالى اسمه ، احكام لا تدرك . فليس لهضيم ان يتذمر ، ولا لذي نعمة ان يصعّر خده .نزلت الكوفة وكل من فيها عليّ عيون .فما دروا اني رسول معاوية ، الى اريئب ، حتى تجلى لهم السر ، وسبقوني اليها ينعونها عن يزيد !

فصاح معاوية صيحة تنتطر ناخع الغيظ ، كأنها قصفة الرعد ، مستوضحاً

بانقلاب سحنة : يمنعونها عن يزيد؟... أتكون العوبة بين ايديهم، فيحجبوها عمن يريدون ، ليزجوها الى من يؤثرون ؟... ألا من هم هؤلاء الانجاس ؟

فاوضح ابو الدرداء من نفس خائرة ، تكاد تفيض : هم اعداء امير المؤمنين . والكوفة منهم على امتلاء . ولقد سبقوني الى أرينب يأبون عليها ان ترضى بمن فصل زوجها عنها . فاطاعت ، ونفرت عما شخصت اليها فيه !

فنبر يزيد ، وقد احمرّ وجهه حتى كاد ينفزر بالدم: وماذا قالت ارينب وقد حدثتها عني ، يا ابا الدرداء ؟

فهز رأسه جزعاً، واستفهم بانكسار المغلوب: وماذا تريد منها ان تقول، وكل من حولها يهيب بها الى الرفض ؟

ــ هل رفضت ؟

ــ يكفيك ان جعدة اقبلت اليها تشكو ظلمك ، وتزخرف لها السكون الى الحسين !

فشرق معاوية ويزيد بانفاسهما ، كأن حية لسعتهما ، وهما يسمعان ان جعدة توائبهما بحفيظتها واضطغانها . اذن خسرا المعركة . فالحقد الفائر ، بين اضالع جعدة، ذهب بنبيع الجهد . قال معاوية بوجل : وهل فازت جعدة ، يا ابا الدرداء ؟

فحنا الشيخ رأسه ، وغمغم بوجل : فازت ، يا امير المؤمنين !

فاحسها معاوية لكمة في جبينه. وصاح راعداً : وكيف ؟...ويحك ! ان ثمة لتحطيم كرامة،واستفزازاً الى مصادمة الهاشميين.فهل تعود معركة صفين ، وينازل معاوية الحسين، كما نازل اباه ؟... أيجنح به ابن علي الى قتال يتجنب خوضه، وليس يدري الى ما سوف ينتهي فيه ؟... معاوية ينظر الى

هذه الدولة، المستقرة بيمينه، وما يكاد يصدق انه سيدها . فكيف يشتبك في حرب قد تمسي فيها الريبة يقيناً ، فيفلت منه الملك الفسيح ، ويبيت طريداً منبوذاً ؟

ونظر الى ابنه وملامح الاثنين في فحمة اليأس ، والغصص تفاجئهما دراكاً ، كأنها تكفر بالنهاية . وطاولهما الرعب ، فنتأت الاعين ، وتفتح الفمان . واطرق ابو الدرداء ، وناظراه يبحثان ، في اغوار الارض ، عن منفذ للفرار . وقهر معاوية اعصابه ، صوناً لكرامته ، فقال : وهل تزوجها الحسين ، ايها الشيخ ؟

فتصاعدت الكلمات من حنجرة ابي الدرداء تحشرج . قال وهو يتوقع انقضاض الموت : تزوجها ، يا امير المؤمنين !

فخيل الى معاوية انه يسمع باذنيه قضقضة عرشه . وهاج يزيد . فهمّ بالوثوب على الشيخ العاثر يرديه ، زاعقاً : هل تزوجها على مرأى منك ؟... وانت في الكوفة ؟... اخشى ان تكون عقدت له عليها بنفسك . والله ، لاسفكن دمك ، وقد وصمتنا بالعار حتى ابد الابيد !

وناح فيه غضبه . عجباً لغضب ينوح ويهون !... فما ابقى فيه ابو الدرداء على نزرة من صواب . وهجم على الشيخ المرعوب، وفي يديه مخالب رهاف، وفي فمه زبد، وفي عينيه نار . وكاد يقبض على عنق هذا الرسول الكابي، بل المتغابي، ويستلّ روحه ، لو لم يثب معاوية عن عرشه، ويحول دون مستفحل الشر . فلم يكن يزيد يدرك اي جريمة سيرتكب ، واي اثم سيضيف الى ما تراكم في قصر الخضراء من ذنوب. فان مقتل ابي الدرداء، اذا وقع، سيكون اشبه بمقتل عثمان بن عفان . فاذا بنى معاوية شهرته وجاهه ، على قميص عثمان،

داعياً به المسلمين الى الانتقام للخليفة الشهيد ، من خصمه علي بن ابي طالب ، فلن يختلف موقف الخصوم ، من مقتل ابي الدرداء ، عن موقف معاوية من مقتل ابن عفان . وسوف يحملون قميص الشيخ ، وهو من رجال الصحابة ، ويبكون عليه ، ويستبكون ، طالبين الى المسلمين الثأر من معاوية للدم المهدور . هذا صفيّ النبي ، ووديده ، يبطش به ابن ابي سفيان !

ولم يكن معاوية يجنح ، في صرحه ، الى تمثيل فاجعة اشبه بداهية الامس . فالمبتغى الاوحد ، في شرعه ، ان يوطد تحت قدميه مقام الخلافة . وفي سبيل الاعتصام بالخلافة كل تضحية تسوغ . فاذا لم يعد ابو الدرداء موفقاً ، من مهمة انعقدت عليها الآمال ، فلن تعلو الضجة ، ويستصعب الامر . فالضجة ، في احتدامها ، تبعث على خضخضة قد يضطرب بها مسند الامامة . وللحؤول دون الخضخضة ، فلا غنية عن السكوت . السكوت والرضى بالمقدور . فلا سورة تضرم الثورة ، وتحرق الاخضر العود . وصاح معاوية بيزيد : حذار ان تمد اليه يداً بسوء . اني لاحميه من عدائك . اياك ومسّه بشرّ . انه لمن رجال الصحابة ، فلن تحدجه عين شزراء !

ووقف معاوية بينهما يهدد يزيد ويقول : اذا لم يوفق ، فالتبعة لا تطاوله ، والكوفة تضيق باعدائنا . كلهم هناك يريد لنا الانهزام . ولا تدهش اذا جانبتك اريب . فالدهش في ان ترضى بك زوجاً . وما كنتُ اميناً عليك منها لو قبلتك حليلاً . فان حكاية جعدة ، في الحسن ، لتعود الى الظهور . احسنتْ في مصارمتك ، وقد صانتنا من الندم . انها لصادقة المخبر ، كريمة العرق !

والتفت الى ابي الدرداء قائلاً : اما انت ، يا ابا الدرداء ، فلا تنقم على

يزيد في حدته . فانك لتعرف من امر ابني ما لا حاجة فيه الى ايضاح . يزيد غضوب ، فلا تعتب عليه في بادرة الغيظ . الا انه سليم القلب والنية . ألا انصرف ، يا يزيد . ودعني وابا الدرداء في محادثة يفرضها المقام . ولا تجزع للخيبة . انها لغيمة صيف وتتبدد . ففي المطرق العربي الف اريئب . وليس فيه ليزيد عديل !

وصرفه عنه برفق وامر . وعكف على ابي الدرداء يخاطبه بقوله : وقانا الله واياك داهية الخذلان ، يا ابا الدرداء . فاذا دفعنا عنك نقمة يزيد ، فليس انقاذنا اياك من نزوته بالدليل على انك احسنت . انت ما اسأت الى يزيد ، في قلبه وشممه ، بل اسأت الينا جميعاً معشر الامويين . ان يزيد ليجلني ويرهبني . ويأبى ان انطوي له على سخط . فاذا رضي بالانصراف ، وقلبه يقطر دماً ، فلن يغفر لك ايلامه ، والسخر بهواه . بل سوف يحفظها عليك ، ويطلب دمك . فابتعد عن طريقه ، لئلا يشفي منك بلباله . ربما كنت لا تعلم مدى هيامه بازينب . فاذا عالنتك بانه يعدل بهذا الهيام ، سدة الخلافة ، فصدّقني . لقد ظهرتَ في الكوفة ملتوي السعي ، شارد النهية . والمعتبة عليّ وحدي . كان ، من المنطق الصحيح ، ان لا اعهد اليك في ما انت دونه . رميتنا بغضاضة ما عرفنا لها مثيلاً ، منذ ملكنا السيادة في الاسلام . ألا اين حجاك ؟ ... أتتولى المفاوضة في امر ، فتدور فيه علينا الدائرة ؟ . . . انها لسخافة كنت اود ان انزهك عنها . ولكنك اقدمت عليها . فيا لضياع املي بك . لم تكن عند حسن الظن !

فتألم ابو الدرداء ، وهو يسمع مقال معاوية الواخز ، على عفة في البيان ، اكثر منه وهو يفاجأ بتهديد يزيد . فان معاوية ليحسن صوغ المعنى الناصع ،

في القالب الرزين ، فيوجع من يندد به، دون ان يدميه . في لسانه عضات قوارص، الا انها تحبو الى البرء والاندمال. فيصغي اليه حتى عدوه، ويقول فيه : « لقد اذلني ! ». ولكن لا يستطيع ان يقول فيه : « لقد شتمني ! ». فالشتيمة تنبو عن هذا المقول المطبوع على الدهاء .واصيب الشيخ بالخرس . وشعر بمبلغ ايذائه . جاوز في اساءته امد الرفق . قال معاوية ، وهو يعاني مضض غضبة بكماء : أتدري ما فعلت ؟ ... لا تتجاهل ان تكن تدري . كتبت للبيت الهاشمي التفوق على البيت الاموي . فاي شيطان عبث بلبك ، واعماك ؟ ... فالامر يعدو خطبة حسناء ، وزواج . انه ليهدم سياسة عميقة الغور ، بذلنا في تشييدها الغالي والعالي . ألا افصح . هل هاج فيك الحنين الى ابن الامام، وانت تؤم الكوفة، فعرّجت عليه،واطلعته على ما انتدبتك له ؟

فاستعاذ ابو الدرداء من الشر الكاشر. وازدادت عيناه استدارة. وتفاقمت فيه الرهبة . أيجلو لمعاوية النبأ الصدوق ؟ ... ما تعوّد الكذب ، وان يكن فيه مماته . ثم هو اقبل مستشهداً ، غير حافل بما سوف ينتابه من سوء عقبى . فما عليه اذا باح بالمكنون ، واوضح المقدور ؟ ... لينزل به غضب ابن هند محرقاً، مبيداً . فما الكذب ديدنه،وان قاده الصدق الى المهلكة. قال بصوت هادىء ، الا انه صريح : لقد عرجت عليه ، يا امير المؤمنين !

فاعتصم معاوية بالجلد . ظل يملك اعصابه ، وقد طاب له الامعان في الاستدراج . فلا يبقى ستر يحجب مضمراً . ولماذا ترويع ابي الدرداء فيكتم الخفايا ؟... قال ابو عبدالرحمن ماضياً في استطلاعه الخلوب : عرجت عليه، ورويت له الامر في جليله ويسيره . وابلغته انك مقبل لتخطب اريب

ليزيد!

ـ هو كذلك، يا امير المؤمنين!

ـ وشغفت، وانت تراه، بطلعته الوقور. فذكرت فيه جده الرسول، وامه فاطمة، واباه علياً ...

فتمتم ابو الدرداء مقاطعاً بابتهال: الصلاة والسلام على النبي، وآله، يا امير المؤمنين!

فاصغى معاوية الى التمتمة. وما تمالك ان صاح، بينه وبين نفسه، صيحة صماء، كاد بها يميد: يا للشقي، ما اتقاه!

وظل سيد اعصابه، وعيناه على ابي الدرداء الغائر في خشوعه. قال: وبدا لك ابن الامام، حفيد سيد المسلمين، اولى باريئب من يزيد. وانت تعلم ما تخطر فيه ابنة اسحق من حسن شهي"، وخلق سوي"!

فجمدت عينا ابي الدرداء على ذعر مستطيل. وقال وهو يتلعثم لفرط الهول: من انبأ امير المؤمنين ان ...

فقال معاوية بوفور لين: أليست الحقيقة ما اوضحت؟

فارتجفت شفتا ابي الدرداء. ماذا يعلن؟... وغلب فيه الصدق الموارية. فقال باستخذاء، وهو يرقب ان تنزل به نقمة معاوية قاصمة، كافرة: ان جعدة لغاوية يتبعها الغاوون، يا امير المؤمنين!

وحنا رأسه للضربة. هذه عنقه. فقال معاوية يبيح لغضبه ان تتنفس بقدر ما تشاء: أتدري ما يحسن فيك من قصاص، يا ابا الدردا؟... والله، ان استئصال هامتك لقليل. اوفدتك الى اريئب لتدفع عني لجاجة يزيد، وتخفف من لاعج فتى مستهام. فماذا كان منك؟... كان ان زدت في الالم،

وقطعت الرجاء ، وطعنتنا في مناعتنا . فكأنك لنا عدو في ثوب صديق. بل انت هذا العدو ، يا ابا الدرداء . ان الفاجعة لاعظم مما يخيل اليك ، وقد خنتنا في كرامتنا، وحسبنا . فما حملك الى الحسين، وما انت بموفد اليه ؟... هي الثرثرة اهابت بك الى مكاشفته بتهمة ليس من الحق ان تعدو اربعة. انا ، وانت، ويزيد، وارينب . فما نزع بك الى الدس علينا؟...والله ، لولا يقيني بضعف فيك ، لاطعمتك حمامك . ولكن غفلتك هي الشفيع . ألا فاذهب، ولا تمرح في هذه البسطة . اني اخلع عليك حلمي. على اني ما ازال ادعوك الى مجانبة يزيد، ولست اعصمك من نقمته. هذا فتى حطمت قلبه وامله . فقد يثور اذا رآك، وينقضّ عليك غير راحم ،ولا متحرج. فتنكب عن طريقه. اخشى ان يكون واقفاً لك بالباب. واني لامسك بزمامه ما دام ينعم بالنهية. اما اذا احتدمت فيه الموجدة، فاني لاشفق عليك منه ،وهو المحطم كل قيد، والفالت من كل زمام ، وذمام !

فارتعد ابو الدرداء . تمادى معاوية في التخويف . ونَدّى العرق البارد جسد الشيخ . انه ليميع هلعاً ، وقد ضاع عن نفسه ، فبات لا يشعر بانه يسير في الارض. ورضي معاوية، بعض الرضى، وهو يراه يغيب في الوهلة. وشاقه تعذيبه . قال : دمشق لا تقم فيها . وقصر الخضراء لا تعد الى وطء عتبته . فان ارتيادك اياه للطخة في جبينه . كنا نحسبك درهماً وازناً ، فاذا بك بهرج زائف . انصرف . رؤية الغادرين السذج تزعجني في صميمي !

فاجتهد ابو الدرداء في ان يتحرك ، وفي ان ينفض منه ذعره ، فما أوتي العزم . فالمخافة نزعت منه القوة، فهان باوصاله . وصاح به معاوية، وقد ايقن بارتياعه : هلا انصرفت ؟

فلملم نفسه ببقية من همة ، وهو الرازح بعبء الروع والمهانة . وزحف يتحايل على الحراك . وخاف ان يفتح الباب ، فيما يبغي الانطلاق . فقد تراءى له بالعتبة شبح يزيد . ورغب معاوية في ان يلهو برهبة الشيخ ، فقال عابثاً : اصلح من وقفتك . اراك تغور في الارض !

فألقى ابو الدرداء نظرة الى الخليفة الساخر ، فتعاظم اضطرابه . لقد ومضت في وجه ابن ابي سفيان عينان راعبتان ، تتضحان بالهزء القاضم . هذا هو معاوية بكيده ، ورهيف سطوته . فكأنه ما اصيب بكرامة ، وما ارتبك في امر ابنه . وكأن الرزيئة لم تنل منه ، وقد استخف بها ، فتساقطت كليلة تحت قدميه . وشقّ ابو الدرداء الباب فراراً من المشهد المخيف . فآثر ان يُضرب بسيف يزيد ، على ان يعرض نفسه لاستهانة معاوية . ووثب في اروقة قصر الخضراء ، وقد وهب له الذعر قوة وخفة . فركض ركضاً مرعوباً ، هرباً من نقمة يزيد ، وتهكم ابي يزيد . ومن ابصره ، في وثبه ، خامره ريب في مناعة الشيخ العادي

ولم يصدق انه نجا من القصر . فان هذه الخطوات القلائل ، بينه وبين الطريق ، بدت له اطول مما بين دمشق والكوفة . وما استطاع ان يتنفس ملياً الا وقد بلغ عتبة منزله . بل وهو يختبىء في صدر منزله . وما برح يتلفت . كأنه يخشى ان يتبعه يزيد شاهراً نقمته ، وان يكون ابو يزيد ماضياً في تسديد تلك النظرات الخبيثة ، الدامغة ، اليه . ولم يؤمن بالنجاة . فكلما دق الباب خيل اليه ان ابن معاوية اطلّ . وساءل نفسه عما يثير فيه هذا الفزع كله . ليقتله يزيد ، وقد راقه الاستشهاد . فليس باول من طارت روحه في سبيل معتقده

ولكن هذا الميل الى الاستشهاد لم يكن يمنع عنه البلبال . فهو في بحران

يقرب من التلاشي . واستجار بربه من الشر المهدد . يزيد لن يصفح عنه .
واستقر بمنزله لا يبرحه . وبدا ساهماً ، متعباً ، لا يطيق طعاماً ولا شراباً .
حدق معاوية . انها لخيبة ترهق العزائم ، وتذل الانوف !

٨

هذا الزهو في معاوية ، وهو يصرف عنه ابا الدرداء ، صار الى كسوف في الرجل الداهية ، حين خلا الى نفسه . جازف بسمعته ، وبابنته ، لاجل يزيد . فانتهى به المكر الى الهوان . وماذا سوف يقول فيه قومه حين يفشو فيهم النبأ ؟... من الراهن انهم سيشمتون بالخليفة . وقع ابن هند في حفرة احتفرها لسواه ، وجنى على نفسه ، وعلى ولده . فلم يكن من الشمم والاباء مخادعة رجل لفصله عن امرأته ، ثم العبث به ، كأنه المخبول

وساءل ابو عبد الرحمن خاطره انى يتقي الفضيحة ، فلا تلوكها الالسن الثرثارة وتذيعها ، وكيف يدرأ هول الغاشية عن يزيد ؟... أما ضلّ الهداية في اعتماد ابي الدرداء ، وكان عليه ان يدرك ان هذا الشيخ من المتعبدين ، وان ليس للمتعبد ان ينزل الكوفة ، ولا يستنشق عرف ابن بنت النبي ، مناوىء الامويين ؟... وشعر معاوية بفدح النازلة ، كأن ما احرز من غلبة في مؤتمر اذرح ، بدده في صفقة الكوفة . فاي ورطة محرجة هوى فيها ؟... وما تماسك ان قال : لعن الله ابا الدرداء . غفلته جرّت علينا الوبال المبيد !

وتذكر قولة ابنه في الشيخ المتبرنس . ما جاوز دور ابي موسى الاشعري في تحكيم اذرح . جاء ليشفي ، فمحا . وودّ معاوية ان لا يرى ولده المفؤود . ونادى حاجبه يقول له : اذا بدا يزيد ، فابلغه اني امنع عني الجميع !

فقال الحاجب : اطال الله بقاء امير المؤمنين ، ان يزيد لفي الباب . وقد اصرّ على الدخول بلا استئذان . وما انفك اجاهد في اقناعه بان لا يفعل . ولكنه غاضب ناقم . يعلو شفتيه الزبد ، وتقدح عيناه بالشرر اللهوم !

فصاح معاوية بخشية : أيكون يزيد بالباب ؟ ... لا تبح له اليّ . لست ارغب في رؤيته . انا في شغل عن كل من يستأذن عليّ !

الا ان يزيد انتهز فرصة دخول الحاجب، على معاوية، ليلحق به. وبدا مقطباً تتواثب فيه الثورة . قال بصوت جهير ، دون ان ينحني في حضرة ابيه : أيكون امير المؤمنين راضياً عما انتهت اليه حال ابي الدرداء ، في الكوفة ؟

فاجاب معاوية ، وهو يحسب للغضبة الفائرة في يزيد حسابها البليغ : ليس امير المؤمنين بمن يرضى عن الخذلان، يا يزيد. أفلا ترى اين اصبحنا، بعد كبوة ذلك الواقف من دنياه على تمتمة صلاة، وخشوع بهجة، وما يجيد سواهما؟... اخزانا حيث رجونا منه الغوث !

فقال يزيد ، واسنانه تصطك، وعيناه تغليان ، وعروقه تتشنج : ولكن ليس لنا ان ننام عما بدر من الشيخ المتعبد الاخرق. فمن شهد معركة صفين، لا يرهب معركة يشهدها ، بل يضرمها ، في الكوفة الخؤون !

فارتاع معاوية . ونظر الى ابنه برهبة ، وقال يستقصي : يزيد ، اي بيان يفضي به مقولك ؟

فاجاب، والغيظ يتأجج فيه: ما لم ندركه بالسلم ، علينا ادراكه بالحرب!

ـــ وكيف ؟

ـــ بان نغزو الكوفة ونسبي نساءها !

فانقلبت اساريو معاوية، وخشن صوته ، وقال باضطراب : أتدري اي كلمات ينضنض بها فمك ، يا يزيد ؟... استعد رباطة جأشك، واطلق للروية مداها فيك !

فاندلعت كلماته متوترة،من حنجرة تشوكها الغصص،فما تطيق افصاحاً: ربما كنت اجهل انك تستحمقني. غير اني اعلم ما اقول . ما لم نوفق فيه باللين ، علينا بلوغه بالشدة . فنهاجم الكوفة ، ونأسر رجالها ، ونستولي على نسائها وارزاقها، ونبيحها للنار !

ــ وهل يطيب لك ان يقال في ابيك انه هدم دولة لاجل امرأة ؟

ــ ليقل الناس ما شاؤوا . ارينب اريدها . ولقد سعيت اليها على دعة، فما احرزت الوطر . وسأسعى اليها على رؤوس الاسنة ، والفوز محقق ، لا شك فيه !

ــ وتهدم سمعة ابيك ؟... وتلطخ كرامته بالشين ؟

ــ تحكيم ابي موسى الاشعري في اذرح ، على غرابته ، لم يصب ابي بسوء . فهل اخاف عليه من غزو الكوفة ؟... وتسميم الحسن، وقد باشرناه معاً ، لم ينلنا باذى ، فهل من ضير علينا ونحن نهاجم الحسين ؟

ــ والتاريخ ، يا يزيد ، والتاريخ ، يا مهجة ابيك ؟

ــ اني اهزأ من كلام ينقل ويروى . فالتأريخ لمن بعدنا ، لا لنا . وما شأننا في من يقبل على اثرنا ويتحدث عنا؟... ان من يكتب عن موقفنا من علي ، والحسن ، لا ضير عليه اذا سرد موقفنا من الحسين !

فتأفف معاوية . ليس باضطرار الى هدم دولة لارضاء ابنه . يكفيه ما قام به من شعوذة لاجل هذا الابن . قال يغلو في النصيحة : يزيد ، لا تكن

اسمى . سكوتنا عما اصابنا من بلاء ، خير من اثارة القلاقل للوصول الى المشتهى. هذه الدولة غير ثابتة الدعائم تحتنا. ان نسمة ريح لتذهب بها .واذا رأيتني في اشر ، وجبروت ، فاعلم اني اظهر من القوة ما لا املك ، كي اظل قابضاً على مقود الامر . تالله ، لو ابديت رعشة من ضعف ، لاكلوني. فالخصوم يرهفون اظفارهم لذبحي . فارفق بي . بل ارفق بنفسك . هذه الدولة ستنتقل اليك بعدي . فلماذا المجازفة بها ، وهي مرتعنا وحمانا ؟ . . . أنجازف بها لكسب رضى حسناء ؟... ان تحت هذه السماء للمئات من شبيهات ارينب ، على حين تخلو البسيطة من نديد ليزيد. ألا فانس ابنة اسحق ما دام زمنك يعاندك فيها . إنسها . لو كان زواجك منها نعمة، لاقبلت هذه النعمة على يسر . زفاف الخلافة اليك ، افضل من زفاف امرأة ، وربما لن يكتب لك في العقد عليها التوفيق . فالحسان في دولتنا لا يحصى لهن عديد . فلماذا نلج في التماس ارينب، ولا نبالي سواها ؟... ان اكرمهن حسباً، وملاحة، لتهتز شوقاً اليك . أتريد ان تؤلم ارينب ؟ . . . اعرض عنها . اعراضك يكفي كي تختنق في حسرتها . وما يقتل المرأة كالاستخفاف بها . هي تحسب نفسها ذات سلطان . فاذا شئت ان توجعها ، فاعبث بسلطانها . ابوك خبر قبلك الدنيا . فلا تنفر عن نصح ابيك!

فشعر يزيد بعنف الحجة ودقتها في معاوية. وهدم كلام هذا الاب بعض عناد الابن . غير ان ابن ميسون ظل يمسك على رأيه في مقاتلة الكوفة ، مع استيقانه انه رأي فطير . قال ماضياً في النزوة : أيجوز لنا ان نغضي على الفضيحة ؟... فالقوم ما تعمدوا ايلامي دونك . بل رموا الى تحطيمنا بعصا واحدة . انهم ليبتغون الاساءة الى يزيد ، كي يهدموا معاوية . وجماعة هذا

شأنها لا اجد من كرم الخلق اباحة المجال لاباطيلها . إن لم ينهشونا اليوم حصرماً ، فلن يعفّوا عنا غداً ، ونحن عنب نضيج . اين سيفك ؟... ارفعه واخبطهم به . انهم لكفرة ، منا كيد !

فابتسم معاوية ابتسامة الملاينة ، وهي ذات اثر ، في السامع ، امضى من البيان الحق" . قال : رأفة" بالناس ، يا يزيد . ان نحن آثونا ابداً عليهم انفسنا ، فاروا ، واغاروا علينا ، وليس من يردعهم عنا . لا بأس ان يتفوّقوا حيناً بعد حين ، ويتوهموا انهم تغلبوا علينا ، ونحن نقبض منهم على الارسان . فان هذا الظفر نهبه لهم ، ليشير الى عفونا ، والى رغبتنا في المساواة بهم . فلنكن واياهم بين كفة ترجح ، وكفة تشول . والالحاح في قهرهم ، على الامد ، يلطمنا بالاحقاد . وما ادراك ما الاحقاد يوم تهيج . هي يوم القيامة . ألا فلنصبر على اللطمة صبر غير المكترثين . فالسلطان لا يبرح بين ايدينا . وان يكن الحسين سلبك اريتب ، فان الحسين لمن رعيتك . انت السيد ، وهو المسود . ليكتفِ باريتب ان تكن تلهيه عن المطالبة بحقه بالخلافة . وتعال . تعال اضمك الى صدري ، واعالنك : سوف اعوضك من اخفاقك في ابنة اسحق . سأكتب الى الآفاق انك وارثي في الخلافة . فان هذه الدولة الذاهبة في الارض ، على امتداد وانبساط ، لك وحدك بعدي . انت مولاها واميرالمؤمنين فيها . فالملك ينتقل مني اليك ، شأن اقيال الروم . والسيادة ارث الجد الى الاب ، والابن الى الحفيد !

واذا الستار ، المضروب في زاوية الايوان ، يرتفع ، وتبدو من ورائه صفية بنت معاوية . قالت على كمدة : ابي ، سمعت كل ما دار عليه الحديث . لقد جاهدنا باطلاً . ومن المضرة لنا ان يقال فينا اننا قصرنا عما طمعنا فيه .

عبد الله بن سلام يشمت بنا . والحسين وانصاره في طليعة الشائنين . وابي اليوم ، في المسلمين ، سيدهم وحاميهم . فما يقف به عن رد كيد الحسين الى نحره ، فتصرعه بسهمه ، وتمحو عن جبينك لطخة التحقير ؟

فتنكر معاوية لابنته .حسبها له ، فاذا بها عليه. قال بامتعاض المكدود: صفية ، ما دمت قد جمحت ، فعليك ان تدركي ان اباك على صواب . ليس الموقف بمسعفنا على مقاتلة ابن علي . انزلنا اباه من شاهق . وجدلنا اخاه . وملكنا الامر في هذه الدولة . فإن يتصيدنا الحسين في امرأة ، فما بلغ مناله منا . انه لانتقام سخيف. لو هدم بنا سرير الخلافة، لكان من حقه التفاخر. اما والامر زحام في زواج ، فلننظر اليه نظرة المستخف به . ليتزوج ابن علي بابنة اسحق. وليسبقنا الى كل حسناء عطرة الشذا. فالاقبال على الزواج لا يشيد عرشاً ، ولا يرفع تاجاً على مفرق . يزيد قنع بما عرضت عليه . سأهيب بالمسلمين الى مبايعته بالخلافة . فلا يكاد ابوك يغمض عينيه ، حتى تنتهي مقاليد الاسلام الى اخيك . فالسؤدد فينا ، وسنظل نتداوله سليلاً بعد سليل !

فاستقصت شاكية ، متململة : ويضمحل كل ما بذلنا من جهد ؟

ــ واين الجهد ، يا ابنتي ؟... كل ما اقدمنا عليه اننا ادرنا ألسنتنا في حلوقنا .ابوك تكلم ،وانت جاريته في النطق.بيد ان الريح لم تكن مؤاتية. فما تم لنا الامر كما رغبنا فيه . وهل تريدين ان نحترق في خيبتنا لشأن زهيد ؟... لنكن اوفى ادراكاً . دولة ابن ابي سفيان لن تتهدم لاجل عينين سوداوين ، في امرأة ذلفاء . ناضل ابوك الليالي الطويلة قبل ان يصير اليه السلطان في هذه البطاح . ولست اراه على أهبة للتضحية بما نال بعرق

الجبين، في سبيل ذات صباحة غيداء. اني لاهب ليزيد ما تهون عنده جيوش الحسان . اهب له ما بذلت لاجله رقة العين ، ونبضة القلب . ليربع ، بعد ابيه، بهذا السرير . كان الامر شورى في الاسلام، وسيجعله معاوية مرهوناً بمشيئة سيد فرد . اتفق لي اني عدوت السنن وانزلتها في حكمي . وهذه سنة سأعدوها وافرض فيها حكم الوراثة ، ولن اجد من يعارضني . فالخلافة لنا ، نحن الامويين، وارثاً عن وارث . فيتقلب في مقعد السلطان ابني، وحفيدي، وجميع ذريتي . واي شأن للمرأة في هذا المجد الراتب بمنعته الى مناطحة الآباد ؟

وزخرف لولديه الملك الفضفاض ، والمجد النامي ، فابعدهما عن أرينب . ومن هي ارينب في هذه الدولة السائرة الى غدها بجلال ، والمقيمة من يومها على اشراق ؟... انها لنفاخة برّاقة ، منمقة ، غير انها تحبو الى انطفاء . اما العرش والصولجان، فالابد مداهما . ان ارينب لفتاة زائلة . على حين ان الخلافة شعلة متمادية الضرم، يستضيء بنورها العرب، ومن آمن بالله ورسوله من العجم . فهي بضة العز ، وهاجة الاطار، يموج في رحبتها الخلق الرداح، وتنحني لها الجباه ، كأنها قبة الدنيا !

ووقف يزيد يفاضل بين الخلافة وابنة اسحق . فما كان جلال الخلافة ليمحو في عينيه سناء ارينب . هذه بطانة تلك . فالدلال لا يتوافر ان لم تكن ارينب مسحب ذيله . وبكى يزيد . ان هذا المستهين بروائع زمنه ، الضاحك من تفجع عاشقاته ، الضارب وجه النعمة بسوط من هزء ، اطلق دمعة احرقت خده . دمعة اشبه بالجمرة المتأججة ، الحمراء . فسالت من عينيه تتلظى ، وهوت على وجنتيه تنهش ، وتؤلم . فتنزت بها لوعته . وشاع

فيها عمق مضضه. هي ذوب قلبه المهصور. كان لهذا القلب، في حبه الحساس، فضالة من امل، فعدا عليها الدهر الظلوم.

وشهدت صفية مهوى دمعة اخيها. ان يزيد ليسبل العبرة اللاذعة. لعن الله اريب، كم امعنت في التعذيب. وما تماسكت ابنة معاوية ان جارت اخاها في لوعته. فهي تشتعل بنار يزيد. وابصر الاب ولديه في حرقة، فضم يزيد الى صدره، وماجت عبراته، في باصرتيه، على حافتحان. فلم يكن قصر الخضراء، على مورق عوده، وسعة قدرته، بالدار الصافية الاديم، ولا الهنيئة اللب. فالكدر يعروه، ويذهب برونقه الوضاء

وطالت غمرة الدموع. فالمصيبة الخالعة قلب يزيد، رزح بعبئها البلاط. مجهود ثلاثين عاماً في دمشق، ازوت به امرأة، كل فضلها، ان في عطفيها رقرقة من دَلّ، وفي حدقتيها وميضاً من فتون

وما استطاع الثلاثة نطقاً. فالغمة قعدت بهم عن النبسة. واي كلام تفيض به الشفاه، والانس غير موفور، والذرع، مع رحبة المجال، على ضيق؟

ونظر الثلاثة معاً الى هذا الملك الفسيح نظرة الاكتئاب. فان تكن السلطة، المستقرة بأيمانهم، لا تبيح لهم القوة على الظفر بامرأة، فاي وزن لهم في مغالبة الزمان؟... وادركوا ان الزمان سيد لا يقهر. فالرؤوس، مهما علت، تتحطم على صخرته، ولا سبيل فيه الى مكابرة، وعناد!

٩

دمشق ، على بكرة ابيها ، متجمعة على عبدالله بن سلام ، تصغي اليه في مثالبه . فهو ناحب ، ناقم . يجوب ازقة المدينة ، وجاداتها ، شاكياً بلواه ، ناشراً حقده ، فاضحاً مكر معاوية . دعاه الى طلاق اريتب ، ليزف اريتب الى يزيد . أيوي الخليفة الى هذا الطين ؟

ووقفت دمشق من المتذمر ، المتألم ، موقف التأييد . انه لعلى صواب في ما يبث من ظلامة . معاوية لم يكن ، على وفرة دهائه ، بالرجل اليقظ ، الفطن . ضحى بعالي مكانته ، لاجل عينين نجلاوين . وثارت الاقاويل ، وتجاوب صداها . ونظر ، كل من وقع في مسمعهم النبأ ، الى معاوية نظرة الامتهان . اذن ليس ، في المسلمين ، من هو امين على نسائه ، ما دام الخليفة يسلخ اية امرأة شاء ، ممن يشاء ، حتى من اقرب المقربين اليه

ولقيت مجمعة معاوية الضيم ، وعبد الله بن سلام يغرق في الاستطالة . وشعر قصر الخضراء بالاحتقار ينخمه . فالناس نفروا من حاكم يستبيح المصون . واقبل الضحاك بن قيس الفهري ، على الخليفة الساهي ، اللهيف ، يقول : هل لامير المؤمنين اذنان تسمعان ؟

فابتسم معاوية للضحاك ، وهو يراه بالباب . رحب به باحدى هاتيك الابتسامات المصنوعة ، الحاضرة ابداً للاندلاع . غير ان الضحاك ظل منها على جمود . فكأنه يحمل نعياً مشؤوماً . وبدا في وجهه القطوب . انه لفي موقف

الخانق، المتوجع. فقال معاوية، فيما بينه وبين نفسه، وقد تلاشت الابتسامة في وجهه، وتلاها الجزع الكاسف: لا اراهم حولي غير ممتعضين، وليس فيهم من يضحك لليمن والبركة. مع اني اجريت عليهم الخير السني!

وقال يجيب الضحاك: وماذا تريد مني ان اسمع، يا ابن قيس؟... هل من خبيء خطير؟

فقال الضحاك، وحاجباه معقودان على غيظ: لم يبق عبد الله بن سلام على سبة الا اعلنها. وما لقي ذا سمع وبصر الا حشاه بغضاً لامير المؤمنين!

فامسك معاوية على حنجرته يأبى عليها الانتفاض. واكره لسانه على النطق بتؤدة، كأن ما يسمع لا يلذع فيه الاباء. قال يتصنع الدهش: وماذا يريد منا عبد الله بن سلام، يا ضحاك؟... لست اعلم اننا اسأنا اليه. كان ضيفنا، فنأى عنا. أيكون مطلعاً على مصدر هذا النفار؟

فاختلجت هامة الضحاك بارتياع. وبرزت عيناه استكباراً. أما يدري معاوية بماذا أساء الى عبد الله بن سلام؟... أيتجاهل، بعد ذلك المكر كله؟... قال الفهري، وفي بيانه مسحة من هول: هل نسي امير المؤمنين ما كان منه في عبد الله؟... ولكنه نسيان العابث، يا معاوية. عبد الله بن سلام يتهمك بانك فصلته عن امرأته. ووعدته بصفية ابنتك، ثم نكثت. وانه ليقف في الناس منددا بك، داعياً عليك، وعلى آلك اجمعين، بالويل والفناء. وما بقي، في دمشق، من يجهل مصابه. والناس يؤيدونه في الظلامة والظنة. فهم يرون انك تجنيت، وبالغت في القهر والايلام. واذا طال طوافه في دمشق، غامزاً بحلمك وعدلك، فاني لاخشى ان تحصد حصاداً غير ميمون الجنى. فاجتهد في انصافه، او فابعده عنك. بقاؤه في عاصمتك، على ذم

وتنقص ، يؤلب عليك الخصوم ، ويسعف على استفحال شوكة الاعداء !

فظل معاوية يفرض على نفسه الهدوء . قال ببيان المزدري : لينشدق بما يستطيب . فلست على مقوله حسيباً . شئنا له الرفعة ، فلم يسعده الزمن . ما دعوناه الى طلاق ارينب الا لنعقد له على صفية ، ابنتي ، فيصبح منا ، وقد جمعتنا به المصاهرة . الا ان صفية افلتت من وعد اعلنتُ . فاين ذنب معاوية ؟

ــ هذا ما لا يدرك الناس ، يا امير المؤمنين !

ــ وماذا يدرك الناس ، يا ضحاك ؟

ــ انهم ليرمونك بتبعة ما ساد عبدالله وارينب من قطيعة . ويقولون انك اقصيت الرجل ، عن امرأته ، ليتزوجها ابنك يزيد . وما كانت صفية غير سلم ارتقيت عليها لبلوغ الارب . فما تعمدت الوفاء لعبد الله في ما رصفت ، ونمنمت . بل راقك ان تشفي هيام يزيد . سخرت من عبد الله في وشيك وتطريزك ، حتى اذا ما استنام اليك ، اذقته العلقم . فحملت ابنتك ، بعد طلاقه ارينب ، على صرفه جافّ العلالة ، مهدوم الخطوة . ودفعت الى ارينب من يخطبها ليزيد . وهذه المكيدة ، اذا صدقت ، ولا اراها الا صادقة ، تذهب عنك بالجلالة ، وتعرضك للتذع المهين . فاما ان تصف عبد الله ، في عهدك له ، واما ان تنحيه عن مدينة لا ينشر لك فيها الصيت الحميد !

فصاح معاوية بانتفاضة من ألم : وهل اكون الملوم اذا خذلته صفية؟ . . . أعملتْ الرأي ، فلم تجد من نفسها دافعاً الى الشغف بابن سلام . فهل تريد مني ان اكرهها على الرضى بمن لا تهوى ، وقد اطلقتُ في امرها يدها ؟ . . .

لماذا يتظلم ابن سلام ، وقد احللته من نفسي المحل المنيف ؟ . . شئت ان يكون صهري ، وان ارفعه الى اعلى الرتب ، فخانني سعي . وما فكر يزيد ، في اريнب ، الا وقد نزعها منه عبد الله . ثم . . . ثم ان الامر التوى ، يا ضحاك . فاخفقنا حتى في اريнب !

وماج الايوان بزفرات معاوية . وتعاظم ذهول الضحاك بن قيس الفهري . ألم ينجح معاوية في استمالة اريнب الى ابنه ؟ ... اذن لقي المكر جزاءه . أصحيح ان ذلك الاحتيال ، كله ، انتهى الى الخزية والاخفاق ؟ ... وارتبك الضحاك في موقفه من معاوية ، من هذا الرجل السامق كالطود ، والمتهدم كالطلل . اجل ، ارتبك الضحاك في موقفه من ابن هند ، على منعة الضحاك ، ونفاذ بصيرته . فهو من ذوي المكانة والعزة في هذه الدولة . ومعاوية نفسه لم يكن يؤخره عن ابن العاص . فان له به ثقة عريضة الجناح . ونظرته اليه تترجح على اعجاب وخشية . فما الضحاك ممن يرتضون الخداع ، ولا ممن يطيقون الظلم والاستهانة . ومعاوية ، مع معرفته محدثه ، شاء ان ينفض قميصه من كل عدوان على ابن سلام ، ومن كل غدر به . ما اراد له الهضيمة . مع ان الهضيمة تزمجر كالحة الناب .

لا ، لم ينطق بالمقال الصحيح ابن ابي سفيان وهو يعلن تجنيه على عبدالله ، وسعيه لاعزازه ، وقد اثار فيه الغصص يحز بها قلبه ، ويكوي مهجته . فان معاوية ليعبث بكل جليل ، ليرفع من جلاله . ويمنع عن الناس الملذات ، لتلتذ بها نفسه ، ونفوس ابنائه . قال الضحاك ، وهو يحدق بارتعاش الى الخليفة الحائر اللون ، وكلماته تستتر باطانه : هل افلتت منكم اريнب يا معاوية ؟

فاجاب بنواح كاسف، ولم يقوَ حيال هذا الاستيضاح الجهير، على المضي في اخفاء انكساره: افلتت، يا ضحاك. نافسنا فيها الحسين بن علي، وظفر بها. أترى اي كبوة كبونا؟... لكأن الزمن يستطيب العناد بعد الموالاة. اوفدنا اليها ابا الدرداء يخطبها، فعاد وقد باعنا بابخس بدل. ابى الشقي الا ان يعرّج على الحسين، ليملأ عينيه بمرأى حفيد الرسول. وفي مقام حفيد الرسول باع واشترى. فاطلع الحسين على المهمة. وغاظ الحسين ان تنزع، من تحت جناحيه، اورينب، فاستمسك بها يزين بفتنتها داره. فهي الآن امرأته. والغريب، يا ضحاك، الغريب، ان ابا الدرداء رسولنا اليها، عقد له عليها دون ان يرهب سطوتنا. فما اضطرب له ضمير وهو يخوننا في ما ندبناه له!

فادهش الامر الضحاك. بل لمس فيه نقمة السماء على معاوية. اعتمد على البطل، في سلخ المرأة من زوجها، فاقبل من يستعين عليه بحيلته، ويزن له بميزانه. فالخديعة قهرتها الخديعة. والكيد، على سعة امده، قصير اليد. ولا بد له يوماً من عثرة تهوي به، وتلوي من زمامه. قال ابن قيس الفهري: وهل نبا عنك ابو الدرداء؟

فهز معاوية رأسه التياعاً. واي نبوة!... واطرق الرجلان. وذكرا معاً، دون ان يذيع احدهما في الآخر ما يموج في باله، مؤتمر اذرح. كان مؤتمر اذرح مضرب المثل في الكيد والغبن. والاثنان، ابن ابي سفيان وابن قيس الفهري، تحسسا، في نازلة الكوفة، وجعة اذرح. فالنبلة المسددة من سهم معاوية، الى علي ابن ابي طالب، ردها الى معاوية الحسين بن علي. وهو خاطر يختلج فوراً، في كل نفس، عندما تبدو للعين صرعة ابن هند في اغارته على اورينب. فالكوفة رأت، في الامر، انتقام الهاشميين. ودمشق سوف

ترى ما رأت الكوفة ، والنبأ ما برح فيها مغلقاً ، ولم تنشق عنه الاكمام .

قال الضحاك : لم تحسن اختيار صاحبك، يا معاوية . فاخطأت فيه، كما اخطأ علي في اعتماد ابي موسى !

فتأوه معاوية، وقال : دعني، يا ضحاك ، من حديث ابي الدرداء . كنت احسبه خير اداة لتحقيق المطلب . فاذا به شر اداة لمسخ الاحدوثة . وثقت بطيب سريرته وتقواه ، فذهبت ضحية طيب السريرة والتقوى . هؤلاء العاكفون ، على عباده ربهم ، علينا ان نبقيهم لله . فلا نكلفهم الشؤون الجسام . ولكن ماذا كلفت ابا الدرداء؟... لا اراني اثقلت عاتقه بمفاوضة في عهد ، ولا باقرار ميثاق ، وما خرجت به عن نطاقه . ان الامر لمن اضطلاعه ، فما اضطلع به . ويزيد لم يكن راضياً عن اعتماد ابي الدرداء ، وقد تمثل فيه ابا موسى ، فصدقت ظنونه . واخجلتاه من يزيد !... اشتهى، ولم ينل . وواخشيتاه منه على الحسين بن علي!...اني لاراه ينغص على الحسين صفو ايامه. فلا بد ان ينتقم منه . لا بد، يا ضحاك. انا ادرى الناس بولدي. سوف يتقاضاه بدلُ اللطمة غالياً . وهو مما لا اريد ان يقع . فليس من نفع للاسلام ان يغوص ابداً في الدمار والدم . لقد ذرف يزيد دمعة على خيبته. الا انه سيستنزف بها دموع الهاشميين. فما ان أطبق اجفاني للمقدور، حتى يثور يزيد على من اقلقه في لبه . وهو ما يشجيني ، وانظر اليه ، منذ الساعة ، بعين رمداء ، وكبد معتلة . اجل ، اني لاخاف ، يا ضحاك ، من فوران يزيد . ساقبض على مقوده ما دمت حياً . ولكن من يقبض على مقوده يوم اناى ؟... كنت اعهد اليك في امره . ولكنك لن تقوى على الامساك بسورة احقاده . فهو اعصار ، بل زلزال !

وغرق الرجلان في هواجسها . ان يزيد ، في ثورته ، لقوة جارفة . فليس يملك حكمة معاوية ، ولا طول أناته ، وهو نار مضطرمة سرمداً . فلا يقيم شأناً لحرمة . واذا فار فائره استباح المصون ، واستحل الحرام. وخاف معاوية ان تنهار هذه الدولة بصلابة يزيد، وجبروته، فيتناثر المجهود، ويضيع المسعى . مع ان ابن هند شيد البنيان لدهور ، لا لاعوام

وعلت صيحات، في قصر الخضراء، شقت عن دعوات وشتائم .فاستفاق معاوية والضحاك ، وهما يسمعانها ، من غشوتها السادرة . ونظر احدهما الى الآخر مستطلعاً حدة الجلبة . فما بال قصر الخضراء يمور بالزعقات النوافر ، كبطون الازقة ؟... ونادى اليه معاوية حاجبه .ما الخبر ؟... قال الحاجب: هذا عبدالله بن سلام ، يا امير المؤمنين . اقبل مهدداً . فابينا عليه المثول بين يديك . فهبت فيه عاصفة من جنون . وانه ليشتم الشتم الغليظ ، ويضرب كل من يدنو منه. ولقد اضطررنا الى القبض عليه، فلقينا من ارعاده، وازباده، المشقة . فهل يرى امير المؤمنين ان ندفع الحانق الى السجن ؟

فقال معاوية ، وقد اوجعته من عبدالله هذه الاستشاطة ، وقلق لها خاطره : بل عليّ به، يا سعد. ما هذه الجرأة علينا تنتفض في ابن سلام؟... أيكون قصر الخضراء مستباح الحمى ، فيقتحمه عبدالله ، ويصبّ علينا فحش القول وهجره ، ونحن سكوت ؟

وغلت فيه موجدته . لن يرضى بان تعلو ، في بلاطه ، صيحة موتور . هذا قصر امير المؤمنين ، لا قارعة الطريق . وجمجم يخاطب الضحاك : ان نحن اجزنا لكل صاخب ان ينسلّ الينا ، منددا بنا ، جازفنا بعالي مكانتنا ، وسهل على الناس امرنا . سوف يرى الاحمق اي قصاص نضربه به عبرة

لامثاله المشاغبين !

وبدا عبدالله بباب الايوان ، وفي وجهه الاضطراب ، وفي شفتيه الزبد. وجمد ناظراه على حقد يستعر ، وسخيمة ينطح قرناها . وصاح دون ان يحيي معاوية بتحية الخلافة : ابن هند ، ما جئتك اسلم عليك ، بل جئت انعى اليك المروءة والشمم . انت لا تتحلى بالنبل ، بل بالحيلة . ملكت الامر فينا بالمكر ، وما تبرح تسوسنا بالمين . فالغدر طبع اختمرت به عظامك . وعبدالله بن سلام ، وقد عانى من كيدك الويلات ، اقبل الى الخضراء لينفث في وجهك الشتيمة . سخرت بي بان عرضت عليّ ابنتك ، كي اطلق امرأتي . ولما جئت اطالبك بالانجاز ، دفعت صفية الى التنكر لابن سلام. وما حملها على التنكر بعد الرضى ؟... انت اهبت بها الى الرفض ، بعد القبول ، وليس ابن سلام ممن يحق لهم مصاهرة امير المؤمنين . يا للاستذئاب !... كأن امير المؤمنين ليس من طينة ابن سلام. ولكن من زيّن لك ان تغرر بي ؟... كنت في مثواي آمناً ، فحرمتني النعمة والهناءة . يا قاتل ، أتريد منا جميعاً ان نذهب كعلي بن ابي طالب ، ضحايا على ضحايا ، لتقرّ عينك ، وينتعش لبك ؟ ... والله ، انها لعصارة اللؤم . ان سيفاً ضربت به ، سوف تؤخذ به ، يا مضرم الحزازات ، ومحطم الارواح !

فوثب حاجب معاوية على عبدالله. ومشى اليه الضحاك يدعوه الى الكف عن المثلبة . فليعلم انه في حضرة امير المؤمنين . فنهاهما معاوية عن التعرض له بسوء . قال : ليتكلم . ليفرغ كل ما في صدره . ان بيني وبينه لحساب العسير !

وادّرع الحلم ، وهو يملك عنانه . والتفت الى عبدالله يقول بصفاء في

النبرة ، كأن التدح فيه لم يلمّ به : اين اساءتنا اليك ، يا عبد الله ؟ . . . شئنا لك السمو ، فنبا عنك . رغبتُ في ان اعقد لك على صفية، ابنتي ،فعاندني كيد الدهر . اين تراني ملوماً ، وقد بذلت في خيرك وسعي ، فما جاراني حظك العاثر ؟ . . . كنت اشدك اليّ ، ويبعد بك طالعك عني ، كأن للدهر عندك ثأراً ، يا ابن اخي . ألا امسك لسانك عن عمك . ان عمك لبريء الضمير حيال نسيبه ، وصفيّه ، عبدالله بن سلام !

وتناهى في الملاينة . ماذا يرجو عبدالله بن سلام ، ومعاوية لم يبقِ على مشتهى الا طمع له فيه ، ولا حامت عيناه على خير وبركة ، الا تمنى ان يرتع منها ابن سلام في اكبر نصيب ؟... ولكن عبدالله ، وقد اوردته حتفه هذه المجاملة الخادعة ، الزائفة ، لم يستنم الى ابن هند في مسايرته ، بل هاج فيه غله الطفحان ، وصاح : معاوية ، هذا السلاح بلي بالفلول ، لفرط استعانتك به علينا . نحن قوم اصبحنا لا نؤمن بتدليسك ، ومماذقتك. فانك لتملك لساناً ذرباً ، ودهاء وسيعاً ، تطلقها على ضحاياك ، لتمعن فيهم دعساً وتهشيا . اما من جربوك ، فاضحوا على يقين انك تحتال عليهم ، في اعراضهم ، بدماثة مقالك ، وخميل مجسك . معاوية ، انت افعى . ومن يجرؤ على فتح صدره للافعى كي تمرح فيه ؟... انت حرباء . فتبدو في اللحظة الواحدة بالف لون ولون . وما تثبت على لون . فصلتني عن امرأتي لتطرحني ، في دمشق ، سخرية للقوم . فالجميع يتغبّونني وقد وثقت بك ، وركنت اليك . والجميع يعلمون ان من يصافحك مغبون ، حتى في مصافحتك. فليس يلقي يده بيدك ، الا وهو على يأس من جذب يده سالمة. فلا بد ان تنتزع منه احدى اصابعه. يا ويلك من يوم الحساب ، يا ظالم. ألا أعد اليّ امرأتي . لن ابرح هذه الدار

الا واريتب في عصمتي . فكما سلبتني اباها ، أعدها اليّ !

فقهقه معاوية ضاحكاً وقال : أأعيدها اليك ؟... ولكنها ما تزال في الكوفة ترقب عودتك . فانطلق اليها ، يا صاحبي . نحن لم نمنعك من اكلة ، ولم نحجب عنك شربة . اريتب لا تبرح في خدرها آمنة . فما نزعناها منك ، ولا ابعدناها عنك . انا لقوم نتحامى الاثم ، ونتحرّج من المضيمة . اريتب باقية على عهدك ، فبارك الله لك فيها !

فصاح بغيظ راعد : أتظل ماضياً في خداعك ، ولا تخجل ؟... ولكنك اوفدت ابا الدرداء الى اريتب يخطبها . ألا تعرف للصدق وجهاً ، فتلوذ به حتى في مقال ، في نظرة ؟

وتراءى للضحاك ، فيما عبدالله بن سلام يقذف معاوية بالشتيمة الخادشة ، ان ابن ابي سفيان سينتفض عن سريره على الشاتم ، ويمسك بخناقه ، وينتزع روحه . غير ان معاوية ظل في سدته لا يتحرك . بلى ، لقد أعلن بهدوء توشك ان تلمّ به الغضبة ، ثم تنثني : عبدالله ، اريتب ما تزال في الكوفة . فلماذا الحنق البغيض ؟... لا نحن على هيام بها ، ولا هي على شوق الينا . طرْ اليها ، لسنا بمن ينافسونك فيها ، يا ابن اخي !

فادركت الحيرة ابن سلام . لبس يفهم . قال بجمام الحرد : ألا تنافسونني فيها ؟... انك لتدهشني ، وحق السماء . ما اراك على سوى لف وعرج ، وطبعك يأبى ان تستقيم . أتوفد الى اريتب من يخطبها لابنك يزيد ، ثم تجرؤ على الزعم انكم لم تنافسوني فيها ؟ . . . اللهم رفقاً وعوناً ، ان هذا لافك بليغ !

فلم يتزحزح معاوية في طول أناته . بل نبر بحدة تبطن الدس : لا تبرح

ارينب في الكوفة . وما كنا مزاحميك .مزاحمك الحسين بن علي ، سيد بني اعمامك الكوفيين . شاقه في اريتب الحسن ، فعدا عليك فيها . لقد تزوجها، يا ابن اخي !

فتلطخت عينا ابن سلام بالدم. وبدا له الايوان بؤرة شر وفساد، فرعد: معاوية ، انت سلبتني اياها . لولاك لم تقو يد على انتزاعها مني . ولكنك ، وقد اردتها لابنك ، فتحت عليها العيون . وكيف السبيل الى استعادتها بعد اجفالها ؟... لادعون عليك بالنكال ، يا قاطع القلوب . هلا قطعت الاجساد ؟... اقتلني وانقذني من عذاب اعاني فيه الويلة .رفعتني ، واهويت بي . هززت مني النهية ، وكدت تبليني بالسقم . ألا خذ حياتي وخلصني من نكد احترق فيه . ما ضرك لو اغتصبت حياتي ، بعد ما فجعتني بمنتهى املي ؟... معاوية ، انت ماكر ، مجرم . لينزل بك غضب الله !

فضحك معاوية . لقد استطاع ان يضحك . قال : هذه كلمات لا نرمى بها ، يا عبدالله . فالمسيء اليك احق بها منا . والمسيء اليك ليس معاوية ، ولا ابنه يزيد ،بل الحسين بن علي بن ابي طالب. وهو من ابناء اعمامك ،مثلي. فانطلق اليه ، وعاتبه بما تعاتبني به . لو كانت اريتب ، في قصر الخضراء ، معقوداً عليها ليزيد ، واسمعتني هذا القول الصادع ،لاعدتها اليك مباركاً لك فيها . على انها اتجهت الى الحسين . فسر اليه، وارشقه بهذه المستملحات .فقد تبلغ بها الارب .اما انا ، فاني لنظيف اليدين من دمك . ابحث عما يجديك ، يا ابن اخي ، ولا تضع ايامك في المحال . اريتب في الكوفة ، لا في دمشق ، في مقر الحسين ، لا في هذا الصرح . اني ادعو لك بالسفر الحميد !

ونهض الخليفة ، كأنه يعالن عبدالله بن سلام ان عليه الانصراف . فلم

يبق مجال الى متابعة الحديث . ولكن عبدالله ابى ان ينصرف . فظل مكانه يفيض بالقول المنكر ، الفظ : معاوية ، لن ابرح هذا الايوان ، الا وقد انصفتني . والا فلست بمنقطع عن نشر المذمة . فصلتني عن امرأتي أرينب، لتزوجني ابنتك صفية ، فكان ن حرمتني الاثنتين معاً امعاناً في قهري. بل انت ما شددت ، في طلاقي ارينب، لسوى رغبتك في ان تعقد عليها ليزيد. فاذا بالحسين يسبقك اليها . فاجعة ادت الى فاجعة. وانت في الاثنتين ذليل، مهين . لك الويل من بني قومك حين يدرون ما كان منك ، وما صرت اليه. ساطلعهم على مشاينك ، فكن رخي النفس . فان من ازدريته لفي طليعة هادميك !

فصاح معاوية ، وقد طفح فيه غضبه ، وتوترت اعصابه ،مع فائق جهده في تنويمها : سعد ، اقبض على هذا المهذار ، واخرج به من ايواننا . فليس له بيننا مقام !

فعمي عبدالله في سورة غله . أيطرده معاوية ، بعد ما جرده من النعمة على مديد سعتها ؟... وصاح بصوت اهتز له الايوان : معاوية ، معاوية ، أتدرك ما تقول ؟... لا يخطرن لك في بال انك خليفة ، وان الخلافة تبيح لك اعراض المسلمين . فانك لمأفون الرأي ان يكن هذا الوهم ينفذ منك الى مستقر الضمير . ما انت في الخلافة لسوى كوننا اردنا ان تكون فيها. كنا نحسبك في عدل عمر ، وحزمه ، فساعدناك على انفسنا ، وغالبنا فيك اكرم وجه . فاذا بك تستعين بالبطل على الحق ، وبسلطانك المطلق على الضعيف المظلوم . انها لقحة يأباها الله ، ويستجير منها رسوله . اين امرأتي ، ايها المفتئت بالقلوب والارواح ؟

فأعاد معاوية كلامه الصافر، كأنه لم يسمع : سعد ، اخرج بهذا المهذار من حضرتي !

فزمجر عبدالله : أتخرج بي من حضرتك ؟... انك لتدعوني الى ما تميل اليه نفسي . فلست ارضى الوقوف بين يدي من يخنق فينا الحق ، وينصر المضيمة . الا اني طالب عدل . فلن ابتعد الا وقد انصفتني ، او انتصفت منك!

وهدد . فزأر الضحاك : أتتوعد ، يا ابن سلام ؟

قال وهو يحس بانه الخاسر ، ويجنح الى عرض ظلامته على كل ذي سمع وبصر لتبريد فورة احقاده : ايها الضحاك ، هل رأيت من اجتاحه الظلم مثلي ؟... كنت هامة، فأصبحت ذنابى . كنت في فضلة من نعيم، فتدحرجت الى وهدة البأساء . وهذا هو ظالمي ، يا ضحاك . ذلك السيد القابض بيمينه على دنيانا ، المعتصم بسلطة الرسول فينا ، لا ليهدينا، بل ليقودنا في فجوات الضلال . اذا سئلت غداً ، يا ضحاك ، عن سالخ النعمة مني ، فاجب انه هذا الشانىء المخادع ، الضاحك من الناس في احسابهم ، واقدارهم ، لينعم بتعسهم، ويسعد بانهيارهم . اني استعديك عليه في ملمتي ، فكن المجير المغيث !

وبكى . كل ما بذل من جهد اضمحل . ورفق به الضحاك ، فمال على معاوية يوشوشه باستعطاف الحنان: ألا سبيل الى الرأفة به، يا امير المؤمنين؟

فقال معاوية، وقد وضحت له فكرة الضحاك بن قيس الفهري: و كيف، يا ضحاك ؟

ــ بان نزف اليه ابنتك صفية ، فنعوضه مما لقي !

ــ ابنتي لا ترغب فيه . أتدعوني الى اكراهها على ما تنفر منه ؟... ما

تعوّدت ان اداوي النفور بالاكراه !

ــ ولكنه قد يملأ رحبة الاسلام شكوى ومذمة ، فيتهمك بانك تجنيت عليه . وله في سرد روايته شفيع يغضّ من منزلة امير المؤمنين !

ــ نحن لم نسلبه امرأته ، يا ضحاك . فليفضح من سلبه اياها . خصمه الحسين بن علي ، لا معاوية بن ابي سفيان ، ولا ابني يزيد !

والتفت معاوية الى سعد يقول بشدة : هلا حجبته عنا ؟ . . . طال مرآنا اياه . فليرحل بامان!

فقبض سعد على عبدالله بن سلام . فمانع عبدالله في التنائي ، يصر على البقاء . واشتبك والحاجب في صراع انتضى به سيفه ، وهو يزعق : سابقى هنا ريثما ادرك النصفة . فلن ابرح هذا الايوان الا وقد عادت اليّ امرأتي . يا من سخرت بي لتنال مأربك مني ، لقد حرمك الله التنعم بمأربك . هذه دولة ادعو عليها بوشيك الفناء ، وهي تجري على خسف وسفال!

وطاب له المضي في نفث اوتاره . الا ان الحاجب دعا اليه نفراً من حرس القصر ، فجرّوا عبدالله الى باب الخضراء ، ومعاوية ينظر ويسمع ولا يبالي . فظل يجلس على سدته بجمام دعة كأن لم تقع في الايوان غاشية هانت فيها الكرامة . قال يخاطب الفهري بجسيم رثاء : مابه يشكو الينا امره ، يا ضحاك . وامرأته في دار سوانا ؟... ليطالب بها الحسين . نحن ما اردنا له مكروهاً ، وكيف نريد له المكروه ، وقد اعددناه للمعالي ؟... ولكن حظه قاتله . لم يكتب له زمنه الفلاح والرغد !

فقال الضحاك بجميل رأيه : على امير المؤمنين ان يقصيه عن دمشق . بقاؤه في هذه الحاضرة بادرة تسيء الى الخليفة . فلا بد ان يمذي في اذاعة

حكايته . وليس في اذاعتها فخار !

فاعلن معاوية بشدة فرضتها الضرورة: صدقت ، يا ضحاك. علينا بنبذه. ليرجع الى الكوفة ، وليقم فيها على الحسين القيامة . سنكرهه على النأي عنا ليزعج المستقر هناك . فقد ينقذنا منه ابن علي بقطع رأسه . ما تعفّ عنه يدنا سيجد من يقدم عليه . فالى الكوفة . لا بأس ان يشنف الحسين سمعه بهذه الانغام !

وعاد ينادي حاجبه قائلاً له : سعد، لا تطلق عبدالله في دمشق، بل ادفعه الى الحدود ، وامنعه من الرجعة . دمشق ليست مثواه !

فامتثل سعد يبلغ عبدالله بن سلام امر معاوية فيه : لا تقم في دمشق . اقامتك فيها تعرّضك للهلكة . مكانك الكوفة . فارجع اليها ،وهي مأواك. سيحملك رجالنا الى اطراف هذه الحاضرة . فاسلك منها طريقك الى العراق !

فاشتد اعواله ، وهتف بمرارة : أهذه مشيئة امير المؤمنين في عامل من اصدق عماله ؟... انه لجحود . آه من اللئيم !... دعاني اليه على سؤدد ، وابعدني عنه على مذلة . فسح لي داراً بخدمها ورياشها ، ليرذلني بعد ما امتص عودي ، وبدد عزي . وما اكتفى. فابى عليّ ان استظل هذه السماء. معاوية ، لن تخلد في مقامك . سوف ينتقم لي منك من يقلقك في مضجعك ، وينثر رمادك هبوات . ان مكراً تحمل لواءه ، لسوف ينقلب إحناً يثلم بها منعاتك . فالبغي لن يدوم ، ايها الثعلبان !

واستسلم الى سعد يقول له : افعل بي ما يوحي به اليك ضميرك . نفسي كرهت البقاء في مستوقد النار !

فقاده عشرة من الجنود الى اطراف دمشق ، قائلين : تابع طريقك الى العراق . عودتك الى عاصمة معاوية تكلفك حياتك . اذا شئت الاحتفاظ بروحك ، فاذعن لحكم امير المؤمنين!

فدمدم عليهم وهو يهز رأسه : أتدعون أمير المؤمنين من يخادع ، وينافق ، ويجور على الاخيار ؟... واخيبة الاسلام !

١٠

الرمال محرقة، تتأجج سعيراً. وعبدالله بن سلام يغرق فيها بهمة حسيرة، لا تطيق دفعاً. فهو سائر الى العراق، لرؤية ارينب. ولكن هل يستطيع رؤية امرأة افلتت منه، وباتت تستظل جناحاً آخر؟

وكيف يجرؤ على المثول حيالها وقد طلقها جزافاً، وسخر بحبها له، وبخفقة فؤادها؟... انها لغضاضة هذه العودة الى العراق، بل خسة داعرة. فهل نضب جبين عبدالله بن سلام من الحياء، وماتت فيه الانفة؟

قاتل الله معاوية، ما اقسى جنانه. رام ان يسلخ من عبد الله ارينب، فرماه بالغواشي على متعدد ضروبها. وتعجب من نفسه كيف يعود. وتذكر كيف اقبل. تهادى في موكب جرّار، على صهوة جواد كريم، يطوي الصحراء، كأنها ثوب من الخز، في وثبات ضوامر كالوميض. فما شعر بلذعات الشمس تحرق رأسه، وعنقه، ويديه، ورجليه، وتسيل في بدنه خيوطاً من رصاص تنزو بها عروقه، كما هي حاله الآن، وقد روى الرمال، واجهده الظمأ. ألا كم سيطول هذا الشقاء اللاهب...؟ وما كان له ان يلقي هذا السؤال على نفسه في اقباله الى معاوية. الا انه يلقيه في ادباره عن ابن هند، وهو يخط بنعليه الباليتين فجيعته على الصفحة الغبراء.

ودرج، في قافلة تقطع الفلوات الى السواد، نكرة لايبوح باسمه. شقي نبت به دمشق، بعد عز مبهج، فلاذ منها بالكوفة. وشاهدته القافلة يتمرغ

في يأسه وبؤسه ، فتحدبت عليه . والصدقة تجوز في المساكين . ومدّ عبدالله الى العطايا يداً ترتجف . واغمض عينيه لئلا يرى . فهو على خجل من نفسه . أأستجداء بعد سعة ؟ ... احسنت اريتب في نسيانه ، واجادت التدبير في الانصراف عنه الى الحسين بن علي . فالحسين اعلم بنفاستها من عبدالله . عبدالله خانها ولفظها ، وانه ليجسر على الحبو الى الكوفة ، وهذا وزره . وسوف يقتحم في الكوفـــة خدر اريتب . أيعلك هذه الشكيمة ؟ ... لا بد من التحمة . اودع اريتب اموالاً وزاناً ، وهو بحاجة اليها ليقي نفسه الخصاصة . فهل تبخل بها عليه ابنة اسحق ؟ ... انها لتمحوه اذا امسكت عنه وفره . وبوسعها ان تفعل . فليس لتلك الاموال قيد . ومن حقها ان تفعل ، وعبدالله لجّ في الغواية ، حتى امسى في الاوغاد الانكاس

هي اموال تضمها البدر الطفاح . فالدرّ فيها . والذهب فيها . واللؤلؤ فيها . وجلّ اعتماده عليها في تقليم مخالب الدهر . واعتلجت في صدره الآمال والظنون . وكاد ينسى مكر معاوية ، تجاه ضياع المال الراسي في قبضة اريتب . على انه ارتضى ، بمن طلقها ، كل عدوان وانتقام . فهو المفتري . لم يحجم عن الدناءة لنحر حبه . وليس على اريتب حرج اذا انتقمت منه بسلاحه . انكر هواها ، فلا عليها اذا انكرت ما استودعها من نضار

ولولا الاملاق المستحكم منه لاشاح عن هذا المال ، مهما بلغ من قدره . بيد انه في ضيق خانق ، يسد عليه منافذ الضياء . وهذه الغبشة المسدولة على خاطره اهابت به الى البحث عن درهمه الماجد ، والا لابى على قدمه ان تمتد به الى مثوى فاتنة نهاه

فاتنة نهاه . اجل . ولكنه هام بصفية بنت معاوية . لا . ما هام بصفية

هيام المشتاق ، بل هيام الطامع في الرفعة . فلم تطلع عليه صفية بصباحتها ليهيم بها . وكل ما شغف به منها انها ابنة معاوية ، خليفة المسلمين . واي سيد ضخم هو خليفة المسلمين . فاذا ما عطف عليه ابن ابي سفيان ، شيد له في الافلاك دارات ومقاصير . وهياماً منه بهذا السراب الواعد ، كفر بامرأته . فاذا به ما يبرح على سراب !

وهل يجيز له الحسين بن علي رؤية اريتب ، ومخاطبتها ، ولم يبق له من حق عليها ؟... قد يكون الحسين من الغيرة على قسط راجح ، فهل يرضى بمن تزوجها ، وتعرّف فيها الى نضرة الفتوّة ، ان تحادث فتى اذابت في حبه مخمور الصبابات ؟... ان قلبين تحابا لا يتباغضان . والحسين فهيم فطين . فلن تخدعه المطالبة بالمال ، ويجيز لعبدالله رؤية من لا يزال حيالها العاشق المستهام

وبمن يستجير ، هناك ، عبدالله لابلاغ اريتب انه عاد الى الكوفة ؟... كان له في الكوفة اصدقاء . ولكن أما يبرح هؤلاء الاصدقاء على ولاء؟... ليس يجهل قدر الناس . فلا صديق في المحنة . بينا ثمة الف صديق في الرفاه . ربما تناساه من كان له صديقاً ، وهو من عمال معاوية ، والٍ يدير الامر ، وتنحني له الجباه . واين من يلتفت اليه وهو صعلوك هشّ ، لا يملك عشاء ليلة ؟... ولولا ان يرفده من فزع اليهم ، في الطريق ، اتذى جوعاً ، ونهشت جثمانه النخر الافاعي والسباع

قال يستجلي خاطره : وما يحول دون مثولي ازاء الحسين بن علي اسأله في امري ؟... ان الحسين لرحب الصدر ، سبط البنان . فلا يمانع في محادثتي اريتب في ثروتي . واريتب صادقة في امانتها . فلن تمسك عني ذخري عندما تلمّ بحالي !

ورأى ان يسعى لنفسه . فهو يعرف الحسين معرفة شاحطة في القدم . هذا ابن عمه ، تجمعه به اسرة قريش . فلن يحتاج الى من ينصره لديه . فان يكن النسيب ، لا يوفق بالنسيب ، فمن يرجى البرّ والحنان ؟.. . ولكن معاوية نسيبه ،ولم يرفق به . ومعاوية منه اشبه بالحسين في وحدة المنتمى . ولقد هزه ابو عبد الرحمن حتى جرّده من اوراقه النضرات، فبات كشجرة عدا عليها الخريف المتلاف . قال يتبرم بحالته : اذا وقعت في الحسين ، على ما وقعت عليه في معاوية ، فلا كانت الحياة . ليس لي غير حفرة اهوي فيها، وألتحف بالتراب !

ومال الى الانتحار فراراً من لؤم زمنه. ولقد طالت لحيته. وجلله شعره. واشتدت سمرته . وألمّ به الهزال . ولم يكن ينطق الا اذا سيق اليه الكلام . واذا تكلم اكتفى بما قلّ ، وكاد يكون ابكم . وما جهلت القافلة انه موتور . على انه لم يكن يفضي بامره . فكل ما ادلى به انه يشتكي العسر، ولم يزد في الايضاح . كان على ثروة جرّارة ، فاذا به في فاضح العوز .

والقافلة تحدثت على مسمعه بغدر معاوية بعبدالله بن سلام . فاصغى ولم يعلن نفسه . وعلامَ تقوى القافلة في اسعاده، وما يتسع لها تبديل حرف من المكتوب ؟... ليخنق اشجانه في صدره، وخنقها اولى من فضحها ،والاحتراق بلوعتها على كل عين

قال رجال القافلة في المكيدة الخائبة : ولكن معاوية سقط حيث أمن العثار . نافسه في ارينب من هو اطول باعاً ، واسمى مقاماً ، وحرمه اقتطاف الثمرة !

وعرف الجميع من هو السيد الابرز ، والهمام الندب . هو الحسين بن علي،

رجل الكوفة ، وواحدها . ولم تعجب القافلة من اسفاف معاوية في مناضلة الحسين . فالنمر دون السبابة في الكثة . قالوا : ابن فاطمة مولى جامع الخطورة . وما لابن انثى ، في هذا الزمن ، ان يضارعه في الصولة . فان تكن الخدعة نالت من ابيه ، فلا بد من يوم يعود فيه الليث الى العرين ، ويأوي الحق الى مغناه !

وطعنوا على معاوية ، وشتموا به . نصب الشرك فسقط فيه . وضحكوا طويلاً مما افضى اليه امر يزيد ، تبّع النساء ، كأنه يأبى ان تفوته ذات وسامة . ما كفاه ما ينعم به منهن ، حتى طمع في ارينب ، زوجة عبدالله ابن سلام . فسلخها من زوجها ، دون ان يصيب منها مراماً

ولاحت الكوفة . هذه هي بنخيلها ، وقبابها ، ودورها المتناسقة . كستها الصحراء غلالة غبراء الاديم ، الا انها شفافة النسيج ، لا تحجب هيكلاً ، ولا لوناً . وارتعد عبدالله بن سلام وقد اشرف على الكوفة . انه لمقبل على شدة لم يعرفها ، في دمشق ، في انكد وقفة . فالنازلة ما تبرح تتساوق في القهر ، والقوم في الكوفة لا يجهلونه وسيهزأون به . وخشي النظرات الخبيثة الواقفة له بالمرصاد . فليس ، بين الكوفيين ، من لا يجيد السخر . كلهم سيضحكون من غفلته . باع الدر بوعد مهلهل نفحه به معاوية . ولقد خسر الدر ، ولم يظفر بانجاز الوعد . فانكفأ على غبن في الصفقة . ولم ينكر على نفسه البله . افلت ما تملك يمناه ، في سبيل ما لا يبرح مشكوكاً في غنمه . فقد اشترى ، بمذخور حنينه ، غمائم زهراً في الافق البعيد ، تتألق في شروق الشمس وغروبها . فتبصرها عينه . ولكن تقصر عنها يده

وتنت ثيابه . وتلاشت فيه اناقة الامس . فالاجير في الركب خير

منه . وتحامى العيون في ازقة الكوفة . هذا جوّاب آفاق ، لا عبد الله ابن سلام . والتصق ناظراه بالارض . فليس يميل الى معرفة احد . وتذكر ماضيه القريب . لم يكن يبدو حتى يتحلق عليه القوم منادين باسمه . فهو الوالي المطاع . اما اليوم ، فانه لنفاثة موبوءة ، يتقيها حتى الموبوءون

ودنا من صرح الحسين بن علي . قد تلوح له اريئب في احدى النوافذ ، في شرفة من الشرف ، فتراه في اسماله ، فترقّ له . ولكن أيخلع عنه كل حياء ، ويحبو الى اريئب ؟... هل نسي ما كان منه فيها ؟... على انها الضرورة . والضرورة سيدة قاهرة . ووقف ،وقد تلثم ، تجاه الصرح ،بين الواقفين المسترفدين .وباب الحسين يغص ابداً بالمتظلمين، ولم يكن ابن علي يحتجب عن الناس .هؤلاء عدته لليوم الازهر .فينصفهم ،ويعينهم على زمنهم، كي ينصفوه ، ويعينوه على الغاصب . ودخل الجميع يقبلون الارض بين يدي الحسين ، الا ذلك الملثم الوجه ، الخائف رؤية النور . فناداه احد موالي الحسين ، وقد اوشك النهار ان ينقضي : ما بك ، يا ذا اللثام ، في ازورار عنا ؟ . . . أتقبل الينا ، وتبتعد عن مجلسنا ؟ . . . فما جاء بك الى امير المؤمنين ؟

فاجاب الملثم بانين المكروب ، الغائر الصوت في غصة: جئت استظل هذه الجدران . فقد اشعر ، وانا أتفيأها ، بالراحة . اخوك نضو اسقام فدعه لكربته .وليس يبغي رفداً ،ولا قرى !

فادهشه المنطق الشاذ .ما تعوّد هذه النغمة الغريبة اللون واللهجة .قال : ومن انت ، يا اخا العرب !

ـــ انا من نبت به ارضه ، وغضبت عليه سماؤه . فلم يجد غير هذه

الرحبة يأوي اليها لاتقاء العدوان . حسبه هذا الفيء ينشر عليه ملاءته . فانه فيه لناعم بالصفاء !

فازداد مولى الحسين دهشاً . ودنا من الملثم يقول : بابي انت وامي ، اني لاشمّ فيك طيب النبل . وألمس في مقالك نواح الحق الدميّ . فمن انت، ايها المعتل الحشاشة ؟

ومال عليه يوشك ان ينضو عنه لثامه . فمانع بشدة ، وقال متأوهاً : لا عائدة من الالمام باساريري . انها لتشجيك ، وهي تغور كقلبي في الضنك والغم . واني لاخشى عليك من دمامتها ،وهي تلوح لك . فارفق بنفسك ، ولا تقتحم الهلكة . اضنّ بك ان اثير فيك الروع !

فجمدت يد مولى الحسين ، وقد تولتها الرجفة . كادت تميط اللثام عن وجه المنكود ، فحاذرت وهلة المفاجأة . وانقلب المولى الى سيده ينحني في حضرته ، ويقول بوجل : اني لمبلغ امير المؤمنين نبأ ذا خطر . بالباب رجل مقنع ، يتلفع ببؤس نبيل . طغت عليه اطماره ، الا انها لم تطمس فيه إباءه. ودعوته الى عرض ظلامته ، فاحجم ، مكتفياً بان يتفيأ ظلال معقل المكرمات!

فانتابت سامعيه رعشة من حيرة. من البائس النبيل، المقبل على عرصات الندى ، يلوذ بفيئها ؟... وفزعت العيون الى العيون تستقدي . قال الحسين ابن علي ، ولم يسلم من البهت : اما استطعت ان تزيح عنه قناعه ، وتغوص على سره ؟

— ما يبوح بما تضطرب به نفسه . وجلّ ما استطعت ان ادرك ، من حديثه ، انه عزيز ذلّ ، وكريم كلّ !

فسادت الرهبة المجلس . قال الحسين يغالب فيه القلق : عليّ بالرجل .

لن نرضى بان يؤم طالب نصفة دارنا ، وان نشيح عن احقاق حقه . نحن هنا لدفع الجور والمكروه !

فعاد مولى الحسين الى الرجل المقنع يقول : أجب امير المؤمنين ، يا ابن أمي . فالحسين بن علي يدعوك !

فاعترضت الغصة في المنكوب مجال النطق . كيف يمثل في حضرة ابن علي ، وقد دهمه الارتباك الممض ؟... ما بدا الا ليرفع ظلامته الى الحسين ، ولكنه يخشى ابداءها . قال بارتعاش : وهل ابلغت امير المؤمنين امري ؟

ــ ابلغته انك بالباب ، وهو يريد ان يراك . فقمْ اليه . ان الحسين لحليم ، رحيم . فينقذك من اوصابك ، ويضمد كلومك . ما عرفت ارحب صدراً ، واندى يداً !

وقاده الى الحسين . واشتد بمن ضمتهم الحلقة الكمد والهول ، وهم يبصرون ذاك المقنع الرثّ . فان في خطواته جلالاً مطبوعاً ، مع كل ما يمور فيه من غثاثة نكداء . لكأنه روح من الارواح المقهورة يفجأهم من مطاوي الغيب . ومشى الملثم الى ابن علي يجثو بين يديه ، ويقبل الارض ، ويقول : السلام على امير المؤمنين ، سليل الاصفياء الابرار !

فزادت هذه الشواهد في الارتياع المستحكم . أانسان من لحم ودم يتكلم ، ام طيف من الاطياف ؟... قال الحسين : والسلام عليك ، يا هذا . فمن تكون ، وقد استجزت الدخول علينا ملثماً ؟

فاعلن بصوت ينوح ، كأنه يبكي نفسه : انا من احتضنته النعمة ، فكفر بها . ومن حالفه السعد ، فناكره واقصاه !

فاعلن الحسين باشفاق : عرفناك مظلوماً ، ومرآك يشير الى بؤسك .

ولكن من انت ، وما قادك الى حمانا ؟

فاعلن باكتئاب : رأيت ان ألوذ بكنف حفيد الرسول مما ألمّ بي . فاقبلت اتوسد هذه الجدران . ومناي ان ألقى في ظلالها دعة وامناً . انا من كواه المكر والجور، يا امير المؤمنين!

ــ ولكن اسمك . ما اسمك ؟... أما تدري انك تسيء الى الكياسة بدخولك علينا ملثماً ؟

فارتفع صوت جريح من تحت اللثام يقول : اؤثر ألا ترى عيناك هذ الوجه الملثم ، يا امير المؤمنين .فان وراء اللثام لاشجاناً قوارص ،واهوالأ صواعق .فالتستر عنك ،بعفوك، افضل من كشف عريي وشماتة العاذلين بي. اقدمت على منكر لا تحمد مغبته، واخشى فيه تنديدك واستهانتك بي .فاني لمجرم سخيف ،يستجير بحلمك الوسيع من غباوته الرعناء !

فاشتاق الجميع ان يعرفوا الرجل . فمن هو ، وقد اثارت كلماته عاصفة من شجو وفضول ؟... قال الحسين : زحزح قناعك . لا بأس ان نقف على سرك ، ونجتلي امرك . فمن تكون ؟

فامتثل واماط اللثام بيد ترتجف .واذا غمغمة تعلو المجلس ،وقد مازجها الخوف : عبد الله بن سلام ، ضحية يزيد !

واتسعت العيون رعباً حيال الدمامة العارضة . انه لوجه عائد من القبر. طالت لحيته على اصفرار محيا ،وذبول عينين ، وهزال ، وغؤور . ولولا بقية من تباشير ، لانكره من يجمعهم المجلس.ألا كم تبدل عبد الله ،وكل ما نعم به من روعة ونضارة انطفأ فيه ، الا الاباء . وانحنت قامته وهو يكشف عن ملامحه.وخاف ان تجول عيناه في الابصار المسددة اليه ،فاطرق.

فهو مهزوم خجول . وبلع الحسين ريقه ، وقد ايقن انه هو . ففي اي حاجة شمّر اليه ؟... وتماسك حفيد الرسول ، وقال بلوعة الاشفاق : عبد الله ، أأفضى بك نكدك الى هذا الحال العسير ؟

فكاد دمعه يفضحه . قال : هذا جزاء من يؤمن بذي الختل والغدر ، يا امير المؤمنين . خدعني معاوية عن نفسي ، فاستنمت اليه . ولم اكن اعلم انه يراوغ كالذئب . غرّتني ملامسه ، فعانيت لسعاته . واني لراض بما انتهى اليه جهلي . ولم امثل بين يدي امير المؤمنين معاتباً ، بل مستنصراً . ان استئثاره بارينب لانتقام لي من الرجيم . بارك الله له فيها ، وقد اخزى بالعقد له عليها عدوي الماكر ، ولطمه لطمة افقدته البصر والرشد . واذا ملكت الجرأة على ارتياد هذا المعقل ، فاني لابدو فيه للاستمتاع ببعض تافات من مال ، اودعتها ارينب ، وابى عليّ دهري العاتي ان اتناساها . فالفقر ساقني الى امير المؤمنين ابحث لديه عن وفري ، لا طمعي في حسن لست به ذلك الحقيق !

فتولت غمرة من الالم الناخع سامعيه . انه لمنكود مرزوء . قال الحسين : أيكون لك عند ارينب مال جئت تطالبها به ؟

فاجاب بصوته المنتحب : هو مال لا يجوز لمثلي ان يدعيه . ولكن نضوب يدي ، وشحّ موردي ، اهابا بي الى استدرار عطف من ليس لي ان اقدم على مخاطبتها في الخطير ، ولا في الحقير !

فقال الحسين يظاهره على امره : ان تكن ارينب مؤتمنة على هذا المال ، يا عبد الله ، فلا اراها جازفت به . فانها لتستبقيه على عذرته . وانت تعرف ارينب كما اعرفها . فما تؤتمن عليه يرتع لديها في حرز حريز !

قال عبد الله وما يبرح يتأوه وينوح : ليس في النساء كأرينب ، يا ابن علي . فان فيها من الحرص على الحرمات ما يندر في سواها . هذه آية الله في خلقه . فمن غنمها غنم الحسن ، والوفاء ، والرفاء . فالجنة حيث تكون !

واجاد وصفها . وانتفضت الشفاه بالوشوشات : ما يزال يهواها !

فقال الحسين : سنوفد الى ارينب من يستوضحها طلبتك . فاذا ايدتك في ما تعلن ، جئناك بالوديعة سليمة ، مجلوّة !

وصاح باحدى الجواري : ادخلي الساعة على ارينب في مخدعها . وحدثيها بما يسأل عنه عبد الله بن سلام . وعودي اليّ بالجواب الوشيك !

ودعا ابن سلام الى الجلوس في الايوان . فاستحيا عبدالله . أيجلس بنتنه ورثاثته بين هؤلاء السابحين في النعمة ، ومن اجسادهم يفوح الطيب ؟ . . . وحدق الى الحسين وهو يجمجم متشفعاً في نفسه : ألا عفوك عن زرايتي !

فهتف به ابن علي ينفحه بالعزية : لا عليك . اجلس . ما كان الثوب ليرفع من شأن الناس ، ولا الفقر ليحط من مكانتهم . انت من قريش ، سواء كنت على املاق ، او نعمت باليسر . ولقريش منزلتها في العرب ورايتها في المسلمين !

وابى عليه الا ان يجلس في المقام العالي . ونادى خادماً من خدمه يقول له : يا غلام ، احمل الى عبد الله خير ما عندي من كسوة !

فاستغفر ابن سلام الله عن هذا الازعاج . قال الحسين يمعن في اقالة العثرة : انت في دارك . فاطلب ما تشتهي . ما جرّدك منه معاوية من مال ، ومتاع ، سنسخو به عليك . انك لمن ابناء الاعمام . ولسنا نريدك عرياناً ،

معسراً !

فبكى. وبكى جميع من في المجلس. والسماح النديان يستدر هاتن الدمع. قال الحسين : ألا حدثنا بما لقيت من مكر ابن هند . فهل بلغ به الكيد الى الوعد ، ثم النكث ، فخدعك بصفية ، ثم لواها عنك ؟... انه لهادم يستطيب العبث بالناس ، كأن الناس سبحة يلهو بها. يدين بالاسلام الرفيق ، ولكنه ما يبرح يعيش بفظاظة الجاهلية . ابوه تاجر بالعباد ، وهو ولوع بهذه المتاجرة . واي شأن لديه لتحطيم القلوب ، ما دام قلبه على صفو ومرح؟... انه ليستعبد الارواح ، ولكن هذا الاستعباد ، اذا توالى ، لا بد ان يجرّ الى العصيان . فينتثر العقد ، ويتداعى الركن . عبد الله ، ستكون بيننا عزيزاً ، أهيب . اذا ضاعت في خدر اريتب الوديعة ، فانك لواجدها في راحة الحسين !

فعاد ابن سلام الى تقبيل الارض بين يدي ابن علي . انه لشهم مفضال هذا السيد النجد ، وليس يفرّ من حق ، ولا يخاتل في عهد

ووقفت الجارية بين يدي ابنة اسحق . واريتب ، مع رضاها عن بعولة الحسين لها ، ظلتْ تعيش بنبضات قلبها . فالحب الاول ، الخافق فيها ، ما يزال على غليان . وقعت من عبد الله بن سلام ، ولن تهوى سواه . ان الحسين لاسمى عترة ، وارفع جبيناً . بيد ان الحب لايقيم وزناً للحسب والمقام. ومع كل ما لقيت من اكرام ورفاه ، في عصمة ابن علي ، ما برح فؤادها هائماً بابن عمها ، بمن حلقها منه في غشية غشواء

وعذرته . اغراه معاوية بالمعالي ، فانقاد اليه . وللمجاملة نصيب من هذا الانقياد . وهي مجاملة ذهب ضحيتها عبد الله . فهزأ به ابن هند فور ادراك

البغية . غير ان طابخ السم آكله . فما طمع فيه معاوية باغواء عبد الله ، انقلب شره على معاوية وابنه . واطمأنت اريب الى انتقام القدرة ، وما زالت ترجو لقاء من تدين له بالحفاظ . ولما ابلغتها الجارية ان عبد الله في حضرة الحسين بن علي ، تراءى لها انها لم تسمع ، وان القينة اخطأت البيان . فاستوضحت باستدارة حدقتين : تقولين ماذا ؟

واضطرب لبها قبل ان تدلي الامة بالايضاح . قالت الجارية : عبد الله بن سلام بين يدي مولانا ، يسأل عن وديعته لديك . فهو يقول انه ائتمنك على مال . والحسين بن علي ، سيدنا وولي نعمتنا ، يريد ان يعلم اي امانة عندك لعبد الله !

فايقنت بعد التكرار ان عبد الله هنا ، على خطوات قلائل منها . واشتد بها الخفقان ، وقد ادركت ان من تهوى يأوي الى دار تقيم فيها . وسألت بدهش يلتمع فيه الشوق الطروب : أيكون عبد الله هنا ، في ايوان امير المؤمنين ؟

ــ هو فيه . رجع من دمشق على هزال وإصفاء !

فصاحت اريب بوهلة : على هزال وإصفاء ؟... ماذا تعلنين ؟ . . . نزلت بك العلة !

قالت وقد تعوّدت هذه اللواذع : اعلن ما شهدت عيناي . الحسين بن علي يرقب جوابك !

ــ ألا ابلغيه ان لعبد الله بن سلام عندي ثلاث بدر طافحة بالنضار . وله ان يتسلمها ساعة يشاء . استبقيتها ليقيني انها دين في عنقي . فليقبل عبد الله وليأخذ امواله . انها لتحيي من ألحدت بهم القبور !

وهاجها الحنين الى عبد الله . فهي ترغب في ان تراه كي تؤدي اليه الامانة يداً بيد. وهو هنا. فما اعظم شوقها الى اللقاء !... عالنتها الجارية انه في هزال وإصفاء ، فلا قامت لمعاوية قائمة كم بالغ في الانتقام من البريء المظلوم !

واضاء الحب كبد اريتب . هذا هو العشق اللباب . واندفعت ابنة اسحق تتمتم دون ان تدري ما تقول : ابن عبد الله ؟... اريد ان اراه !

فالاخلاص والهيام نطقا فيها . وقفلت الامة الى الحسين بن علي تجاهره بما افضت به اليها اريتب . قالت : مولاي ، لا تبرح الوديعة بين يديها على جمام . متى اراد عبد الله ان يتسلمها ، فهي له !

فاستفهم الحسين : أيكون المال عندها ؟

ــ ما يزال كما ائتمنها عليه ابن سلام !

فبلغ اعجاب من في المجلس باريتب مبلغه الخفيّ . واطلق الحسين صيحة الرضى والاكبار ، فقال : بورك فيها من سيدة نقية الجيب . سلامة طويتها ، ورفعة خلقها ، تقيمانها في الذروة السامقة من كرم النفس ، ونصاعة الجبين !

والتفت الى عبد الله يقول : مالك مصون ، يا ابن عمي . بوسعك ان تتقاضاه ساعة يطيب لك . فان ما تؤتمن عليه اريتب ، لفي نجوة من الهلكة. الحمد لمن وهبنا ، في مخلوقاته ، نساء لا يعدو عليهن الطمع ، ولا يفضحن الخفية . فلم تصارحني اريتب بان المال يستقر بيدها ، بل رأت ان تبقي الامر سراً حتى يوم اداء الامانات. والآن ، وقد حصحص الحق ، يا عبد الله ، لك ان تدخل على اريتب وتسترد مالك كاملاً . فلست ابخل عليك بهذا اللقاء ، وقد جئت تأخذ حقاً واضحاً ، لا سبيل فيه الى روغان !

وقاده بيده الى مخدع اريتب وهو يقول : هنا تقيم ابنة اسحق . فادخل ولا تحذر . الحسين بنفسه يبيح لك مرأى من طلقت بالامس ، وحفظت لك ما اودعتها اياه من مال . حرصت عليك مع كل ما بدوت من ايمانها بتليد الوفاء !

ونادى باعلى صوته : أُريتب !

فأطلت من شق الباب . قال : افتحي . هذا ابن عمك عبد الله بن سلام جاء يسألك في نفسه ، فاعيدي اليه وديعته . ان المطبوعة على الجلال لتمانع في هضم الحق الابلج . هنيئاً لك من سيدة تفخر بها المروءات !

وفتح بنفسه الباب ، وانصرف . ان امرأة كـأريتب ليست بحاجة الى رقيب عليها. فان ما نشأت عليه من حفاظ ليعاند في ركوبها الزلل . ولها من نفسها ما يقيها التمرغ في الادران

واشرف الحسين على ايوانه ، واذا بجميع من حوله على فائر الدهش . أيجيز لعبد الله واريتب ان يقيا على خلوة ، والحب بينهما نار تتلظى ؟ . . . فرفع الحسين هامته حتى كادت تطاول السحاب . وقال بوقار في اللهجة ، وباطمئنان في النظرة : انا مؤمن بطهارة اريتب ، وبإباء عبد الله . فالمرأة الحصان ، الرزان ، والرجل العفيف ، الكميل ، لا يحتاجان الى من يحصي عليهما الحراك والكلام !

فخلع على المجلس جواً من مهابة ، خشعت فيه الابصار . وامسك الوقار المبسوط بالانفاس ، فامتدت على حذر . هذه الثقة بعبد الله واريتب دلفت على ايمان بالخلق ، وعلى اعتزاز بالصولة . فما تقبض عليه عين الحسين بن علي ، لا يجرؤ ذو نفس يتردد ان يشزره بنظرة حرام

١١

لا ،ليس في الحب نسيان ، حتى في الحب الخائب . وقد يكون هذا الخائب اقرب الى الذهن ، وابقى في الضمير . فلا يسهو عنه الخاطر ، وهو لفتة تدارك في وثبة الخيال

وللفتور ان يعرو المودة . غير انه لن يمحوها .ولا بد للوعي، حيناً بعد حين ، من الانتفاض عفواً بخلجاتها

وما الحب سوى حاجة نفس لا تكتفي . وهي ، مع اكتفائها، لا تقوى على نسخ ما توالى عليها من هناء ، وشقاء ، وابتسام ، وبكاء . فالذكريات فيها لا تنقضي ، بل ترف كالوميض ، وفي سوانح لا ترقبها المهجة ، كلعلعة البصيص في الظلام

وعبد الله بن سلام ، اذا جنحت به شهوته في المعالي ، عن اريتب ، فما يفتأ من ابنة اسحق على راسخ الحنين . وزاده اخفاقه شوقاً اليها . واريتب ، مع نزولها اكناف الحسين ، واحرازها المناعم ، ما انفكت ترنو بروحها الى من اضرم فيها وقدة الكلف . وهل لمن سلخ الظلم ، بعضها من بعض ، ان يتجاهلا خفقة الجنان ؟

شتتهما الاقدار بلؤمها الطاغي ، لتجمع بينهما بعد حران . والماكرة اويقات من مؤاتاة، لا لانصاف مظلوم ، بل لايلام ذي طماح . فالقدر لا يحالف هنا ، الا ليكيد هناك .وما من فرحة ،عند قوم ، الا وهي ترحة

عند الخصماء ، وربما عند الخاصان

وعبد الله واريتب ، وقد تلاقيا ، سيفجعان قلوباً تمضها الالفة ، ويهدّها الانسجام. وما تهنأ روح بسوى شقاء ارواح . كأن السعد والتعس تعادل فيهما الكفتان ، وقد توزعا في الخلق بمساواة

واطلقت أريتب في عبد الله عينين صافيتين ، باسمتين . ان في رؤيتها اياه لمحواً للكبوة ، وضمادة للجرح النعّار . واستحيا عبد الله . وغابت في الارض باصرتاه . وخانه العزم على الحركة والبيان

هو على خجل بمن كفر بعهدها. وازرى بانفتها. واباحها للالم والنواح. واستحكم منه صارخ الندم ، وقد تجنى على نصيع الحفاظ ، وفريد الرواء . واحس بانه ابكم، وما كان نزوعه الى النطق ليخلع عنه خرسه . واي معاذير له في طلاق اريتب ، وما نشزت ، ولا اثمت ، ما احرجته في مطلب ، ولا استمسكت بهوى خزيان ؟

وما ندّ عنه ان طلاقه اياها زادها رفعة . فسعى اليها الائمة ، وابناء الائمة ، يفتحون لها الصدور. وما كان نصيبه ، من عزوفه عنها ،غير الحقارة والشقاء. فارتدى الاسمال. ونضبت يده حتى من بدل حالمة. فبرّح به الجوع. وسبق امتهانه خطوه . وكان ، واريتب في عصمته ، على شرف وجلال

واعتبر . وادرك مبلغ جنايته على نفسه . بيده اذوى امله ، واحرق كبده . وستظل هذه الكبد على مزمن قرحة ، واليد الممسكة باريتب قابضة عليها بجمعها . فليس بين الاصابع فرجة تشفّ عن قبسة من رجاه

واذا رضي الحسين برد" المطلقة ، فقد تمانع اريتب . ابنة اسحق غير منقوصة المكانة لتوهب كالفضالات . على ان اريتب في نفس نضت عنها

الغلّ ، وهي الصادقة الشوق . فان يكن اعراض ابن سلام عنها صوّح دعتها ، فما طمس وجدها . وهالها ان تبصر عبد الله في جهامته وهزاله ، فتألمت بعد البسمة ، وناح فيها الجأش. فاي انقلاب يعصف بالحبيب المختار؟

تبدل حتى تنكر . فهو في نحول الغرثى ، وذل المستعطين ، ونتن الحشرات . واشفقت عليه في مسكنته. انه ليتناثر كالملاءة المهلهلة . ودنت منه تقول برعشة في الصوت ، وبلوعة في الاداء: هل انتهى بك سوء الطالع الى هذا الحال الانكد ، يا عبد الله ؟

فتواثبت حنجرته في غصة واخزة. اريتب تكسوه عطفها ورحمتها ،وكان يرقب منها التعيير والتنقص . وابتلّت عيناه بالدمع ، الا انه تجلد ، وقال وما يبرح على اطراق :جنف عليّ الزمان ، فافضى بي الى المهلكة ، يا اريتب . واني للملوم . خدعني معاوية ، فبذلت له نفسي ، فاودى بي . انا قاتل رفاهي وعزي ، يا ابنة عمي ، فلقيت جزائي. اشمتي بي ما استطعتِ . سفالي أذلني . وما كانت قدماي تقوداني اليك ، الا انه الفقر ، يا اريتب . فمنذ شهر وانا اجتاز اليك القفار على غضيض استجداء . عبد الله بن سلام ، ابن عمك ، اضطر الى السؤال ليأكل اللقمة . فانظري الى ما انتهى بي اليه بؤسي ، وسوء تدبيري !

فشهقت شهقة الالتياع لهفة على تعسه . ولم يطق الابقاء على دمعه ، فازراه ، يبكي به فادح مصابه. قالت اريتب ، وماء عينيها يشرق في خديها: هل بليت بهذا الشقاء كله ، يا عبد الله ؟

قال ، وحسرته ترين على لهجته ، وتميل بكلماته الى النضح باساه : بلغت من الخزي ما لا يبلغه الذليل الناصية . صرفني معاوية عن دمشق مطروداً ،

مهيناً ، فجئت اليك ، على فقري ، اسألك في امري . كنت اودعتـك بعض المال ، كما ينص" وهمي . فهل اكون صادقاً في ما يشخص لي ؟

قالت بشدة تجلو الحرص على الامانات : مالك لا يبرح على تمامه . فالبدر الثلاث في خزانتي ، ترقب ان تتسلمها مني . تعال انقدك اياها ديناراً فديناراً !

فاعجب فيها بالسماح والولاء ، وقال : ليس من حقي ان اتقاضى منها درهماً . فهي لك ، يا ارينب ، وقد كلفتك اضعافها من قاهر البلاء . على اني ارضى منك ببعضها ، كي يستقيم امري . فهاتي ما يجود به علي" سماحك المعوان !

وناء قوله بدمعه . ولم تكن اريتب لتنقطع عن البكاء . قالت : بل المال لك كله . فلن استبقي منه علالة . هذه البدر امانة لك عندي ، واني لاعيدها اليك مهما فرط منك في بهرج السراب . وما اجهل انك كنت مكرهاً في ما اقدمت عليه من هجران !

فاعلن بصارخ الحزم : لن اتقاضى هذا المال باجمعه ، يا اريتب . فاني لقانع منه بما تتفضلين به علي" . هاتي منه ما يقيني ، لبعض الزمن ، هول الحرمان ، ولن يتنكر لي السعد حتى الابد . فاذا وترني معاوية حقي ، فان لي من شبابي مسعفاً في قهر المحن مهما يبلغ من تنمرها واستذئابها . القليل من البر" يكفيني . سأركب المفاوز الى المدينة واختفي فيها ، دافناً علتي في صدري !

فراعها ما ازمع . قالت تتماسك عن الطمع حتى في دانق : اني لاكون في خسة معاوية اذا حجبت عنك من نقودك سحتوتاً . ألا أخبرني ، هل صدقت معاوية في ما أضلك به ؟

فاجاب بانكسار المهيض الهمة : ما كنت اعتقد ان معاوية يغدر بمثلي ،

وانا لا انافسه في سؤدد، ولا في مرتبة. ولست غير عامل من عماله، يوسعه ان يقيمني ويقعدني بإيماءة. فما دهمني الظن انه سيرفعني اليه ليسلبني اباك، وقد حسبته على صفاء نية وهو يحدثني بعولتي لابنته صفية. الا ان الماكر لا يقوى على سوى المكر. فالخبث يلازمه حتى في ما بينه وبين نفسه. وانه ليخدع نفسه، ان تكن المنفعة تقدر عليه هذا الخداع. واني لي ان ادري انه يسدد اليك نباله، وهو يواربني في ابنته ؟... اني لاقر بعجزي عن ادراك مخازيه!

قالت تسأله عن رأيه فيها، وقد عزّ عليها ان يرتضي سواها امرأة له:
وهل تضحي بارينب لاجل صفية ؟... أتعدل ابنة معاوية بابنة اسحق ؟

فهي تنتصر لكرامتها، كانثى ذات روعة وسناء. والنفس هائمة، على رغمها، بالاثرة، وخصوصاً في المتفوّقين، وما يشوقهم الا النظيرة. فالصدر حيث تمتد بهم القدم. فاعلن عبد الله في غمرة الجهر بمقابحه: وهذه من مشاييني، يا ابنة عمي. اطفأ ابن ابي سفيان بمقاله الكاذب بصيرتي، فآمنت ومشيت وراءه كالاعمى. ما ابقى لي المماذق على نية، وقد ذهب وعده الباطل بما يختلج به صوابي من رشد. فعفواً عني. جنيت وما دريت، الا بعد الاوان، باني الجاني!

قالت بلذعة ما عراها من كسوف، وقد فضّل عليها عبدالله ابنة معاوية:
عفا عنك الله. كلما توالت الايام ازالت من غيظي، الا انها لا تزيل من وجدي. فما ابرح على حنين الى عهدنا الخالي. ولكن ما فرض علينا النكد لا يشفع في رجاء. والحسين بن علي ارحب من يزيد بن معاوية. فلو ألقى بي سوء حظي، في قبضة يزيد، لكان من المحال ان اراك. ولربما قتلني جزعي. فالعناية ما تفتأ ترأف بنا، يا عبد الله. أتذكر ما كان في يوم دعاك اليه

معاوية ؟... أبيت عليك اجابة الدعوة، وحدثتك بما ينبض به قلبي . كنتُ على ريب بحسن المآل . اما انت ، ألم تحفل بسوء ظني . وتململت شوقاً الى دمشق . فماذا لقيت فيها ؟..... الغش والموت . ما في قصر الخضراء غير هذه السوق يبيع فيها معاوية ويشتري . أما رأيت باي بدل اشتراك ، وباي ثمن باعك ؟... اشتراك بالمداجاة ، وباعك بالخاتلة . لا وفقه الله في مطلب . ان في نفس يزيد مني اشياء ، يا عبد الله . هو يبحث عني ، ويسعى للاهتداء اليّ ،منذ اصيب ابوه بضربة الخارجي ، الحجاج بن عبد الله الصريمي. فارتدت يومذاك قصر الخضراء ، يصحبني ابي وامي ، لعيادة الخليفة الجريح .وتحلقتُ واترابي على الطبيب الساعدي ، نسأل عن حالة معاوية . فاقبل يزيد يبغي رجل العلم . وما وقعت عينه عليّ حتى ساورته الرعشة. فوقف ازائي،متعتعاً، بل مشدوهاً . ولست بمن يخفى عليها طبع يزيد . فان ابن معاوية لِطلابُ نساء . ورأيت البطولة في الحرب ، فتواريت بين الجموع ، لا يحاولني بصر . وتعجب يزيد من نفسه كيف غفل عني . وجاهد في ادراكي ، فخاب مسعاه. واقام يتحسر على فرصة ضاعت منه . ودرى باني في حيازتك ، فنظم ومعاوية تلك المكيدة الدهياء ، وكنا من ضحاياها . فلم يكن في نفس ابن ابي سفيان ان يزف اليك ابنته، بل ان يغريك بها، ليفصلك عني . ولقد نجح في فصل بعضنا عن بعض . غير ان الامر عاد عليه بالوبال . فنعم بي الحسين دون يزيد !

فجمجم هالعاً : نجنا اللهم من الشيطان الرجيم !

قالت ارينب : ذاك بيت قام على الدسيسة ، وسينهار بالدسيسة . وما يحسن معاوية غير المكر والاغواء . ان خراب البيوت ديدنه . فالمفطور

على الشر ، لا يرجى منه صلاح !

فقال عبد الله يدعو من صميم كبده على ابن هند: لا عرف الهناء في ساعة من ساعاته. افترى عليّ ، وانا في أمن وطمأنينة ، فهدم انسي ، وشوّه يانع سعدي . وماذا سوف ألقى في غدي ، وقد سلخ مني رغدي ، وداس بنعليه مسرتي؟... اريئب ، سأقضي العمر على مشقة وضني. وكل ما بقي فيّ من رمق ينعى اليّ زمني. فلا اراني بآمن من الويل ، ولن يبتعد عني الشؤم ما دمت بعيداً عنك . وعزائي انك للحسين ، لا ليزيد . ولو كان يسخو عليّ الحسين بك ، لكنت استعيد بهجتي وصفائي. غير انها امنية تعز عليّ . ومن الوقاحة ان استجديها من ابن علي . حسبه انه اجاز لي مرآك . عفوك عني في حمقي ، وقد اشقيت به نفسي . اما انت ، فتمتعي بطايب دنياك . اذا ارختك يد عبد الله ، فقد صرت الى يد ترشح بالنبل ، وتستعصم بالاقتدار !

فهمت شؤونها تملأ الخدين الصبيحين . وقالت وهي تشرق بدمعها : ان الحسين بن علي لمن سادة الجنة. فالوفاء من طبعه ، والشمم سجية فيه . الا ان الاقامة ، في حوزتك ، احب الى نفسي ، واصفى لقلبي. مما ابثك اياه لا اقدم على مباحثة الحسين فيه . فانا ابدأ منه على اجلال وخشية . وما ألقاه تحت جناحك ، من هناءة ، غير موفور لي في هذا الصرح ، على ما تحفل به ارجاؤه من فاتن ، كريم . فاللقمة الجافية ، في كنفك ، اطيب طعماً ، عندي ، من مدمّث الافاويه في رحاب سواك . فان ما تنغش به كبدي ، من وله ، ما يبرح يجذبني اليك !

فبكى بدمع مدرار . بها مثل ما به . وقال باضي لهفة : اريئب ، اريئب ، لا كانت ساعة ابصرك فيها يزيد. كيف نعود الى ما كنا فيه؟...

أأخطفك ؟... ان قطع يدي لاسبق من هذه الخيانة اجزي بها ابن علي . لسنا نطيق الحياة ، والمسافات تباعد بيننا ، فهل من سبيل الى اللقاء ، على كرامة ، دون ان نسيء الى ذي فضل ومعروف ؟

فقالت والكلام يوشك ان يغور في صدرها : كيف ، يا عبد الله ؟... اين السبيل الى المرتجى ؟

قال والزفرات تصوّح حنجرته ، والعبرات تكوي ناظريه : ازينب ، فكري في ما يرجع بنا الى ماضينا الحبيب. عرفتِ الحسين معرفة جلية ، أفما تبينت فيه مكمناً للرحمة ؟ ... ربما اشفق علينا ، ووهبك لي . خاطبيه في امرنا . عالنيه انك لا تبرحين على ميل الي ّ. ليس الحسين بالاغلف القلب ، ولا بالصفيق الشعور . فان انطباعه على الكرم والنبل يهيب به الى الرفق بنا . وما تزوجك عن هيام بك ، بل عن كره لمعاوية الكريه . وعودتك اليّ تجرح ابن هند في صميمه جرحاً لا يبرأ . فيشيع ندى الحسين . ويعلم المسلمون ، جميعاً ، ان ابن علي عزّ حيث هان ابن هند !

فقالت والوهلة ترين عليها : ألا يبدو لك اني اغمط فضله ، وانا أفجأه بهذا الحديث ؟... سيحس باني لا اريده ، ويروّعه مني انكار يده . وهو مما لا يشوقني ان اظهر فيه . فما لقيت منه غير المروءة والحلم . فكأني سيدة هذا الصرح . يتوفر الجميع على خدمتي باخلاص وبشر . ومباحثة رجل ، هذا موقفه مني ، في النأي عنه ، مما يغمز من احسانه اليّ . ولست اريد ان ارتدي اللؤم حيال من دفع عني مكايد قصر الخضراء ، وانتقم لي ولك ممن جنى علينا !

فاقنعته بضرورة الصبر . ليس من امل بجمع الشمل . واحرق هذا الحائل

المفروض خاطرهما ، وارتميا في الارض ، بعضهما بجانب بعض ، والنحيب يأخذ منهما بمجامع الاوصال ، كأن في كل عرق من عروقهما خلجة من شهيق.

وهال اريئب ان يدهمها الحسين بن علي في نواحهما ، وجثوهما في الارض متدانيين. فحبت الى البدر الثلاث المحشودة في خزانتها تغرف منها الحجارة الكريمة والدنانير ، وتعدّها فيما تلقيها في يدي عبد الله . ويتقاضى عبد الله ماله وهو ضائع عما يملأ راحتيه. فينتقل الحجر الكريم ، او الدينار ، من يد اريئب ، الى يد عبدالله ، مبتلاً بدمعتين ، بدمعة ابنة اسحق ، ودمعة ابن سلام. وتمنيا ان تطول الجثمة المائعة ، فينقضي العمر في عدّ البدر الثلاث . وكم تتدحرج الدنانير الوزان في ارض الغرفة من يد عبد الله ، وقد تاه عنها . فلم يكن يشعر بسوى مرأى اريئب . ما تزال كما باينها . فالاناقة لا تبرح فيها على غلواء ، والقسامة الخضلة على وفر . وما تبدل فيها سوى مرحها الطاغي ، وقد حلّ محله وقار كئيب

وتتلامس الايدي في عدّ الذخر ، فتجري في الاعصاب رعشة تطفح باللذّ المخمور . واستبطأ الحسين هذه الخلوة ، فشاقه ان يرى . ولم يكن منه الا ان نهض الى مخدع اريئب ، يستطلع حالة المقيمين على وحدة . ودخل مجلس رد الامانات على رؤوس اصابع رجليه ، دون ان يشعر به الحبيبان الباكيان . وسمع النواح ، وابصر بالدمع يرشّ كرائم الوديعة . بل شاهد الدنانير تجري في الارض ، وترصع البساط الممدود ببريقها ، ونفاستها ، والعاشقان غائبان عما هما فيه من شأن . اريئب تعدّ ، وتجهل كم عدّت . وعبد الله يتقاضى ماله ، ولا يعلم كم تقاضى !

ووضح للحسين ان الحب لا يفتأ يشغل القلبين ، وان هيام عبد الله

باريٍنب ، وهيام اريٍنب بعبد الله ، لم تبددهما القطيعة ، ولم ينسخهما الطلاق، وما يزالان على طفاح ، كأن لم يقع بين الزوجين ما افسد عليهما الجوى الحلال

وأعجب الحسين بالحب المتأجج الضرم . وظل في وقفته لا يحاول ان يمزق حجاب السحر بكلمة ، بنفثة . واستطالت فيه بسمة الرضى . فليس ناقماً على هذا المشهد البريء ، وقد نبض فيه القلبان نبضات الحب الينيع ، الركين

وتمادت الدنانير في دحرجتها في ارض الحجرة، وعبد الله لا يكلف نفسه التقاطها . واريٍنب لا تحس بسقوط النضار من يديها . فالاثنان في غشية تقصيهما عن الحقيقة الصراح . وامتلأت راحتا عبد الله بالمال ، وهو ما يزال يبسطهما ، مع ان الحفنة العارمة لا تتسع للمزيد. فقال الحسين مازحاً: ألا اين جرابك تفرغ فيه حفنتك ، يا ابن عمي ؟

فتمزقت غشاوة الفتون . وارتعد الحبيبان ، فامسكا عن عدّ المال . ووثبا من جثمتهما بانتفاض الهلع . وانحنى الرأسان خجلاً وذعراً . وودّا لو يطويهما الردى . فيا للفضيحة الناخعة وقد فوجئا في شبه ريبة. فضحك الحسين ضحكة رؤوفاً ، وقال : لا عليكما . ايقنت الآن انكما لا تبرحان على مودة . واني لاعيدكما الى ما كنتما فيه من نعمة . اريٍنب لك ، يا عبد الله . فاني اخلعها عني. وانت ، يا اريٍنب ، هذا هو عبد الله ، ابن عمك، فارجعي اليه . والله ، لن ارضى لنفسي القضاء على هذا الحب المتأصل في اعماقكما . تمتعا بغضارة الهوى ، واغرفا من لذاذات الصبوة ما تمتد اليه ايديكما . ما كنت بمن يعكر على المحبين صفاء ايامهم . وللحب في شرعة المنصفين حرمة

تصان !

ونادى كل من ضمهم مجلسه، يخطب فيهم : اشهدوا عليّ ان اريتب بريئة مني . فهي لزوجها الاول عبد الله بن سلام. عبد الله احق بها منا جميعاً . واني اعيدها اليه مثقلة بصداقها . فمن الكفران الاستئثار بقلب يذكي فيه حب تليد !

فتعجب منه سامعوه . ما الخبر ؟... قال : نظرت اليها في جلستها فراعتني فيها فرحة اللقاء.منذ ساعة وهما يعدّان المال، وما انتهيا من حفنة. انهما لفي غفلة عما هما فيه. ها هو ذا المال يملأ الارض ،وما شعرا به يتناثر . ومن الظلم ان يواثب الانطفاء الحب المتقد بين اضالعهما. اني اعيدهما الى ما كانا عليه من بعولة !

فتولى الخبل القوم. ما كانوا ليؤمنوا بما يسمعون . ووراءهم ما يسود عبد الله واريتب من بحران.فالخوف من الحسين ، في ما باغتهما فيه ، ذهب بقلبيهما. فالقتل لا محالة جزاؤهما.بيد ان الاصغاء ،الى ما ينطق به ابن علي، اذهلهما عن امرهما ، فتضعضعا. ولم يدريا ما يصدقان . أيصيران الى القتل ، ام تغمرهما الرحمة ؟... قال الحسين : انتما حرّان في البقاء عندي ، او في الانصراف عني ، ايها النسيبان !

فتلاشت فيهما الرهبة الشاحطة الامد . أصحيح انهما عادا الى حبهما الطليق ؟... ولم تسعفهما ارجلهما في الوقوف ، حيال رعشة الغبطة . فسقطا بين يدي الحسين في سجدة الشكر ، وهما يرددان باجلال : سماحك الابرّ يرجع لاعج هوانا ، يا حفيد الرسول !

وانهالا على يديه الندّيتين بشفاههما العطشى .فقال الحسين وهو يباركهما

بيمناه : لمثلكما تطيب الحياة . فاجرعا من ثمالاتها بما تنتشيان !

فارتفعت الدعوات بالتأييد والعمر المديد . وبرح عبد الله واريتب الكوفة الى المدينة، يرتعان في افيائها الظليلة ، على جذل خميل ، فيما ينفث، هنالك في دمشق ، قلب مكروب ، مهزوم ، الزفرات الحرار ، ويستحم بدموع سواجم ، تزيد في الحرقة ، كأنها الزيت على متأجج النار

وتوعّد مرشفان ، يتلجلجان خيبة وغلاً، بغد كالح حقود، كأن فاجعة كربلاء،حيكت خيوطها السود ، انتقاماً للخيبة الأكول ، في اريتب بنت اسحق !

﴿ تمت ﴾

توفرت مطابع «الف ليلة وليلة»
على اخراج هذا الكتاب في ألفي نسخة
بيروت في سنة ١٩٥٤